أرض النخيل

عرض تفصيلي لرحلة امتدت من بومباي الى البصرة والعودة اليها، مع وصف شامل لموانيء وشعوب الخليج العربي وشط العرب واحوالهم وتاريخهم وعاداتهم. تاريخ الرحلة ١٩١٦ ـ ١٩١٧م

تأليف: سي. ام. كرستجي بكالوريوس فى الآداب جامعة اكسفورد.



ترجمة وتعقيب
د. منذر الخور

أرض النخيل

أو رحلة من بومباى إلى البصرة والعودة إليها

١٩١٦ - ١٩١٧م

تـأليـف :

سى . أم . كرستجى
بكالوريـوس فـى الآداب
جـامعـة اكسفـورد

تـرجـمـة وتعـليـق :

د . منـذر الخـور

الطبعة الأولى . البحرين ١٩٨٩م

صدر عن:
مطبوعات بانوراما الخليج:
المنامة ـ البحرين ص.ب ١١٢٢
هاتف ٢٩١٧٧٧ فاكس ٢٦٣١٠٠

Issuedby
Gulf Panorama
MANAMA - BAHRAIN BOX 1122
TEL . 291777 FAX. 29310

عرض تفصيلى لرحلة امتدت من بومباى الى البصرة والعودة إليها ، مع وصف شامل لموانىء وشعوب الخليج العربى وشط العرب واحوالهم وتاريخهم وعاداتهم

تاريخ الرحلة

١٩١٦ ـ ١٩١٧م

تأليف

سى . أم . كرستجى

بكالوريوس فى الآداب

جامعة اكسفورد

ترجمة وتعليق

د . منذر الخور

عنوان الكتاب باللغة الأصلية وهي الانكليزية : The Land of The Date
وقد قام الناشر باختيار اسم : أرض النخيل لاعتبارات النشر
للرحالة الهندى : C.M. Cursetjee
صدر عام ١٩١٨م فى بومباي ..
تمت ترجمته إلى اللغة العربية في ٨٧ ـ ١٩٨٩م .
وصدر عن مطبوعات بانوراما الخليج البحرين .

تـألـيــــف : ســــى . أم . كرســتجـــى
تــرجمـــة وتعــليـــق : د . منـــذر الخـــور

أرض النخيل

عرض تفصيلى لرحلة امتدت من بومباى إلى البصرة والعودة إليها ، مع وصف شامل لموانىء وشعوب الخليج العربى وشط العرب وأحوالهم وتاريخهم وعاداتهم .

تـاريـخ الـرحـلـة

١٩١٦ ـ ١٩١٧ م

كلمـــة النـاشـــر

تقوم مطبوعات بانورما الخليج فى سلسلة اعمالها المتخصصة بتراث المنطقة بنشر كتاب (ارض التمور) للكاتب الهندى (سي . ام . كرستجى) الذى زار منطقةالخليج اثناء الحرب العالمية الأولى وبالذات فى عام ١٦ ـ ١٩١٧ ، ودون ملاحظاته الشخصية وتفاصيل دقيقة جدا عن المنطقة فى كتابه المذكور الذى ينشر ولأول مرة مترجما من اللغة الانكليزية الى اللغة العربية وذلك بعد مضى سبعين عاما على تأليفه .

هذا الكتاب يمثل وثيقة تاريخية ثمينة عن ماضى المنطقة وشهادة هامة عن الأوضاع السائدة فيها آنذاك . ويقدم الكتاب عرض تفصيلى لرحلة امتدت من بومباى فى الهند الى البصرة فى العراق والعودة اليها ، مع وصف شامل لموانىء وشعوب الخليج العربى واحوالهم وتاريخهم وعاداتهم ، وهو بذلك يعد سجلا حافلا بالمشاهدات والمعاينات ، كما يمثل وثيقة مدونة عن تراث وتقاليد وتاريخ وجغرافية المنطقة . إضافة إلى ذلك فان الظرف التاريخى الذى تمت خلاله هذه الرحلة وهو فترة الحرب العالمية الأولى ، يعتبر ظرفا دقيقا وحساسا ومليئا بالمتغيرات على مستوى المنطقة وما حولها ، مما اضفى على هذه الوثيقة التاريخية اهمية خاصة .

كما ان الكتاب يعتبر من جهة اخرى كتابا نادرا ، حيث استطاعت مطبوعات بانوراما الخليج العثور على هذه النسخة النادرة بفضل تعاون الشيخة هيا الخليفة

وهى إحدى القليلات المهتمات بالتراث فى منطقتنا ، والتى عثرت عليه بالصدفة أثناء بحثها عن الكتب القديمة فى إحدى المدن الهندية .

والكتاب قام بترجمته الدكتور منذر الخور ، وهو حامل شهادة الدكتوراه من الجامعات الفرنسية وضليع باللغة الانجليزية .. حيث قام على مدى عامين بترجمة هذا الكتاب ترجمة دقيقة وادبية ، كما بذل جهدا كبيرا فى استكمال المعلومات والهوامش الكثيرة سواء اسماء الأماكن او الشخصيات الواردة او بعض الاستشهادات الكثيرة التى استشهد بها المؤلف وهى كثيرة .

والكتاب فيه محاسن كثيرة تفوق بكثير ما فيه من نقاط ضعف ، وهو يصلح كمرجع للاستدلال والاستشهاد والاقتباس واستقاء المعلومات من نواحى عديدة ، وهو يصلح كوثيقة حول ظروف وأوضاع وأحوال مرحلة مهمة من تاريخ منطقة الخليج ، كما ان الكتاب من النواحى الأدبية والتاريخية والجغرافية ذو قيمة علمية كبيرة نظرا لغزارة المعلومات التى يضعها فى متناول القارىء ، كما أن الابداع الأدبى فيه راق جدا ، وهو بالفعل من « ادب الرحلات » وليس من المستبعد ان يعتمد هذا الكتاب فى المستقبل المنظور كوثيقة من قبل مؤسسات علمية كثيرة .

والكتاب فى نهاية الأمر هو محصلة رؤية الكاتب الهندى والذى ينطلق من موقعه الدينى والفكرى والسياسى ونظرته الى الشعوب الأخرى ، ويتضح لنا من اكثر من نقطة استلاب الكاتب الفكرى رغم ثقافته الواسعة فى رؤيته لدور بريطانيا والشعوب الأخرى آنذاك .. وهى ليست بخافية على القارىء الحصيف .

الناشر

البداية

هناك عوامل عديدة ساهمت فى تهيئة الأجواء الملائمة للقيام بهذه الرحلة البحرية إلى منطقة الخليج العربى ذهابا وإيابا وجعلت منها حقيقة واقعة ، ولكن الحاجة الى الراحة التامة والتغيير هو العامل الرئيسى الذى حذا بى للقيام بهذه الرحلة .

وقد تطلب منى ذلك بعض الوقت للتفكير فى هذه الرحلة قبل القيام بها خصوصا وأن هناك الكثير من الناس الطيبين ذوى النوايا الحسنة الذين كانوا على أتم الاستعداد لتقديم النصائح لى دون مقابل حيث أن بعضا منهم قد رأى أن السفر إلى أى مكان يقع ضمن نطاق ٥٠٠ ميل من منطقة العمليات الحربية فى هذه الأيام التى تدور فيها حربا طاحنة * لهو أمر ينطوى على مخاطرة كبيرة ، بينما تنبأ آخرون بأننى سأجد صعوبة بالغة فى الحصول على تصريح بدخول مدينة البصرة . ولقد اتخذت قرارى بالمضى قدما فى هذه الرحلة ، وقد كنت موفقا فيها اذ لم أصب بأى أذى ولم أقابل أية صعوبة طيلة المدة التى أمضيتها فى هذه الرحلة . وقد أستمتعت بعطلة مثالية ورأيت عالما جديدا تماما .

تعقيب : الحرب الذى يقصدها المؤلف هنا هى بالطبع الحرب العالمية الأولى التى امتدت فى الفترة ١٩١٤ ـ ١٩١٨م

الفصل الأول

المغادرة

صعدت على ظهر الباخرة « اس . أس .زيانى » التى كانت راسية فى حوض « الأمير » ببومباى مساء يوم ٧ ديسمبر ١٩١٦ . فعملية شحن الباخرة بالحمولة كانت لاتزال جارية على قدم وساق بينما سادت فى جميع ارجاء الباخرة بلبلة من الأقاويل حول مغادرتها وموعد اقلاعها من الميناء ، فى الوقت الذى كانت ترفرف فيه راية الاقلاع الزرقاء فوق ساريتها . وقد خلت الاجراءات الصحية من التعقيدات ، واكتفى الطبيب الطيب الودود بمصافحتى مصافحة حارة وابتسم قائلا لى « رحلة سعيدة موفقة » وبحلول الساعة السابعة مساء كان جميع الركاب وأفراد طاقم البحارة على متن الباخرة بينما تولت الشرطة مسئولية حراسة المعبر الخشبى الموصل بين الباخرة ورصيف الميناء وذلك لمنع الأفراد غير المصرح لهم من اجتياز ذلك المعبر . أما الأصدقاء الذين جاءوا اللتوديع فقد غادروا المكان . وعندما صعد الربان المسئول عن توجيه دفة القيادة الى ظهر الباخرة تمت أزاحة المعبر الثقيل بعيدا عن الباخرة ، أما، الأسلاك المعدنية الغليظة التى كانت تشد الباخرة الى مراسيها على الرصيف فقد تم ارخاؤها وتركها تنزلق بعيدا عن الباخرة . كما تم استخدام حبلين قصيرين لسحب هذه الباخرة الكبيرة وقطرها بعيدا عن أرصفة الميناء إلى أن أتخذت وضعا مناسبا فى مواجهة بوابات الحوض مباشرة .

أما الجسر الثقيل الذى كانت تعبر فوقه الأحمال قبل دقيقة خلت فقد انعطف مائلا إلى جانب الرصيف . واطلقت الباخرة صفارة المغادرة واعطى المسئول عن الرسو والاقلاع فى الميناء اشارة الانطلاق من خلال بوق كان يتكلم فيه مودعا ومعربا عن تمنياته لنا بامسية سعيدة . فأنطلقت الباخرة فى حركة هادئة رتيبة وعبرت بوابة الحوض إلى مياه الميناء وهى

أشبه بالباخرة التى تم تدشينها لتوها ، بينما بدت طلعة البدر واضحة جلية مهيبة من وسط سحابة كبيرة من الضباب كانت لاتزال تحجب الأفق من جهة الشرق . وقد بلغت الساعة التاسعة مساء عندما انطلقت باخرتنا فى رحلتها الطويلة .

إن عملية المناورة فى إخراج الباخرة الضخمة من قناة الحوض المغلق والمزدحم بالسفن من كل جانب لهو عمل رائع مدهش من أعمال البراعة العلمية والاتقان الفنى الدقيق . فالعملية ممتعة للغاية وتستحق المشاهدة فهى برهان جلى على قوة أعصاب ومهارة رئيس الحوض الذى نفذت العملية بأكملها وفقا لتوجيهاته وتعليماته ، والذى كان عليه أن يأخذ فى حسابه دائما التيار العالى المتدفق سواء نفذت هذه العملية فى وضح النهار أو فى عتمة الليل .

الفصل الثانى

المرفأ

لقد غمرتنى فرحة عارمة عندما أحسست بأننى أبحر فوق مياه مرفأنا الكبير الزاخر بالمناظر الجميلة . فهذه هى المرة الأولى التى أبحر فيها فوق هذه المياه قادماً من جهة أحواض هذا المرفأ ، فلقد رأيت وتابعت بافتتان شديد المشاهد المتحركة التى تجرى أمام ناظرى ، فقد بدا لى كأننا واقفون بينما الذى يتحرك هو مدينة بومباى ذاتها ولم تتلاش هذه الصورة المضللة للبصر إلا بعد أن أصبحت بومباى بمنأى عن الأنظار . وعندما حددنا طريقنا بعناية عبر بوابة الحوض فإن منظر السفن الراسية إلى جانب الميناء باتجاه « مازغون » و« شفرى » كان يبدو باهتا . فهناك تحتشد أعداد كبيرة من السفن والبواخر المشدودة إلى مراسيها لاسيما المراكب الثقيلة القديمة المصنعة محليا بانوارها المضيئة فوق أعالى صواريها أو فى الجانب الخلفى منها حيث تتلألأ وتنعكس هذه الأنوار فى الماء مما يضفى على هذه المدينة مظهر مدينة الأنوار الساكنة والمدهشة والمثيرة للتأمل ! وبعد هنيهة مررنا بمحاذاة الجزيرة الصخرية الصغيرة التى تعلوها اشارة مضيئة حمراء حيث بدت لنا هذه الجزيرة إلى الجانب الأيمن من الباخرة ، واتخذنا على أثر ذلك مسار التيار الرئيسى متجهين جنوبا نحو البحر . فعندما تدخل الميناء فى النهار فان منظر مدينة « بومباى الجميلة » ـ اعتقد أن « الدكتور واترز » هو أول من أطلق عليها هذا الوصف ـ يبدو أخاذا جذابا الا أن منظر أنوار بومباى بالليل لايقل جاذبية عن منظر المدينة بالنهار ، وذلك عندما تبحر ببطء بين « مازغون » الى « برونغ » على ضوء المصابيح فى الوقت الذى يحتجب فيه ضوء القمر من وراء السحب والضباب . فعلى طول امتداد المرفأ الواقع بين « مازغون » الى أحواض بناء السفن التابعة للحكومة تتوالى المنشآت العديدة كالأحواض والأرصفة والمرافىء والمخازن الكبيرة والمبانى الرسمية التى تمثل جميعها ميناء بومباى

الكبير المزدهر ، وهو ميناء زاخر بالمشاهد المتعددة لانشطتنا فى النقل التجارى عبر البحار . فهنا تبدو أمامنا بومباى ذات الحركة الدعوبة النشطة حيث تجرى أعمال كثيرة هامة على طول أمتداد هذا الجانب من المرفأ ، لذا فالعمل هنا مستمر حتى ساعة متأخرة من الليل . فخلفية المشهد الذى نراه أمامنا تتمثل فى غابة الصوارى التى تلوح من فوق سطح البحر ، وفى الأنوار القرمزية المتوقدة المنبعثة من المدينة ، وكذلك فى مشهد العمارات الطويلة المضيئة بالأنوار والقائمة على طول أمتداد هذا الجانب من المرفأ حيث تجعل هذه الخلفية من بومباى مدينة جذابة فى الليل كما تجعل منها مدينة جميلة فى النهار .

وإلى الشرق من الجهة التى انسابت فيها باخرتنا تتناثر قبالة المرفأ بعض الجزر المتفرقة مثل جزر « أورن » و « كرانجيا » و « على باغ » الواقعة على مدى أبعد من جزيرتى « ين ول » و « درمتار » . فأمامنا منظر شامل تسوده الوداعة والهدوء ويزداد جلالا ومهابة كلما ازداد القمر ضياء ونورا .

وعندما مرت باخرتنا قبالة نادى اليخوت و « ابولو بندر » القديم ، وزاوية « جرين » للترفيه والاستراحة ، وفندق « تاج محل » الرائع ، وهى الأماكن التى تنبعث منها الأنوار المتلألئة ، وتمتزج أنوارها بالأنوار المتوهجة المنبعثة من المبانى الجديدة المكونة من ثلاثة وأربعة طوابق والواقعة على امتداد شارع « ستراند » المطل على شاطىء البحر ، اضافة الى أنوار نادى اليخوت والعمارات العالية البعيدة المضاءة اضاءة جيدة حيث تخلب الأبصار لدقيقة واحدة من خلال المشهد الظاهر فى الأفق لشارع « ابولو بندر » بأنوار مصابيحه المضيئة فقد بدت لنا هذه جميعا كوحدة واحدة متكاملة متألقة بأضوائها الباهرة حيث بإمكانها أن تنافس أكثر المدن الاجنبية تألقا ، كما يمكن أن تصيب الزائر الغريب بالدهشة وتجعل المقيم فى مدينة بومباى فخورا بمدينته الجميلة ، إلى جانب مشهد بوابة الهند العالية والتى يمكن القول عنها بأنها الحارس الأمامى لعموم الهند . وقد لبثت واقفا على سطح الباخرة أرقب هذه المشاهد حتى اجتزنا منارات ارشاد السفن القائمة فوق صخور مائلة نتيجة لهبوب العواصف وبارزة فوق سطح البحر ، وقد رفعت هذه المنارات رءوسها المشعة بالضياء إلى عنان السماء ساكبة بريقا من الأمل والأمان على مدى حوالى أربعين ميلا فى البحر . فقد تجاوز الوقت الأن الساعة العاشرة والنصف مساء . وبالطبع لايوجد هنا فى البحر توقيت ثابت معتمد عليه سوى توقيت الشمس وهو توقيت حر لايستطيع حتى « كيرزون » * أن يتجرأ ويجعله ثابتا أو يضع له ضوابطا . أما الربان فقد أنهى عمله لتلك الليلة وألقى على تحيته ووجهه يفيض بالبشر قائلا لى « طابت ليلتك » . أما منار « كينرى » الواقع فى جهة الشرق فلايزال يبعث من بعيد وميض ضوء متوهج كلما

---

* تعقيب من المرجح أن المؤلف يقصد هنا اللورد « جورج كيرزون » (١٨٥٩ ـ ١٩٢٥م) الذى شغل منصب نائب الملك فى الهند ثم شغل منصب وزير خارجية بريطانيا فى الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢٤م .

أستدرت ناحيته . وقد بدأ البحر هادئا ساكنا متلألا مع أنعكاس ضوء القمر الذى أصـــبح الأن صافيا منيرا لايحجبه ضباب ولا غيوم .

فالهواء النقى المنعش المشبع بالملوحة يهب باردا طريا واعدا برحلة بحرية ممتعة . فالمشهد كان مليئا بالروعة والجمال . وبالرغم أن مدينة بومباى قد اختفت تدريجيا عـن أنظارنا إلا أن توهج هالات أنوارها المتلألئة لاتزال تتراءى لنا فى الأفق على مدى مســافة تزداد اتساعا كلما ابتعدنا عنها . ولقد فكرت ملياً فى السلام والأمن التام اللذين يتمتع بهما الملاح والمسافر الأن بالمقارنة مع الأحوال التى كانت سائدة فى زمن ليس ببعيـد عنـدما كانت بومباى محصورة وراء اسوار قلعتها المحاطة بخندق مائى وتعيش فى رعـب وفـزع دائمين من جراء أعمال القرصنة التى كانت تمارسها القبائل البربرية كقبائل « مـراتا » و « انغاريا » و « سدى » أنطلاقا من مواقعهم الحصينة فى « كينرى » وماحولها .

الفصل الثالث

الرحلة

وفى صباح اليوم التالى كنا قد ابتعدنا كثيرا عن اليابسة ولم نعد نرى من حولنا سوى موج البحر أسفل باخرتنا والسماء فوق رءوسنا ويعتبر موسم الشتاء البارد أفضل وأنسب الأوقات للقيام برحلة إلى البصرة . فالطقس كان مثاليا وملائما إذ أنه كان معتدلا ويزداد برودة كلما تقدمنا باتجاه الشمال حيث تهب علينا الريح الشمالية الغربية الباردة المألوفة فى هذه البحار .

فالشمس المشرقة تسطع فى النهار دافئة باشعتها وجميلة فى تألقها ، بينما تتلألأ أضواء النجوم اللامعة فى الليل . وقد كان البحر طيلة الشهر الذى قمنا فيه برحلتنا ساكنا هادئا حيث بدا احيانا شبيها باللوح الزجاجى المتحرك ، كما كان أحيانا متموجا حيث كان يعلو ويهبط برفق ويتدفق بمرح ويقذف إلى أعلى الموج رغوة من الزبد شبيهة بالثلج . ولم يتعكر صفو هذا الجو الممتع طوال رحلتنا سوى مرتين فقط وذلك عندما هبت علينا عاصفتان شديدتان على نحو مفاجىء وكانتا مثار دهشتنا من شدة قوتهما وعنفوانهما بحيث أصبح الجو رديئا للغاية أثناء هبوبهما . إذ أن الخليج العربى عرضة لهبوب العواصف المفاجئة وأن كانت هذه العواصف نادرة الحدوث فيه ، فهى تستمر زهاء ساعتين من الزمن ثم تنقشع مخلفة وراءها هواء منعشا طريا ، وبحرا متلاطما شديد الهيجان ، حيث يتبدد الهدوء والسكون بمجرد أن تهب واحدة من تلك العواصف النادرة . وقد هبت علينا العاصفة الأولى فى بندر عباس ممثلة بالرياح العنيفة ودوى الرعد واللمعات المتقطعة وومضات البرق المشعة وهطول الأمطار الغزيرة .

أما العاصفة الثانية فقد جاءت مع تباشير حلول العام الجديد وذلك عندما لاحت لنا ف

الأفق من بعيد مدينة بوشهر فقد هبت علينا هناك بعد منتصف ليلة رأس السنة الجديدة عاصفة مصحوبة ببرد قارس بدلا من هبوب عاصفة من المطر ،فقد أخذت الريح الباردة تحدث قعقعة كبيرة فوق ظهر الباخرة ، كما أخذت تقرع بإيقاع منتظم على منصة ربان الباخرة الواقعة مباشرة فوق قمرتنا ومن النادر أن يصل المعدل السنوى لسقوط المطر فى الخليج فى أفضل الأحوال بأكثر من ١٢ بوصة ، ويأتى موسم المطر عادة خلال فصل الشتاء . فالرحلة فى هذا الموسم تكون عادة ممتعة ، حتى أن المسافر الذى يصاب بالغثيان عند ركوبه للبحر ويخشى من دوار البحر فمن النادر جدا أن تفوته فرصة التمتع بمباهج مثل هذه الرحلة البحرية كالتى قمت بها فى مثل هذا الموسم من السنة .

الفصل الرابع

باخرتنا وقبطانها

تعتبر الباخرة « زيانى » التى سافرت على متنها ناقلة ممتازة ، وتبلغ حمولتها مــابين ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ طن وهى تتبع « شركة الخليج للملاحة » التى مقرها مدينة بومباى وقد كانت فى السابق تتبع « شركة هولندا الغربية » . وهى ناقلة بحرية مــريحة ، ومضــمونة وموثوقة فى أداء خدماتها لنقل المسافرين وشحن الحمولة حيث بالامكان الاعتماد عليها فى هذا الشأن ، ولها قعر مسطح عريض ، وهى سهلة التوجيه عبر دفة القيادة ، حيث تؤدى مهمتها على أحسن وجه حتى فى اسوأ الظروف الجوية ، وتبلغ سرعتها عشر عقد فى الساعة بل وأكثر من ذلك مع دقة ثابتة فى تحديد المسار والاتجاه .

وتستخدم هذه الباخرة فى معظم الأحوال لأغراض شحن الحمولة ، وقد استعملت منذ بضع سنوات للابحار بين بومباى والبصرة حيث تتوقف فى جميع الموانىء الواقعة فى الوسط بين هاتين المدينتين .

وقد تولى قيادتها منذ سنتين القبطان « كافاس اكورجى » وهو من الكفاءات النادرة فى مجال الملاحة البحرية . فقد تلقى تدريبا على ممارسة هذه المهنة فى انجلترا منذ أن كان صبيا فى الثانية عشرة من عمره ، ويتمتع بميزة نادرة وهى كونه القبطان البحرى المجوسى الوحيد أو بالاحرى الهندى الوحيد الذى يحمل مؤهلا عاليا فى الملاحة البحرية عبارة عــن شهادة ربان ملاحى من الدرجة الأولى من مجلس التجارة البريطانى وذلك بعد أن اجتــاز اختبارات عديدة بتفوق كبير . وقد شغل أولا منصب رئيس البحارة ثم شغل منصب قبطان أو ربان متوليا بنفسه مسئولية قيادة باخرته ، وقد عمل فى عدة بواخر وقام برحلات ناجحة إلى أوروبا والامريكتين والساحل الافريقى الشرقى واليابان وموانىء البحر الأحمر وجــزر موريس ، وقام فى السنوات الأخيرة برحلات إلى جميع أنحاء الخليج ، وهو يعــرف كل شىء

عن هذه المنطقة الجغرافية ومافيها من ممرات ضيقة وخلجان صغيرة وجـزر وحـواجز مرجانية ومرافىء ، وهو يبذل أقصى جهده وطاقته فى عمله مما أكسبه ذلك تقدير رؤسـائه فى مختلف شركات الملاحة التى عمل فيها سابقا أو التى مازال يعمل فيها الآن ، وهو يحـظى بالاحترام والاعجاب من جميع مرءوسيه من الملاحين فى باخرته بسبب الدقة والانضـباط اللذين يتميز بهما عمله على متن الباخرة ، كما يحظى بثقتهم بسبب صراحتـه ومـزاجه الطيب وأخلاقه العالية ولكن قبل كل شىء بسبب أعصابه الهادئة ويقظته واحساسه الكبير بالواجب ومهارته وخبرته فى فن الملاحة . وقد قاد باخرته بأمان مـرات عـديدة دخـولا وخروجا من الموانىء الصعبة فى الخليج بدون ربان أومع وجود بعض الربابنة العرب الذين علمهم ودربهم على ممارسة أعمال الملاحة البحرية ، فالدخول الى هـذه المـوانىء ليس بالأمر الهين اذ غالبا ماتكون مرافىء الخليج على هيئة مراس مـكشوفة ميـاهها ضـحلة وطبيعتها خطرة بسبب الرمال المتحركة والأحجار وسلاسل الصخور الواقعة قرب سـطح البحر والتى يصعب تحديدها بحكم كونها غير واضحة المعالم . فكل شركة ملاحية تفتخر وتعتز بوجود مثل هذا القبطان على متن بواخرها . وفى الوقت الذى أرى أنه من المنـاسب جدا أن يكون السيد « اكورجى » قبطانا للباخرة « زيانى » لايسـعنى سـوى الاشـادة برئيس المهندسين فى هذه الباخرة وهو شاب مجوسى آخر اسمه « شافك درايفر » وقد تلقى هو الآخر تدريبا ملاحيا فى انجلترا ، وهو شخص متـواضع وخجـول وقـدير فى مجـال اختصاصه وجدير بالثقة فى عمله . فإلى جانب كونه ميكانيكيا بارعا فهو يقوم أيضا بتركيب الآلات وتدوير المسامير اللولبية أو تثبيت المسامير المنثنية أو تصـليح الآلات البحـرية بكفاءة عالية وجدارة لانظير لها .

وكلاهما القبطان « اكورجى » والسيد « درايفر » رفيقان متلازمان تربطهما صـحبة وعشرة حميمتان فى أوقات فراغهما . ولم أشعر بأدنى درجة من السأم والملل طيلة المـدة التى قضيتها معهما ، فقد أضافا الكثير من البهجة والسرور بـوجودهما معـى فى هـذه الرحلة . وقد كنا نمضى أمسياتنا معا فى تجاذب أطراف الحديث الممتع ونتنـاقش حـول أصدقائنا البعيدين ، ونطيل التفكير فى المشاكل التى أثارتها الحرب العـالمية المـروعة الجارية الآن والتى أطلقت شرارتها ألمانيا . كما كنـا نتبـادل روايـة بعض الـطرائف والحكايات أونستمع إلى بعض الأسطوانات المختارة بواسطة الحاكى الذى تنساب منـه الأصوات العذبة .

وقد كنا نمضى امسياتنا جالسين على سطح الباخرة عندما يكون الجو معتدلا والهـواء عليلا ولكن عندما يصبح باردا جدا نجلس فى داخل قمرة القبـطان الـواسعة على ضـوء أنوارها القوية .

الفصل الخامس

كيف نقضى أوقاتنا على متن الباخرة

يمر الوقت على متن الباخرة « زيانى » بطريقة مرضية للغاية ، إلا أنــه يمضى بصــورة أسرع قليلا مما كنت أتوقعه ، إذ بإمكانى أن أقضى شهرا آخر فى هذه الرحلة وأنا فى منتهى السعادة والسرور . وقد بدا لى الشهر الذى قمت فيه برحلتى قصيرا جدا حيث أســتمتعت فيه بأوقات طيبة للغاية ، فقد خلدت طوال الوقت للراحة التامة والهدوء الكامل وذلك ماكنت أشعر بحاجة ماسة إليه . ولم نعد نكترث بالوقت سوى بالوقت المحــدد لتنــاول وجبــات الطعام . فالأيام تمضى هنا بدون حساب كما أن غياب الصحف والبريد يتيحا للمرء فــرصة نادرة يشعر فيها بالسلام وراحة البال وهو شعور يؤدى بطبيعة الحال الى أطلاق التفكير من عقاله وتنشيطه إلى حد بعيد ولم تكن تستدعى الحاجة الى ارتداء ملابس السهرة إذ لايتوقع احد هنا قدوم اى زائر كان أو قيامه بزيارة الآخرين .

كما لاتوجد هنا العاب أو رياضة أو محاضرات مسائية أو اجتماعات للجان وهى أمــور تتطلبها الحياة فى مدينة بومباى . وقد كنت أقضى مع قبطان الباخرة زهاء نصف ساعة مــن الوقت أو مايقارب ذلك فى التجول على ظهر الباخرة الواسع الفسيح وذلك فى الــوقت الــذى ينبثق فيه قرص الشمس من وسط أمواج البحر مرتفعا شيئا فشيئا نحو السماء ، وأيضا فى الوقت الذى يغرق فيه قرص الشمس وسط هذه الأمواج ، أو بعد تناول طعام العشاء وذلك فى الوقت الذى يتألق فيه القمر من بعيد « **كملكة صعدت إلى عربتها المتالقة بالأنوار الساطعة بينتما ترصع قبة السماء الواسعة النجوم المتانية فى مدارها والتى لاتكف عن الدوران فى مسارها حيث تتلألأ انوارها بوضوح وجلاء فى مشهد رائع مهيب نادرا مايرى المرء مثيلا له على ظهر اليابسة .**

فهذه هى جميع الأنشطة اليومية التى نلتزم بأدائها كل يوم على ظهر الباخرة بالرغم من كونها أختيارية تماما . وكنا نستلقى على كراسى الباخرة المريحة تحت الظلال أو فى الهواء الطلق حيث كنا نسلى أنفسنا بالقراءة حينا أوبالابتعاد عن القراءة أحيانا أخرى مما يجعلنا نشعر بأن أرواحنا تنطلق محلقة بعيدا ، أوكنا نتبادل الأحاديث المتنوعة أو نغفو قليلا بينما كانت الساعات الممتعة الهادئة تمر من بيننا خلسة وتمضى دون أن يشعر بمرورها أحد . فقد كنا نقضى أوقاتا من الفراغ الكامل الملىء بالبهجة والمتعة . ويكفى أن نسمع صوتا يهتف « سمك .. سمك » حتى نهرع إلى جانبى الباخرة للتمتع برؤية مشهد بديع لقطيع كبير من خنازير البحر تدنو من باخرتنا حتى تصل الى مدى قريب من مقدمة الباخرة ، فهذه الحيوانات المائية التى تنتمى الى فصيلة الدرافيل تبدو فى غاية المرح والابتهاج بالحياة ، فهى تتدافع فيما بينها فى حماس وتنافس شديدين ، وتقفز إلى أعلى الموج فى وثبات بهلوانية مسلية وتلهو وتمرح بالماء وتقذف إلى أعلى الموج رغوة مزبدة وتنثر تلك الرغوة هنا وهناك فيتحول الموج من حولها الى طبقة بيضاء . ويمثل هذا المشهد الطبيعى البهيج واحدا من عجائب البحار العميقة ، فمتى أتيحت الفرصة لشخص مولع بجمال الطبيعة مثلى لمتابعة مثل هذه المشاهد الطبيعية الممتعة فلن يتوانى عن متابعتها المرة تلو الأخرى حيث ينتابنى شعور متنام فى كل مرة أتابع فيها مثل هذه المشاهد الجميلة بأننى أتابعه بمزيد من المتعة المتجددة . فهذه الخنازير البحرية التى غالبا ماتصل أطوالها الى ثمانية أقدام تعتبر مصدرا للحصول على زيت نافع ، أما لحومها فيشمئز المرء من أكلها أو على الأقل بالنسبة لاولئك الناس الذين يصطادونها بالخطاف فيجدونها غير مستساغة للأكل . وقد بدت لى هذه الحيوانات المائية ـ طبقا لمشاهدتى لها فى وسط المحيط ـ وديعة مطمئنة لاتخشى المطاردة ، ولايشغلها شىء سوى اللهو والمرح حيث تنتابها من جراء ذلك سعادة غامرة تفوق سعادة الأولاد أثناء خروجهم من المدرسة ، فهى حرة طليقة فى الحياة لايشغلها الغد عن ماهى فيه من لهو ومرح . إلا أن هذا المرح والمزاح قد ينقلبان فجأة الى فزع وذعر لامثيل لهما وذلك عندما تصل إليها الباخرة الكبيرة التى تتعقبها وتفوقها ضخامة وحجما ، أو كما قال شكسبير فى هذا الصدد :

« هناك يفرون أو يموتون كجماجم منشطرة أمام حوت متجشىء »

فكيف كانت دهشة هذه الحيوانات المائية عندما شاهدت الباخرة الضخمة « زيانى » وهى تشق طريقها فوق الماء » فلربما بدت لها الباخرة كوحش بحرى هائل مرعب ، لذا فقد أتخذت حذرها بترك مسافة كافية بينها وبين الباخرة .

ومن الحيوانات المائية الأخرى التى تعيش فى أعماق البحار والمثيرة للدهشة والتعجب ذلك الصنف الغريب الشكل من الأسماك المسمى بالسمك الطائر والذى هو عبارة عن سمكة

وطير فى آن واحد ، فقد كنت أحرص كثيرا على مشاهدة هذا الصنف العجيب من
وذلك ضمن الأنشطة التى كنت أقوم بأدائها يوميا فى سبيل تمضية الوقت
الباخرة . ومن الممتع مشاهدة هذا السمك المدهش عند الحافة العليا من جانب
وهو أعلى موضع فى مقدمة الباخرة حيث بالامكان مشاهدته من هناك وهو يتطاير فى
الذعر والفوضى على أثر الجفلة التى تصيبه من جراء عبور الباخرة المتحركة فى و
وجوده فيقفز طائرا فوق سطح البحر بعيدا عن الباخرة ، فنرى خياشيم زعانفه
بقطرات الماء وأجنحته الممددة : « **يظهرون للشمس سترتهم المرفرفة مكسوة**
وبعد أن يطير بخفة ورشاقة على مدى حوالى خمسين ياردة يهوى غاطسا فى ميا
فيغيب كلية عن الأنظار . ولايشاهد المرء هذه المخلوقات الجميلة فى بحر العرب
التى يشاهدها فى المياه الواقعة بين بومباى وعدن . ويزخر خليج عمان ومياه
العربى بالربيان (الجمبرى) التى يطلق عليها العرب اسم جراد البحر ، كم
يزخران أيضا بأنواع عديدة من القشريات الرخوية أو بلح البحر ، وتو
البحار أعداد كبيرة من أسماك القرش ، كما يوجد فيها عددا قليل من الحيتان الت
« أضخم المخلوقات الحية » الا أن رؤية جميع هذه المخلوقات بلح البحر ليد رواية من نسج خيال أحد البحارة ، حيث أنه لم يحالفنى الحظ بمشاهدة منها .

وسمك القرش معروف جدا فى هذه البحار ويطلق عليه بحق اسم « كلب البحر
لايكون طعمه لذيذا عند الأكل ولكن يقال عنه بأنه طعام مغذى « ورخيص الثمن
الصيادون المحليون بدرجة كبيرة . وقد روى « بالجريف » ** فى كتابه « ر
أواسط وشرقى الجزيرة العربية » بأنه أعتاد على أكل سمك القرش عندما وجد أن
على طبق من لحم الضأن يعد ضربا من الترف هناك وذلك بعد أن بحث عنه طويلا
الداخلية الواقعة إلى الخلف من سواحل الخليج .

وفى اليوم الثانى لابحارنا ، وبعد أن أصبحنا فى وسط البحر بمسافة تبعد عن
بأكثر من ٢٠٠ ميل ، أعترتنى دهشة شديدة نتيجة للظهور المفاجىء لزوج م
النورس البحرية ذات الرءوس السوداء ، فقد رافق هذان الطائران باخرتنا لبض
ثم اختفيا تماما عن الأنظار عند غروب الشمس .

وعندما اقتربنا من البحار الضيقة لخليج عمان التى تمثل نهاية الطرف الشم
العرب أصبح ظهور مثل هذه الطيور الجميلة متكررا ثم أصبح متواصلا على طول
الممتدة حتى البصرة شمالا . وكم بدا لى مسليا متابعة هذين الطائرين وهما يؤديا

* تعقيب : قواقع بحرية تحوى حيوان رخوى هلامى يؤكل .
** تعقيب : وليم بالجريف ١٨٢٦ ـ ١٨٨٨ رحالة انكليزى .

رشيقة فى الهواء أثناء طيرانهما ، حيث كانا ينطلقان بحرية وهما يرفرفان باجنحتهما فى وسط الهواء أحيانا أو يحومان حول الباخرة أحيانا أخرى ، أو يقفان فوق الصوارى أو ينغمسان فى البحر وذلك عندما كانا يقتفيان أثر الباخرة ، بينما بدت عيونهما اليقظة فى حالة دائمة من الحذر والترقب اذ كانا يحركان رأسيهما تارة فى ناحية وتارة فى ناحية أخرى . كما أطلقا صيحة قصيرة تعبيرا عن بالغ سرورهما ورضاهما . فغالبا ماتتم مشاهدة هذه الطيور فى جميع أجواء الخليج على هيئة أسراب أو جماعات ، وهى تترصد فرائسها فى قطعان الأسماك بغريزة لايشوبها الخطأ ، وتنقض على فريستها بسرعة خاطفة محدثة طنينا عاليا ، وعندما تستقر على سطح البحر تبدأ صراعا مريرا لاشباع معدتها الجائعة من المائدة الدسمة الوفيرة . فالطبيعة توفر لها أسباب العيش والبقاء مما يجنب عالم البحار والمحيطات عواقب الزيادة السكانية المفرطة . وفى أحد الأيام ، وعلى مسافة بعيدة من وسط البحر ظهرت على متن الباخرة فراشة جميلة بنية اللون ، رفرفت بجناحيها حول سطح الباخرة لبعض الوقت ثم اختفت تماما عن الأنظار . ومن المحتمل أنها ولدت من يرقة مهملة وقعت فى احدى الزوايا المظلمة للباخرة عندما كانت راسية فى بومباى .

ومن الظواهر البحرية الأخرى التى يجد المرء متعة فى ملاحظتها وتتبعها ذلك النشوء الغريب والتكاثر المذهل لبعض الأحياء البحرية التى يطلق عليها البحارة اسم « البطارخ » (*) فعندما تعبر الباخرة وسط هذه الكائنات البحرية فبالامكان مشاهدتها وهى طافية فوق سطح البحر ، فهى شبيهة بالصدأ السائل المصحوب بالبثور الزيتية ، وتحدث هذه الظاهرة تغييرا فى لون البحر الى مدى كبير ، وهى تتواجد عادة على مسافة بعيدة من اليابسة . وليس من الواضح ماهى مكوناتها ومتى نشأت وتنامت الا أن رؤيتها مسلية ومثيرة للتعجب .

أما مشهد الشروق والغروب فى البحر فيتميزان دائما بالجلال والبهاء ، فمشهدهما متعة للعيون الناظرة التى لاتشعر بتعب أو إرهاق وهى تحدق فيهما مليا . فالنهوض مبكرا عند الفجر يتيح للمرء فرصة الاستمتاع برؤية مشهد البحر من جهة الشرق المتألق بالألوان الأرجوانية الزاهية حيث يبهر الأبصار ويخلب الألباب ذلك المشهد الأخاذ للشروق فى البحر ، وقد قيل فى هذا الصدد :

« فى الأسفل ، عيون الفجر زرقاء سماوية .. انظر ! فالشمس تطلع مشرقة من وراء الأفق واضحة وردية متألقة ، نصف مضطجعة على سطح خيوط المياه البلورية المرتجفة »

أن هذه الأبيات الجميلة للشاعر الانكليزى الرومانسى الشهير « شيلى » تتطابق تماما مع الطبيعة . كذلك الغروب الذى يضاهى الشروق جمالا وسحراً ا يفتن خيال الناظرين ، فعندما

* تعفيب . بيوض السمك وهى فى الغشاء المبيضى

تميل الشمس نحو جهة الغرب تتألق السماء بوهج من الألوان الذهبية البـراقة سرعـان ماتتغير هذه الألوان الى أطياف من الألوان البرتقالية اللامعة ، ثم لاتلبث هذه الألـوان أن تتغير بدورها بين لحظة وأخرى بحيث تتدرج شيئا فشيئا إلى أطياف من الألوان القـرمزية والبنية والحمراء ، وعندما تخبو تدريجيا أطياف هذه الألوان وتتلاشى فإنها تصبغ الأمواج المتلألئة والأفق البعيد بأطياف من الألوان الأرجوانية والمذهبة .

فكم يبدو فاتنا ذلك العرض الرائع للغروب الذى تتجسد فيه عظمة النهار الآفل ، فنادرا مايرى المرء أو يدرك عظمة هذا المشهد عندما يكون على اليابسة ، فهو أشبه بحريق هائل فى السماء ، بينما البحر أشبه بمحرقة جنائزية لنصف إله راحل وذلك طبقا للنصوص التى صاغتها لنا الأساطير القديمة . وفى بعض أيام هذه الرحلة وبينما كانت السماء على وشك أن تمطر ، تلبدت الغيوم الكبيرة فى جهة الغرب المتوهجة ، فمنها الغيوم الـرمادية ومنهـا القاتمة ومنها البيضاء ومنها القزحية الألوان ومنها الداكنة ومنها المتوعدة ، وقد نفـذت أشعة الشمس الغاربة من خلال هذه الغيوم مما أضفى على مشهد الغروب عظمة اضـافية وهو مشهد جذاب يسلب الألباب ويخلب الأبصار بذهول وافتتان . فهذه المشاهد البحرية الخلابة تبهر بصر الشخص المولع بالطبيعة والمفتون بجمالها أو كما يطلق عليه عادة اسم « عاشق الطبيعة » .

وقد وجدت فى التدرج المدهش والتغيير المستمر للألوان والظلال فى البحر عند انعكاس أشعة الشمس على سطحه مصدرا لاينضب من المتعة والتأمل ، شريطة أن يتمتع النـاظر بموهبة « التجريد فى الافتتان » بهذه المشاهد . فالمرور الهادىء للوقت كالذى كنت اتابع فيه ،واحدق بإمعان فى الوان البحر المتغيرة يتيح للناظر فرصة لاطلاق وتنشـيط تفـكيره وامتاع عينيه . كما تعتبر هذه المناظر تسلية أو فرصة ثمينة من تلك الفرص التى يجد فيها الفنان ضالته ويسر غاية السرور ببلوغها .

فالقول القائل بأن **« الذين ينزلون إلى البحر على متون السفن تتاح لهم فرصة رؤية مخلوقات الله وعجائب الأعماق »** لهو قول سديد وسليم ينطوي على مصداقية أكيدة .

أما لون البحر الجميل فتطرأ عليه تغييرات عديدة أثناء النهار فهو يتحول مـن اللـون الأخضر الفاتح إلى اللون الأزرق الفاتح ثم لايلبث هذا اللون أن يذوب ويتحـول الى اللـون الأزرق القاتم ، يعود فيتلون مرة أخرى عند الغروب بالألوان الارجوانية الباهتة ثم لايلبث أن يتحول الى اللون الأزرق اللازوردى القاتم ومن ثم يتحول إلى اللون الأسود الـلامع وذلك عندما ينسدل الظلام وتلوح النجوم فى الفضاء . إن أنعكاس شعاع الشمس على ماء البحـر لهو مشهد فاتن مثير للمسرة والابتهاج . فاللون الأخضر الزمردى الفاقع يتحـول إلى فيض من الألوان الزرقاء الفيروزية السائلة التى تذوب بدورها وتتحول إلى مد متدفق من الألوان

فوسفورى متوهج من باطن هذه الأمواج وذلك يعود الى تجمهر الأسماك الصغيرة أو الرخويات فى البحر ، ويترك هذا الوميض المتوهج مؤثرات جذابة يشوبها الغموض وتثير الالتباس .

ويتوهم العرب بأن هذا الوميض المتوهج فى البحر ليس سوى لهبا حارقا مندلعا من الجحيم . وهى فكرة يتقبلها العقل الجاهل بدون نقاش واثقا من صحة هذا الاعتقاد الجاهل وثوقا تاما ومتحديا بذلك كل البراهين والتفسيرات الأخرى . فهم يتصورون بأنها مشيئة الخالق وكفى . ويمكن القول بانه لم ينتابنى تعب أو إرهاق عندما كنت أرقب البحر مشدوها بجماله الخلاب وبالتغييرات التى تطرأ عليه من حين إلى آخر ، فنادرا ماكنت أبدى أهتماما للوقت الذى يمضى مسرعا ويولى مدبرا . ومما يضاعف من متعة وسرور المسافر بالبحر ذلك المرور المتكرر للعديد من السفن المبحرة التى تتقاطع معنا صعودا ونزولا قاصدة البصرة أو بومباى . إلا أن الشىء المؤثر الذى يثير الشجون فى أنفسنا ويعيد إلى ذاكرتنا خواطر مؤثرة عندما تقع عليه انظارنا فى هذه الأيام الكئيبة العصيبة هو مشهد تلك السفن الضخمة البيضاء والمميزة باشرطتها الخضراء الفاقعة وصلبانها الحمراء الكبيرة والمسماة « بالسفن المستشفيات » فمشهد هذه السفن بالذات من بين جميع السفن العابرة فى البحر التى نراها للحظة واحدة ثم تتوارى عن انظارنا يثير فى أنفسنا مشاعر جياشة إذ أن منظر المصابيح المضيئة المنبعثة أنوارها فى عتمة الليل الحالك من هذه السفن ــ وقد مررنا بالعديد منها أثناء ابحارنا ــ لهو مشهد مؤثر للغاية حيث بالامكان التعرف على هذه السفن فى الظلام الدامس المحيط بها وتمييزها عن غيرها من السفن من خلال النور الأخضر والضوء الأحمر المنبعثان منها . ففى هذا الوقت الذى ننعم فيه بالسلام السائد فى رحلتنا فان هذه « المستشفيات العائمة » وهى تؤدى المهام الانسانية المنوطة بها قد حملت إلينا نذر الكآبة والانقباض عندما أعادت إلى أذهاننا مرة أخرى تلك الحقيقة المرة والمؤلمة ــ بالرغم من اننا قد نسينا ذلك تقريبا ــ وهى الحرب الطاحنة التى يعانى هذا العالم من ويلاتها الآن * فمن خلال أجهزة الرصد المكبرة والنظارات البحرية التى فى أيدينا استطعنا مراقبة هذه السفن وألقينا عليها التحية من بعيد متمنين لها بصدق حظا سعيدا ورحلة موفقة وسلامة الابحار والوصول .

وعلى هذا المنوال كنا نقضى أوقاتنا فى الباخرة طوال الرحلة ، فالمشاهد التى تستحق المتابعة تجعل المسافر منهمكا بما فيه الكفاية وهو يتابعها باستمتاع منقطع النظير . فعن طريق تمضية الوقت فى متابعة مثل هذه المشاهد تتاح للمسافر فرصة يطرد فيها السأم والضجر عنه ، فالحياة على متن الباخرة تبدو ممتعة ومفيدة فى آن واحد إذ نشعر بأننا بعيدين تماما عن الغبار والحشرات العديدة والروائح الكريهة الضارة التى لاتزال تتميز بها

(*) عام ١٩١٦م

مدينتنا الجميلة بومباى بالرغم من المبالغ الطائلة التى ينفقها دافعو الضرائب من أجل نظافة وتجميل المدينة . وقد عرف الدكتور « جونسون »* السفينة بأنها « **سجن مع ثمة احتمال للغرق فيه** » اذ لم يسبق لهذا الدكتور الطيب أن مر بتجربة السفر إلى منطقة الخليج العربى فى مثل هذا الموسم من السنة الذى يطلق عليه عادة موسم الجمال فى تلك الانحاء ، ولو أنه مر بمثل هذه التجربة لجاء تعريفه للسفينة مختلفا عن هذا التعريف .

(*) تعقيب · المؤلف يقصد هنا « صمويل جونسون » (١٧٠٩ ــ ١٧٨٤) الكاتب والناقد واللغوى الانكليزى الذى وضع « معجم اللغة الانجليزية » عام ١٧٥٥ ، ويعرف عادة « بدكتور جونسون » .

الفصل السادس

حمولتنا والركاب

تستغرق الرحلة التى تقوم بها بواخر البريد من بومباى إلى البصرة سبعة أو ثمانية أيام على الأكثر .

ونظرا لكون باخرتنا « زيانى » ناقلة للحمولة فانها تتوقف عادة فى سبعة موانىء واقعة فى منتصف الطريق ، وتبحر فى خط سير متعرج بين الساحلين الفارسى والعربى لذا فقد استغرقت رحلتنا تسعة عشر يوما فى مسارها .

وتوجد على السطح الرئيسى للباخرة أربع قمريات وهى غرف تحوى كل واحدة منها ثلاثة اسرة ، ولايجوز أن تحمل الباخرة فى الدرجة الأولى أكثر من أثنى عشر راكبا ، وقد كان عدد ركاب الدرجة الأولى ضئيلا جدا أثناء رحلتنا وأقل من العدد المطلوب ، لذا فقد قمنا بتكملة هذا العدد عن طريق السماح لبعض ركاب سطح الباخرة بالانتقال إلى الدرجة الأولى حيث كان سطح الباخرة مزدحما بعدد كبير من الركاب الذين تركوا وشأنهم ليرتبوا أمورهم فى القسم الخلفى من السطح الأسفل للباخرة الذى تتكدس فيه الحمولة . فهؤلاء الركاب المتواجدون فوق سطح الباخرة يمثلون حشدا متباينا من الناس ، معظمهم من العرب والفرس ، وهم يتميزون بطباعهم الفظة ومظاهرهم الشعثاء وبعدم الاكتراث بالمشقة والمعاناة التى يكابدونها طالما أن أجرة النقل التى يدفعونها متدنية . ويفضل معظمهم البقاء فوق السطح المفتوح للباخرة طيلة رحلتهم بدلا من استخدام القمريات بالرغم من كونهم قادرين على السفر بطريقة أكثر يسرا ورفاهية . فنادرا مايغتسل هؤلاء الركاب او لايغتسلون على الاطلاق ولايغيرون ثيابهم منذ بدء رحلتهم حتى نهايتها بصرف النظر عن طول المسافة للوجهة التى يقصدونها .

وقد كانت باخرتنا معبئة بالحمولة بأقصى ماتستوعب من سعة وطاقة ، وتوجد بالباخرة

أربعة عنابر واسعة مملوءة بالبضائع ومعبئة بالمتاع وفق نظام بالغ الدقة يوضب فيه كل شيء فى مكانه ويوضع فيه كل شيء فى نصابه وذلك أشبه بدقة التعبئة فى نظام تعليب اسماك السردين أو نظام تخزين اسماك الرنكة فى براميلها ، إذ لايجوز أطلاقا ترك قدما واحدا شاغرا فى هذه العنابر ، وقد تم تكديس الحمولة وتخزينها بعناية فائقة فى صفوف متراصة بحيث تحتل السطح المخصص لها بالكامل من أوله إلى أخره دون أن يظهر من السطح سوى ممر ضيق للمشى يسمح بالمرور فيه ذهابا وإيابا فى كلا الجانبين . فالحرب الجارية الآن * والتى تسبب اضرارا وخسائر جسيمة لأكثر من نصف العالم تدر دخلا وفيرا على شركات الملاحة البحرية مقابل خدمات الشحن التى تقوم بها .

فشركة الخليج للملاحة لم تتوان عن إستغلال الظروف السائدة لكى تجنى أرباحا طائلة من وراء ذلك . وتشمل تجارة الصادرات الى موانىء الخليج تشكيلة متنوعة من البضائع ، فالحمولة التى تنقلها باخرتنا تتكون من الأرز والسكر وأكياس الجوت ولفائف الأقمشة ، إلى جانب كميات كبيرة من الشاى وأحزمة الحبال المصنوعة من ألياف أشجار جوز الهند ، والأخشاب المنزلية المنشورة الجاهزة . كما تشمل الحمولة عربة حنطور جديدة تماما وبعض قطع الأثاث لحجرة استقبال مرسلة إلى موظف عربى يعمل فى البصرة لدى وكلاء شركة الملاحة المالكة لباخرتنا ، فقد كان هذا الموظف يتوقع أن ينقل إليه متاعه هذا دون مقابل مادى يدفعه معتمدا بذلك على قوة اتصالاته الرسمية إلا أنه أستاء كثيرا عندما عرضت عليه قائمة طويلة تتضمن أجور الشحن المتوجب عليه دفعها إلى الشركة الناقلة حيث بدا ذلك الاستياء واضحا من خلال التقطيب الذى ظهر على ملامح وجهه ولم ير مفرا سوى دفع أجور الشحن المدونة فى تلك القائمة الطويلة .

(*) عام ١٩١٦

الفصل السابع

الاقتراب من الميناء

تتطلب عملية تفريغ وشحن الحمولة أثناء توقف الباخرة فى أحد المرافىء وقتا طويلا وجهدا كبيرا فى سبيل أنجازها ، كما أنها تمثل بالنسبة إلى مسافر متفرغ مثلى عملية مسلية وممتعة إذ اننى على أتم الاستعداد لمشاهدة أى شىء جديد وجدير بالملاحظة . وحينما تكون الباخرة مبحرة فى وسط البحر فإن أفراد طاقمها من البحارة والملاحين يقضون أوقاتا هادئة مريحة خالية من المشاغل إلا انهم يبذلون جهدا مضنيا ويقومون بأداء أعمال قاسية أثناء توقفها فى أحد المرافىء . وعندما تكون الباخرة المسافرة تحت امرة قبطان يتصف بالنظام والانضباط مثل قبطان الباخرة « زيانى » فان حركتها تتم عمليا وزمنيا طبقا للبرنامج المقرر لها ، كما أن الوصول إلى الميناء يتم فى الوقت المحدد له . وعندما تقترب باخرتنا من أحد موانىء التفريغ عند مسافة لاتتعدى بضعة أميال قليلة فإن الحياة الهادئة الرتيبة على متن الباخرة سرعان ماتتحول إلى حياة مليئة بالصخب والضجيج . فقبطان الباخرة الذى يزاول فى الوقت ذاته مهام الربان المتعلقة بتوجيه دفة القيادة عند اقتراب الباخرة من العديد من موانىء المنطقة فإنه يتوجب عليه التواجد بإستمرار فى منصة قيادة السفينة ، كذلك أفراد الطاقم من الملاحين والمسئولين فى الباخرة يتوجب عليهم جميعا التواجد فى مواقع عملهم فى تلك الساعة . كما يقف أثنان من الحمالين إلى جانب حافة السطح الأسفل للباخرة ويصدرأن نغمات متكررة تتضمن معلومات إرشادية عن عمق البحر وذلك من خلال قيامهما بإلقاء مسبار فى البحر وهو خيط تتدلى منه قطعة من الرصاص يستخدم لسبر أغوار البحر وقياس درجات أعماقه حيث يتأرجح المسبار بعد القائه فى البحر يمنه ويسرى كبندول الساعة الرقاص ويغمس فى البحر ثم يعاد سحبه إلى أعلى كل ثلاث أوخمس دقائق أو نحو من ذلك ، ويشدو الرجلان بنغم رتيب منتظم أثناء قيامهما

بأداء هذه المهمة وهما يرددان « أربع ياردات وقدمين » أو خمس ياردات أو أكثر أو أقل من ذلك طبقا لكل حالة . وتعتبر عملية سبر أعماق البحر واحدة من أهم عمليات الملاحة البحرية لذا فهى تتطلب عناية فائقة وتوضع لها حسابات دقيقة للغاية ويجرى تنفيذها بدقة متناهية تجنبا لحدوث خطأ طفيف فيها وذلك مراعاة لسلامة الباخرة ، فحدوث أى خطأ صغير فى تقدير العمق قد يؤدى الى جنوح الباخرة فى القاع وذلك بسبب ضحالة مياه موانىء الخليج وخطورتها . وبعد ذلك تفتح أبواب الفتحات المؤدية إلى قعر الباخرة ، وتترك السلاسل الضخمة المشدودة بالرافعات تنزلق بحرية تامة اذ تخصص لكل واحدة من هذه الفتحات رافعتان تعملان بالبخار وتوضع جميع هذه الروافع جاهزة للتشغيل عند اقتراب الباخرة من أحد المرافىء ، بينما يقف المحاسبين والكاتب المسئول عن أداء المهام المختلفة بالباخرة عند هذه الفتحات وبأيديهم الدفاتر والسجلات الخاصة بتدوين محتويات الحمولة المزمع تفريغها أو شحنها ، فى الوقت الذى يتأهب فيه العمال لأداء مهامهم داخل وحول الفتحات .

وعندما يلوح فى الأفق الميناء المتوجهين إليه ترفع فى أعلى السوارى الخلفية للباخرة ثلة من الأعلام يحمل كل واحد منها حرفا من حروف اسم الباخرة ، كما يرفرف إلى جانبها العلم البريطانى ، بينما يخفق فى أعلى السارية الأمامية للباخرة علم مثلث الشكل يحمل الحروف الأولى فقط للاسم التجارى للشركة المالكة للباخرة وهى « شركة الخليج للملاحة » ، ويرفرف إلى جانبه ــ فى بعض الحالات كما هو الحال بالنسبة لنا ــ علم أخر أصفر اللون يثير التشاؤم ويرمز إلى الحجر الصحى ، اذ ترفع الباخرة « زيانى » هذا العلم الاصفر على ساريتها الأمامية ليكون بمثابة تحذير ينبأ بأنها قادمة من « ميناء متعفن » .

وقد تم إدخال إجراءات متشددة فى نظام الحجر الصحى المعمول به فى جميع موانىء الخليج نتيجة لانتشار الأوبئة فى مدينة بومباى ، لذا فقد أصبح لكل مرفأ بهذه المنطقة محطة خاصة بالحجر الصحى ، وتقع معظم هذه المحطات إما فوق جزيرة نائية قاحلة أو فى بقعة محظورة منعزلة بعيدة عن المدن وتستحق بحق التسمية الشائعة والمعروفة بها وهى « مصائد الموت » إذ أنها تفتك بالمحتجزين فيها اذا لم يفتك بهم الوباء .

وكان كاتب الباخرة والذى هو بمثابة المدير أو المستخدم المكلف بأداء جميع المهام والأعمال على ظهر الباخرة والذى انضم حديثا إلى الطاقم قد أطلق عفويا دعابة طريفة كانت مثار تسلية لنا وذلك عندما توقفت باخرتنا فى أول مرفأ تصل إليه حيث تعذر على هذا الكاتب أن يصف بومباى بميناء « متعفن » والتبس عليه الأمر فوصفها وصفا مختلفا يتعلق « بالدواجن »

---

* تعقيب : هما كلمتى " Fowl " و " Foul "

ومن الواضح أن التداخل والتشابه للألفاظ الانجليزية كانا وراء هذا الالتباس فى الوصف الذى وقع فيه الكاتب .

وعندما يحين وقت الرسو فان قبطاننا وربان باخرتنا فى نفس الوقت يكون فى حالة شديدة من الاستنفار ، فعينيه مثبتتان على البوصلة ، واذنيه ترهفان السمع لكل صوت صادر من الشخص المكلف بقذف المسبار الرصاصى ، كما أنه يقوم بتوجيه دفة القيادة بحذر وانتباه شديدين ويهتف بصوت جهورى « وقوف » ! وعلى أثر هذا الهتاف يتوجه فورا رئيس البحار مع حفنة من الملاحين ويتخذون مواقعهم إلى جانب عدة المرساة وهى اداة رخوية ضخمة على شكل بكرة تدار بالأيدى فتنزلق منها السلاسل المتصلة بالمرساة ، كما يقف الى جانبها السيد « جون جايناما ن » نجار الباخرة والذى يقوم أيضا باعتباره حرفى ماهر بأداء جميع المهن اليدوية فى الباخرة ، فهو يشعر بالفخر والاعتزاز عندما يقوم بمهمة الاشراف على عملية إلقاء أو رفع سلاسل المرساة الضخمة وإنجاز هذه العملية بهدوء وسلام . وتتميز شخصية « جون » باللطف والهدوء والنشاط والحيوية ، كما لاتفارق الابتسامة شفتيه .

وعندما يشعر القبطان بأنه أصاب الموضع الصحيح للرسو يصدر أمره فورا « قف » ثم يصدر أمرا أخر « اطلق » ، فتتحرك على أثر سماع هذا الأمر مرساتان ثقيلتان من موضعهما فى مقدمة الباخرة وتهبطان فى البحر وسط صلصلة كبيرة للسلاسل المشدودة بهما وتشقان طريقهما فى الماء نحو القاع . وبهذا تكون الباخرة قد ألقت مراسليها بسلام وتوقفت فى الموضع المطلوب .

وعلى أثر ذلك ترسل الباخرة باتجاه الشاطىء القريب سلسلة متتالية من الاشارات الصوتية المدوية التى تصم الأذان والصادرة من صافرتها ومن بوقها البخارى وذلك للتبليغ عن وصولها قرب الشاطىء ويبدو أن هذه الصافرة التى تعتبر أحدى الأدوات المفيدة والضرورية فى الباخرة قد اشتق لفظها وفقا لقاعدة اشتقاق المفردات من نقائضها .

* فأصل هذا اللفظ يعود إلى الاسم القديم الذى جاء فى الأساطير الأغريقية القديمة وسميت به حوريات البحر * ، وهى كائنات أسطورية كانت تغوى الملاحين بغنائها وتجذبهم إليها بأصواتها العذبة فتوردهم موارد الهلاك . ولو أن " اوليسيز » ** وطاقم الملاحين التابعين إليه قد التقوا أنذاك من جملة من التقوا بهم من الفاتنات ذات

(*) تعقيب : قاعدة نحوية لاتينية .

Siren (*)

(**) تعقيب : « اوليسيز » الذى يقصده المؤلف هنا هو أحد الأبطال الرئيسيين فى ملحمة « الالياذة » الشهيرة التى تدور أحداثها حول حصار طروادة ، كما أنه بطل ملحمة « الاوديسة » الشهيرة « لهوميروس » التى تدور أحداثها حول غرق سفنه فى البحر اثر رحيله من مدينة طروادة المفتوحة وغيابه تائها فى البلدان ثم عودته الى مملكته . وهو ملك جزيرة « اثاكا » الاسطورية وزوج « بانلوب » الرمز الاسطورى للوفاء الزوجى التى كانت تنفض غزلها ليلا تهربا من الزواج من خطابها العديدين انتظارا لعودته من غيابه الطويل

الأصوات الرخيمة بباخرة قوة صفيرها مماثلة لقوة الصفير الذى تطلقه هذه الباخرة ــ المشتق اسمها من اسمائهن ــ فسوف يختم أولئك البحارة القدماء آذانهم بالشمع ليس خوفا من الغواية والهلاك ولكن خوفا من أن تصاب آذانهم بالصمم طيلة المدة الباقية من حياتهم .

واستجابة الى نداء الصافرة فإن المسئول الصحى فى المرفأ هو أول من يصعد على متن الباخرة ويبدأ عمله بالكشف الدقيق على الأوراق الصحية بالباخرة وفحص جميع البيانات الصحية والتدقيق فيها ثم يقوم بتحرير محضر صحى وهو بمثابة شهادة الكفاءة الصحية التى تثبت خلو الباخرة من الأوبئة ، وبدون تحرير هذا المحضر الصحى فليس بالامكان التصريح لأى راكب بالنزول إلى الشاطىء أو بتفريغ الحمولة من الباخرة . وعلى أثر انتهاء مهمة الطبيب يصل اسطول من مراكب الصنادل المسطحة القاع والمخصصة لشحن الحمولة كما يصل قارب ينوء بحملة من العمال . ونظرا لما تتميز به جميع مرافىء الخليج من ضحالة المياه فإن عملية شحن أو تفريغ الحمولة تجرى فى عرض البحر على مدى ميلين ونصف الميل أو ثلاثة وأحيانا أربعة أميال بعيدا عن الشاطىء .

ومن هنا برزت الحاجة الى مراكب الصنادل المسطحة القاع أو مراكب اللغر ذات الأشرعة المربعة الأضلاع وذلك لحمل البضائع من الباخرة إلى الشاطىء وبالعكس .

وبالرغم من الأعمال الكثيرة التى تجرى فى موانىء المنطقة الا انه لايوجد فى أى واحد من هذه الموانىء رصيف لشحن وتفريغ السفن أو موقع للرسو أو موضع للنزول أو أى شىء من هذا القبيل . وهذا ناتج دون شك عن الاتكالية والأهمال اللذان تتميز بهما مايسمى « بادراة موانىء الخليج » . وعندما تكون مثل هذه الأحوال المتردية موضع للنقاش بينك وبين مسئول محلى أو حتى مع تاجر أو مع الرجل العادى فى الشارع فإنك ستلقى جوابا واحدا لايتغير « ستسير الأمور نحو الأحسن يوم ما أن شاء الله »

وبغض النظر عن طبيعة الأمر الذى تشكو منه ومايعتريه من نواقص وخلل وتخلف واهمال فإن الجواب المعتاد لشكواك « ما الذى يمكن أن نعمله » يرافقه هزة للكتفين كتعبير عن عدم المبالاة أو العجز أو الرغبة فى ترك الأمور تسير على الغارب ، تعقبة سلسلة من العبارات التطمينية : « لم القلق ؟ » ، « هون عليك » ، كل شىء سيكون على مايرام إن شاء الله » .

الفصل الثامن

العمال

يصعد العمال على متن الباخرة فى كل ميناء تتوقف فيه الباخرة مابين بومباى وبوشهر وذلك لتفريغ وشحن الحمولة بالباخرة . فهم أشبه بحفنة من الصعاليك من حيث مايتميزون به من طباع فظه وضجيج عال وثياب رثة ورءوس شعثاء وأجساد قذرة مما يجعل منظرهم مثيرا للغاية . وبينما كان هؤلاء العمال يجذفون مزدحمين على ظهر القارب الكبير المسطح القاع متجهين نحو الباخرة ويصعدون من أحد جانبى الباخرة إلى السطح كان الناس الذين على متن الباخرة يتصايحون قائلين « لقد جاء على بابا والأربعين حرامى » . وهو وصف يتلاءم تماما مع مظهرهم الخارجى . ومما لاشك فيه أن اراء الناس عنهم تتأثر كثيرا بمنظرهم المفزع المهلهل حيث يبدو بعض منهم أشبه بالقتلة والسفاحين وقاطعى الرقاب إلا أنهم يمثلون جميعا حفنة من الرجال ذوى البنية القوية والنشاط والحيوية والمراس الشديد ويقومون بإنجاز العمل المطلوب منهم بصورة مرضية عند الاشراف عليهم أثناء العمل . فهم فتيان يتميزون بالغلاظة والخشونة والعنف والمرح وعدم المبالاة والأصوات الصاخبة والاجساد القوية والسواعد المفتولة مما يجعلهم ملائمين تماما لأداء العمل المناط بهم . ومعظم هؤلاء العمال من العرب الذين يتصفون بالرقة والبساطة وعدم القساوة وهى صفات تكاد لاتتوافر فى شخصية المغولى أو الفارسى . أن مشهد هؤلاء « الأربعين حرامى » على متن الباخرة وكذلك مشهد البحارة الاشداء المتأهبين على متون الصنادل المتأرجحة فى البحر وهم يقومون جميعا بشحن أو تفريغ الحمولة تعتبر مشاهد مسلية وممتعة مفعمة بالنشاط والحركة ، إذ أنهم جديرون بالتقاط صورا جميلة لهم أثناء أدائهم لعملهم هذا . وبمجرد أن تلقى الباخرة مراسيها فى البحر وتطلق الصافرة صرختها المدوية ويستجيب العمال إلى دعوتها سرعان مايحل محل ذلك السكون والفراغ والنعاس

المألوف فى البحر نشاط محموم وبلبلة شديدة من الأصوات تستمر لساعات طويلة وغالبا ماتستمر حتى تدق الساعة الثامنة مساء ، فكلما توافر العدد الكافى من مراكب الصنادل المخصصة لنقل الحمولة كانت أهمية الوقت أكثر تأثيرا على سير العمل وعلى سير الرحلة ، لذا فإن تفكير القبطان يتركز على تفريغ الحمولة وتخليصها بأسرع وقت ممكن ، بينما تتوالى الجلبة والضوضاء والصخب دون توقف أثناء القيام بهذا العمل ، كذلك الصرير الصادر من الروافع من جراء حركتها الدؤوبة نزولا وصعودا تصاحبها قعقعة المحرك وصلصلة السلاسل المتثاقلة أثناء انزلاقها دخولا أو خروجا من البكرات الحديدية الثقيلة حيث تختلط هذه الأصوات جميعا بصوت العمال الأجش ، وبأهازيج البحارة فى القارب ، وبإيقاع المجاديف وبالمشاجرات الجارية بين الأشخاص المرسل إليهم البضاعة وبين الكتبة المحاسبين ، إضافة إلى الصرخات العالية العديدة التى تعبر عن مواقف مختلفة كصرخات « احمل » و« افسح » و« احذر » و« هلا » و« مرحبا » . أن ضخامة الأكياس الثقيلة قد تؤدى أحيانا إلى انزلاقها من حبال الرفع أو ارتطامها بجانب الباخرة محدثة بذلك ضجة عالية ، كذلك الضحكات الصادرة نتيجة للمزاح العربى ، وصيحات الشكاوى الساخطة المهتاجة ، وتبادل النكات والشتائم تمثل جميعا ضجيجا متنوعا مثيرا للانتباه ، كما أنها تمثل مزيجا صاخبا من الأصوات المختلفة يفوق كل وصف . ومن النادر جدا أن تجد الأذن البشرية فرصة أخرى غير هذه للاستماع إلى هذا الصخب المتجانس من الأصوات المتنوعة فى موضع آخر يقع خارج الموضع الذى تجرى فيه عملية تفريغ الحمولة فى مياه الخليج العربى .

وقد وجدت من الصعوبة بمكان أن أشغل نفسى بالقراءة أو الكتابة فى الوقت الذى كان هذا يجرى أمام ناظرى ، بل كنت أقبل من تلقاء نفسى على مراقبة العمال أثناء أدائهم لعملهم وذلك على سبيل التسلية وحب الاستطلاع حيث أرى بعضا من هؤلاء العمال وهم يقومون بعملية سحب رزم الأكياس أو الصناديق سواء بأيديهم أو بواسطة خطاطيف حادة ، كما يقوم البعض الأخر منهم بوضع عشر أو أثنى عشر رزمة دفعة واحدة فى حبال الرفع ، ويحدث أحيانا أن تنزلق فى منتصف الطريق أثناء الرفع إلى أعلى رزمة لم يجرشدها بأحكام فتنطلق الصرخات المسعورة مثل « احذر » و« ابتعد » وتحذيرات اخرى يطلقها العمال الذين يتفرقون وينطلقون عدوا كالفئران الهاربة من القط ويختبئون فى جانب أو آخر متخذين من سقف الفتحات غطاء لهم وذلك تجنبا لسقوط الحمولة عليهم . ومن النادر جدا أن تسبب مثل هذه الحوادث اضرارا أو اذى وذلك بسبب اليقظة والخفة اللتان يتميز بهما العمال أثناء أدائهم للعمل . وعندما يمتد العمل ويخيم الظلام جزئيا على سطح الباخرة وفى العنابر سوى الأنوار الخافتة المنبعثة من داخلها فإن منظر هؤلاء السوقة باجسادهم نصف المكسوة والعرق المتصبب منهم ، وهم يدفعون بعضهم الآخر بمناكبهم

يبدو منظرا غريبا ومفزعا ومرعبا .

ويمضى العمل على متن الباخرة « زيانى » على أيدى هؤلاء العمال حثيثا تحت الضغط المتواصل للقبطان الذى يتوجب عليه أن يتصرف كمنظم للحمولة وكمسئول عن تفريغها وشحنها وترتيبها ، فبالامكان تخليص ٥٠٠٠ حزمة فى المتوسط من فوق جانب الباخرة إلى البحر خلال أثنى عشر ساعة أو أقل من ذلك ولا يتوافر عمال فى موانىء الخليج وشط العرب الواقعة وراء ميناء بوشهر ، لذا يتوجب على البواخر المتجهة إلى مدى أبعد شمالا أن تنقل معها فى ميناء أبى شهر حفنة كافية من هؤلاء « الأربعين حرامى » النافعين وذلك لاتمام بقية الرحلة الى البصرة ثم العودة مرة اخرى إلى أبى شهر . وبهذا يكسب هؤلاء الرجال أجورهم ويحصلون على طعام لهم ويستمتعون بقضاء رحلة سارة . ويسير الحال على هذا المنوال طوال العام باستثناء شهور الحر الملتهبة الذى يصبح فيها العمل عسيرا للغاية كما تصبح الحياة فيها لاتطاق فتصبح عندها مسألة الحصول على عدد كاف من الأيدى العاملة لمزاولة أعمال الشحن والتفريغ مشكلة جدية بالنسبة لمراكب الشحن وبالنسبة للأشخاص المرسل إليهم الحمولة .

الفصل التاسع

الأقتراب من بندر عباس

كان ميناء بندر عباس الذى يحمل اسم الشاه الصفوى « عباس الكبير » أول ميناء خليجى تتوقف فيه باخرتنا القادمة من خارج الخليج . ويعتبر أقصى عرض لبحر العرب المحاذى للساحل الغربى للهند والواقع إلى الشمال من مدينة بومباى ذلك الخط المستقيم الممتد بين « كراتشى » شرقا و« مسقط » غربا . وقد انتابنى أسف شديد لعدم توقف الباخرة « زيانى » فى هذين الموضعين وذلك خلافا لعادتها فى بعض الأحيان ، آملا أن يحالفنى الحظ فى المرة القادمة « **إن شاء الله** » للتوقف فيهما ! وتشكل نهاية الطرف الشمالى لبحر العرب خليجا ضيقا يعرف باسم خليج عمان ، وهو اسم مشتق من اسم الساحل الطويل الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربية الذى يحكمه أمام « مسقط » .
ويضيق خليج عمان بعد اجتياز رأس « جاسك » بحيث تصبح الأراضى الواقعة على كلتا ضفتيه بمرأى من المسافر طوال النهار . فنحن نبحر قدما إلى الأمام فى موقع يقع فى الوسط بين أرض العيلاميين القدماء الواقعة إلى يميننا وأرض أحفاد إسماعيل الواقعة إلى يسارنا . ويشكل الساحل الغربى لخليج عمان الممتد باتجاه الشمال رعن جبلى هائل وهو عبارة عن لسان جبلى يمتد فى البحر يعرف عادة باسم « رؤوس الجبال » اذ تقف الى الداخل وعلى مسافة ليست بعيدة من الساحل سلسلة من القمم الجبلية العالية الجرداء مثل جبل « قفعان » الذى يرتفع إلى حوالى ٦٠٠٠ قدم وجبل « الحارم » الذى يبلغ ارتفاعه ٧٠٠٠ قدم ، وجبل « فاين » * الذى يصل ارتفاعه إلى ٤٥٠٠ قدم وجبل « صيبى » الذى يصل ارتفاعه إلى ٣٠٠٠ قدم ، وتعتبر هذه القمم الجبلية المنعزلة بمثابة الحارس الأمين لهذا الجانب من الخليج إذ تقوم بحراسة وحماية البرارى الواسعة والقفار الشاسعة لشبه

* تعقيب : يطلق عليه الاوروبيون هذا الاسم .

الجزيرة العربية . ويقوم هذا الرعن الجبلى بفصل خليج عمان عن الخليج العربى ، ويتميز الجانب الشرقى منه بكونه شريطا قاحلا وجبليا ، كما يتميز الجانب الغربى منه بكونه سهلا منبسطا وخصبا .

وتقع مدينة « جاسك » الصغيرة فى نهاية الطرف الغربى لساحل « مكران » الفارسى ، وهى قرية فارسية يقطنها الصيادون وتقع إلى الخلف من رأس « جاسك » . وبالامكان رؤيتها بسهولة من باخرتنا حيث تجثم فوق الساحل الرملى وتحيط بها من الخلف سلسلة طويلة لامتناهية من التلال الجرداء المنخفضة . وقد تأسس هنا فى مطلع القرن السابع عشر مصنع تجارى انجليزى وأصبح عرضة لهجمات المغيرين البرتغاليين . ونتيجة لذلك جرت معركتين بحريتين قبالة هذه المدينة الصغيرة ، أولهما لم تك حاسمة ، أما الثانية فقد جرت فى عام ١٦٢٠ وهزم فيها « البرتغال » هزيمة نكراء على أيدى بوارج شركة الهند الشرقية ، أدت إلى انهيار دعاويهم التى لاتنازع حول « حرية الملاحة البحرية » فى هذه المياه الهندية ، إذ أن « فاسكو داجاما » الذى كان أول من دار حول رأس الرجاء الصالح قد واجه الهزيمة . فكانت هذه أول ضربة موجعة توجه إلى قوة البرتغاليين على أيدى منافسيهم فى الشرق من أبناء تلك « **الجزيرة الصغيرة الضيقة** » الواقعة فيما وراء البحار . وجاء انتزاع جزيرة هرمز من أيدى البرتغاليين بعد ذلك كخاتمة اكتمل بها سقوط امبراطوريتهم فى هذه الأنحاء ، فكانت ضربة قاصمة لم يفيقوا من وطأتها أبدا . وتكتسب « جاسك » حاليا بعض الأهمية نظرا لكونها مقرا لشركة البرق الانكليزية الفارسية التى تمتد منها أسلاك البرق المغمورة تحت سطح البحر إلى « مسقط » من جهة وإلى « كراتشى » من جهة أخرى وإلى أعالى الخليج حيث تصل إلى « أبى شهر » و « الفاو » و« البصرة » وإلى أبعد من ذلك شمالا إلى أن تصل إلى البحر الأبيض المتوسط . ويقيم بهذه المدينة الصغيرة نائب للقنصل البريطانى وطبيب وحفنة قليلة من موظفى شركة البرق الذين تخلو أوقاتهم من المتعة والترفيه نتيجة لوجودهم فى هذه البقعة النائية المنعزلة . ويستحق هؤلاء الرجال منا كل عطف وأعجاب إذ أن حماسهم الشديد وتفانيهم الذى لايقهر فى سبيل أداء الواجب تحت ظل العلم البريطانى الذى يرفرف بحرية فوق مبنى القنصلية هو الحافز الرئيسى الذى يدفعهم للعمل فى أى مكان يرتحلون إليه بغض النظر عن طبيعة المكان ذاته . وبإمكان المرء أن يتصور مشاعرهم فى ذلك المكان النائى فهم أشبه بالرجال الملقى بهم على ساحل مهجور وقد قطعت اتصالاتهم بالعالم المتحضر .

وتجدر الاشارة هنا بصررة عرضية أن اسم « مكران » الذى يطلق على هذا الأقليم الجبلى المقفر الواقع إلى الجنوب الشرقى من بلاد فارس قد اشتق من مصدر يتميز بالغرابة ، اذ يقال أنه اسم مركب لكلمتين فارسيتين هما « ماهى » و « كران » ومعناهما أكلة الاسماك ، إلا أنه على أية حال تساورنى شكوك حول صحة هذا التفسير السطحى . فجميع السكان القاطنين على أمتداد سواحل الخليج وشواطىء عمان يعتمدون أعتمادا

كليا على الأسماك فى غذائهم ويقتاتون به ، لذا فبامكان المرء أن يتصور أن جميع هذه البلدان الواسعة يمكن أن يطلق عليها اسم « مكران » وفقا لهذا التفسير الغريب .. وفى تصور السيد « ب . سايكس » أن هذا الاسم مشتق من كلمتى « ماكا » و« ارانيا » وهما تعنيان نفايات أو مستنقعات « ماكا » حيث يفترض أن هذه الكلمة الأخيرة تعنى الأسم القديم لهذه البلاد . فكلمة « ارانيا » هى كلمة معروفة فى اللغة السنسكرتية أحدى اللغات الهندية القديمة وتعنى هذه الكلمة المستنقع أو الغاب وهى مرادفة بكلمة « ران » ــ أو تذكر بهذه الكلمة ــ الموجودة فى الاصطلاحين « ران كتش » و« متاران » . فمن يستطيع أن يبت فى نقطة تعتبر مدار خلاف شديد بين اللغويين ؟ لذا سأتخلص من هذه النقطة بنفس الأسلوب الذى يتبعه سكرتيرى الخاص عندما يواجه سؤالا محيرا : « دعنا ننتقل إلى النقطة التالية » .

وعند الالتفاف حول « رأس جاسك » فسوف يقع نظرك على تلة بارزة وهى عبارة عن صخرة قائمة شديدة الانحدار تسمى « كوه مبارك » ويقدر ارتفاعها بحوالى ٣٣٠ قدما حيث ترتفع عموديا من وسط البحر كبرج هائل مستدير الشكل ، وهى منفصلة عن الساحل الفارسى بمسافة قصيرة من مياه البحر ، ويطلق عليها البحارة المحليون اسم التلة المباركة أو التلة الميمونة أو تلة الرجاء وذلك عرفانا منهم بجميلها فى انقاذهم من المخاطر التى تجرى فى هذه البحار المتقلبة الغادرة . ويوجد فى أعلى الجانب الجنوبى لهذه التلة أو البرج الصخرى ثقب غريب الشكل يقطعها بصورة حادة وبالامكان مشاهدته بوضوح عند النظر اليه من زاوية قائمة فى جو صحو . وبالامكان تحويل هذه الصخرة بسهولة الى « هليغولاند » * ثانية باعتبارها الحارس الأمامى المنيع الذى يذود عن الخليج ببصره الثاقب ، لذا فمن المستحسن أن يرفع العلم البريطانى فوق قمتها فى الوقت المناسب وذلك قبل أن يقوم الاخطبوط الألمانى الطامع الغادر العديم الضمير بالأطباق عليها .

---

* تعقيب : جزيرة ألمانية تقع فى بحر الشمال .

الفصل العاشر

مضيق هرمز

وفى الصباح الباكر لتاريخ ١٢ ديسمبر * وهو اليوم الخامس من مغادرتنا لميناء بومباى دخلنا مضيق هرمز الممتد من نهاية الطرف الشمالى لخليج عمان الى مشارف الخليج العربى غربا . كما قمنا بالدوران حول الرعن الجبلى الممتد بعيدا فى البحر أو شبه الجزيرة العمانية المتوغلة فى المضيق ومجموعة الجزر الصخرية المتكتلة حولها والمياه المرجانية الضحلة القريبة منها . ويمتد إلى الجانب الأيمن من باخرتنا الساحل الفارسى للمنطقة الشاسعة المسماة بحق « بيابان » أو الصحراء إذ انها تبدو للعيان وعلى مد البصر مقفرة وخالية من أى شىء سوى من قمم الجبال الجرداء المحدبة والوديان الضيقة المجدبة الواقعة فى وسطها دون أن يبدو فيها أى أثر للماء أو مظهر للحياة . كما تتعذر رؤية حتى حدأة أو نسر فى أى موضع من هذا المكان ، وهما من « مستوطنى التلال النائية المنعزلة » . وقد مررنا على مدى أبعد قليلا بالرأس الصخرى المتوغل فى المضيق والمسمى « رأس مسندم » ويعنى هذا الاسم « رأس السندان » مما يتلاءم تماما مع حالته إذ أن أمواج البحر الهائلة ترتطم ضاربة هذا الرأس كالمطرقة الثقيلة من جميع جوانبه بصورة متواصلة ودون توقف .

ويشكل هذا الرأس الحد الأقصى للرعن الشمالى لعمان وهو عبارة عن قمم صخرية من البازلت والصوان مقفرة ووعرة ومنخفضة تسمى « رؤوس الجبال » وقد سبقت الاشارة إليها من قبل . ومن هذا المكان بالذات دخلنا مضيق هرمز وأبحرت باخرتنا بمحاذاة مجموعة صغيرة من الصخور البارزة وهى عبارة عن ثلاث صخور أو جزر صخرية أطلق عليها استبشارا وتفاؤلا بطالعها الميمون « صخور سلامة » ، مما يشير بأنها تعنى الأمان

* عام ١٩١٦

والنجاة . ويبدو واضحا أن هذه التسمية تنطوى على رموز بالغة الدلالة ، فقد أطلق البحارة العرب الاوائل هذا الاسم على هذه الصخور الفريدة استرضاء للارواح الشريرة التى كانوا يعتقدون بأنها تطاردهم وتتسبب فى غرق سفنهم وتحطمها فى هذه البحار الضحلة الخطرة . كما تعرف هذه الصخور أيضا باسم « الكيوين » * الكبرى والصغرى .

كما يطلق على سلسلة الجبال الشاهقة الواقعة قرب مدينة « مشهد »** والتى تحجب هذه المدينة عن عيون الزائرين القادمين إليها من طهران ومن المناطق الغربية لفارس بغرض زيارة العتبة المقدسة فى هذه المدينة اسما مماثلا وهو « جبال سلامة » .

ويسمى الممر المائى الواقع بين « صخور سلامة » ورأس مسندم » بالباب أو البوابة وهو بمثابة المدخل الحقيقى للخليج العربى .

وتقف هذه الصخور أمام مدخل الخليج كحارس يرحب ويحتفى بالاصدقاء ويحميه أيضا من الخصوم المتطفلين . فهذه الجزر الصخرية الثلاث البارزة أو الكتل البازلتية تذكرنى الى حد ما بالنصب الصخرية الشبيهة بالأبر فى جزيرة « وايت »*** . وتسمى هذه الصخور الواقعة أمام مدخل الخليج طبقا للأعراف العربية السائدة فى التسميات باسم « بنات سلامة » ، ويبدو أنها جديرة الآن الى حد ما بهذه التسمية الشاعرية وذلك بعد أن قامت الحكومة البريطانية أو الهندية — حسبما اتصور — بوضع منار واضح وضرورى جدا فوق أكبر صخرة من هذه الصخور الثلاث . وعندما مررنا بجانب « صخور سلامة » بعد أن اتخذت الباخرة « زيانى » مسارها بحذر متجهة نحو « بندر عباس » الذى أصبح الآن كاملا على مرأى منا بدت كتل هذه الصخور الرمادية الداكنة تحت أشعة شمس الظهيرة رائعة ويخيم عليها السكون بالرغم من كون شطآنها جرداء وتتميز بالجفاء اذ يتعذر مشاهدة حتى طائر واحد فى ذلك بالمكان . ويجرى بين هذه الصخور موج البحر الفيروزى اللون ، ويرتعش عاكسا بريقا فضيا ، ويتكسر على جوانبها محدثا بذلك رغوة جميلة ، ويترقرق فى أمواج صغيرة عندما يحركه النسيم العليل . ولايوجد أى أثر للحياة فى هذا المكان سوى القيّم على المنار ورجاله المقيمين هنا والذين يبدو أنهم ينعمون بسكن مريح فى هذا الموضع — دون أن أحسدهم بالطبع على هذه النعمة — حيث لاتوجد هنا شجرة يستظل بها أو أى أثر للاخضرار يسر الناظرين .

وعندما اتجهنا قدما إلى الأمام مررنا على الجانب الأيمن من باخرتنا بجزيرة « لارك » الصغيرة الموحشة المظهر والمحاطة بالصخور ، كما مررنا على مدى أبعد قليلا منها إلى أعلى ، فى الجانب الأيسر من باخرتنا بجزيرة « قشم » أو « جشم » الكبيرة . وتعرف هذه

---

* تعقيب : الاسم الذى تعرف به عند الاوروبيين ومعناه الزوايا أو الأركان . وتعرف الصخرة الثالثة عندهم باسم « جاب »

** تعقيب : تقع فى شمال شرقى فارس .

*** تعقيب : جزيرة « وايت » المذكورة أعلاه هى جزيرة انجليزية تقع جنوبي ساحل انكلترا .

الجزيرة أيضا باسم « الجزيرة الطويلة » باعتبارها أكبر جزيرة فى الخليج . وتوجد فى هذه الجزيرة قرية صغيرة تحمل نفس الأسم تقع فى موضع بارز منهـا وذلك فى أقصى الشـمال الشرقى من الجزيرة . ويفصل بين هذه الجزيرة والساحل الفارسى ممر مائى طويل وضـيق وعسير يتيح للسفن ذات الحمولة الخفيفة فرصة لاختصار المسافة بين بندر عباس ولنجه عند العبور فيه .

ولكن السفن الضخمة تفضل المرور عبر الممر المائى الخارجى الواقع إلى الجنوب من هذه الجزيرة على أعتبار أنه الأسلم والأكثر ضمانا عند العبور . فالربان الحـذر يقتـدى بالمثل الفارسى القائل « **اسلك الطريق السليم ولو كان طويلا** » . وتجدر الاشارة إلى أن جزيرة « قشم » ترتبط بصلة وثيقة بالتاريخ البحرى الانجليزى ، فهناك حـدث تـاريخى جرى فوق هذه الجزيرة وذلك عندما تحالفت شركة الهند الشرقية عسـكريا مـع « الشـاه عباس » ضد البرتغاليين الموجودين فى جزيرة هرمز ، وقامت مفرزة بحـرية انجليـزية صغيرة بالنزول فى جزيرة « قشم » وهاجمت القرية الواقعة فيها واستولت عليها ، وقد قتل أثناء الهجوم رجلين انكليزيين فقط أحدهما هو الملاح والمغامر الشهير « وليام بـافن » الذى اكتشف « خليج بافن » . *

وكثيرا ماتشاهد مراكب الصيد الشراعية ومن بينها المراكب العـربية ذات الصـارى الوحيد والأشرعة الضخمة المعروفة باسم « البغلة » وهى تبحر بتثاقل وبـطء بمحـاذاة الشاطىء ، كما تقوم الأسراب الكبيرة لطيور النورس البحرية الجميلة بـاضفاء الحيـوية والنشاط على مثل هذه المشاهد البحرية الرائعة .

وعندما اتجهت باخرتنا إلى مدى أبعد نحو الشمال بحيث أصبح ميناء شاه عباس الكبير بمرأى منا ، مرت باخرتنا ببطء على بعد أربعة أميال تقريبا من الجانب الأيمن بجزيرة هرمز الشهيرة . وبعد انقضاء الظهيرة بقليل القينا مراسينا فى أول مرفأ أقوم بزيارته فى الخليـج العربى .

---

* تعقيب : « وليام بافن » الذى يقصده المؤلف هنا هو ملاح ومستكشف جغرافى انكليزي (١٥٨٤ ـ ١٦٢٢) قام فى عام ١٦١٦ بالعبور فى مضيق ديفيز والتوغل فى البحر الفاصل بين كندا وجزيرة جرينلاند والذى أطلق عليه بعد هذا الاكتشاف اسم « بحر بافن » أو « خليج بافن » كما أطلق على جزيرة كندية واسعة تقع قبالة الخليج المذكور باسم « جزيرة بافن » . وقد قتل فى عام ١٦٢٢م بجزيرة قشم بصفته مرشدا للاسطول الانكليزى عندما كان يقيس المدى بأجهزته المختلفة ويحدده للمدفعية .

الفصل الحادى عشر

زيارة الى بندر عباس

تــراءت لنا من بعيد ونحن على ظهر الباخرة مدينة « بندر عباس » جميلة جـذابة . وبدا واضحا بأن مثل هذه المسافة قد أضفت على نظرنا المتعة والسرور . فمنازل المـدينة البيضاء المتلاصقة ذات الأسطح المنبسطة ، وساحلها البحرى الطويل وتلالها البعيـدة الواقعة إلى الخلف التى يرتفع بعضها شامخا إلى عنان السماء كقمة جبل « باكون » التـى ترتفع باكثر من ١٠,٥٠٠ قدم قد خلق مشهدا رائعا جميلا للمدينة .

وكان « الدكتور بيرلى » طبيب القنصلية البريطانية فى المدينة أول من صعد على متـن الباخرة ، ورحب بنا بطريقة ودية للغاية . وعلى اثر ذلك وقع نظرى على مركب مثقل بالعمال أو كما يطلق عليهم عادة على سبيل الدعاية « على بابا والأربعين حرامى » حيث اقترب من الباخرة مركب ينوء بحمله من الرجال بغرض تفريغ الحمولة من الباخرة ، فقـد ازدحـم هؤلاء العمال فى كل بوصة مربعة من المركب ، وتعتبر المراكب المثقلة بالأحمال أمرا شائعا ومألوفا فى الخليج .

وقد طبعوا فى مخيلتى وهم على حالتهم هذه صورة عادت بتفكيرى إلى الايام التى ارتـاد فيها « السندباد البحرى » خضم هذه البحار . فطريقة صنع مركبهم وازياء الملابس التى يرتدونها ووجوههم ومظهرهم الخارجى قد بدت جميعا بانها لم تتغير ولم تختلف كما كانت عليه فى تلك الأيام . وقام البحارة بالتجديف بطريقة خاصة بهم حيث جلسوا متقـابلين على يمين الحافة العليا فى كل جانب وعلى امتداد عرض القارب . وتعالى من القارب صوت يتغنى باهزوجة تتناسق مع إيقاع حركة المجاديف كلما ارتفعت وغطست هذه المجاديف فى الماء بروية وتؤدة حيث يتجاوب مع هذا الايقاع جميع العمال من خـلال اطـلاقهم لتـرديدات جياشة . وتمثل هذه الاهازيج فى أغلب الأحيان مصدرا للمتعة والابتهاج لهؤلاء البحارة بما

تتضمنه من أداء موضوعى ارتجالى وتلميحات هجائية للركاب ولسكان المدن .

وكان القبطان « اكورجى » يحتفظ بعلاقات طيبة مع معظم المسئولين البريطانيين الذين يزاولون مهمة الاشراف الادارى على كلتا ضفتى الخليج ، لذا فانه كان مضطرا للبقاء على ظهر الباخرة لمتابعة عملية تفريغ الحمولة منها حيث كانت محملة بأكثر من ٥٠٠٠ طرد وتخليصها من هذا المكان ، لذا فقد وضعنى مع رئيس المهندسين فى عهدة « الدكتور بيرلى » الذى عاملنا بلطف للغاية وأخذنا معه فى مركبه الخاص السريع التجديف أى أنه مركب يحركه ستة من الرجال العرب الأشداء الماهرين فى التجديف . ويمكن القول بأن المسافة الفاصلة بين الباخرة والساحل ـ إذا لم يجافنى الصواب فى تقديرها ـ تقل عن أربعة أميال . وقد راودنى شعور من حب الاستطلاع لمشاهدة أول مدينة فارسية فى حياتى ، ففى عصر ذلك اليوم وطأت أقدامنا أرض ايران الوطن القديم للمجوس ، فهذه هى المرة الأولى التى أجد فيها نفسى على الأرض القديمة لفارس ذات التاريخ العريق ، فأنا فى أرض « جمشيد »و« خسرو »و« رستم »و« افرزياب »و« حافظ »و« فردوسى » . لذلك فقد شعرت بغبطة كبيرة لاتدانيها أية غبطة ، وكم كان سرورى عظيما عندما تذكرت يأنه على هذه البقعة التى خطوت فيها وفى جوارها المباشر قد توقف الايرانيون الأوائل أسلاف المجوس واتخذوها ملجأ لهم فرارا من ظلم اسيادهم العرب ، ومن الاضطهاد المتعصب لأبناء دينهم القدامى الذين تحولوا الى الاسلام . فموجة الاضطهاد هذه قد قذفت بهم ودفعتهم للابحار نحو الشواطىء المضيافة للهند المتسامحة عبر موجات متعاقبة من المراكب المكتظة بركابها . وبالطبع لم يك باستطاعتى تصوير هؤلاء الاسلاف المجوس الذين غامروا باقتحام البحار المجهولة ـ التى عبرتها لتوى باطمئنان وهدوء ـ وكانوا على متن مراكب بدائية ضعيفة هشة ـ كالتى لاتزال تستخدم فى هذه الانحاء ـ منطلقين فى رحلة محفوفة بالمخاطر بحرا وبرا .

« فالبندر » كما يطلق عليه هذا الاسم على سبيل المفارقة والتمييز عن سائر الموانىء الفارسية يفتقر إلى رصيف ممتد فى البحر أو موقع للنزول والرسو ، حيث أن مياه الشاطىء الموحل الرملى ضحلة ،لذا كان على مركب الطبيب ذو المجاذيف أن يتوقف بعيدا عن الشاطىء بمسافة عشرين ياردة ، وكان علينا الوصول إلى الشاطىء على ظهور البحارة الذين أنغمرت سيقانهم فى الماء وغاصت أقدامهم فى الوحل . فمنزل الطبيب والقنصلية البريطانية والمساكن التابعة لها الخاصة بالموظفين تقع خارج المدينة على الجانب الشرقى منها فى مواجهة جزيرة هرمز تقريبا . ولم يك لدينا متسع من الوقت للذهاب الى لقاء ممثل الامبراطورية البريطانية وتقديم التحية اليه وهو ماكنت أعتزم القيام به . وقد شعرت بالاعتزاز وأنا أشاهد العلم البريطانى « الراية المجيدة لانكلترا » وهو « العلم الذى رفرف على مدى ألف عام » من المعارك المتتالية التى توجت بانتصار الحرية المدنية

وسيادة القانون وأنتشار الحضارة المنظمة على امتداد نصف الكرة الأرضية المأهوله بالسكان . فالهند مخلصة ووفية لهذا العلم ولكل مايمثله من رموز ، وقد أديت له التحية بكل احترام وإجلال .

ويعتبر منزل القنصل البريطانى أجمل مايمكن رؤيته على امتداد ساحل الخليج فهو مبنى من حجارة داكنة جميلة مستخرجة من محاجر جزيرة هرمز المجاورة ، ويتكون من مبنى ذو طابق علوى تحتل الشرفات الفسيحة الرحبة جانبا منه . ويعلوه سطح منبسط ذو حاجز مفرغ يتخلله صف من الأعمدة الصغيرة المحدبة قالبية الشكل وذلك طبقا للطراز الشائع فى البناء فى كل مكان من الانحاء المجاورة . ويحيط به مجمع واسع تقوم بوسطه المبانى والمساكن الخاصة بالقنصلية .

ويقع منزل الطبيب على مقربة من القنصلية ويحيط به سور منخفض ، وهو مسكن مريح للغاية يتكون من حجرات عديدة واروقة للتهوية تسمح بمرور الهواء فيها مما يجعل البيت باردا .

وللوصول الى منزل الطبيب كان علينا السير عبر قفر رملى قاحل مهجور يمتد على مساحة طويلة من الأرض لايصلح إلا لجولة ممتعة من السير على الاقدام . ولاتوجد طرق فى أى مكان من مدن الخليج حتى أبسط الأنواع البدائية من الطرق غير متوافرة . وقد أحاطنا « الدكتور بيرلى » وزوجته بأستقبال ودى حافل حيث أمضينا معهما ساعة واحدة فى تناول الشاى ومطالعة الصور التى التقطها الطبيب للمناظر وللناس ، حيث أنه هاو قدير ومتحمس لممارسة هذه الهواية المتعة بعدسة التصوير .

الفصل الثاني عشر

طبيب القنصلية

فى كل مكان من الانحاء المجاورة حيث توجد فيه قنصلية بريطانية يوجد فيه طبيب كفء أيضا منتدب من ادارة الصحة الهندية ، تتوافر لديه عيادة مجانية مزودة بجميع المستلزمات الطبية . وهذه هى احدى الأسباب التى جعلت البريطانيين يتمتعون بشعبية كبيرة بين الناس فى كل مكان من الخليج . فالعيادة الطبية « نعمة وبركة » اذ يلجأ إليها عادة اعداد كبيرة من الفقراء والمحتاجين الذى يعانى أكثرهم من أمراض العيون وأوجاع المعدة ، وهى أمراض ترجع مسبباتها الى الرمال المتحركة والذباب والحشرات واستعمال المياه الملوثة والعادات المحلية التى تنظر الى الغسل والنظافة الشخصية على اعتبار أنها أمور غير ضرورية ولاداع لها فى الحياة وفى المعيشة الفارسية .

أما الطبقات الأخرى التى تتمتع بظروف اجتماعية أفضل فهى ترغب أيضا فى الاستفادة من خدمات الطبيب الانكليزى إلا أنها تفضل عادة اعطائه مقابل مادى نظير تلك الخدمات ، وهذا المقابل المادى لايضيف شيئا كثيرا الى الدخل الرسمى للطبيب . ويبدو أن فكرة الرجل أو المرأة الفارسية تقوم على أساس انك اذا شفيت فهذه مشيئة الله وصنع يديه ويتوجب عليك عندها توجيه الشكر اليه ، وإذا لم تتحسن حالتك الصحية فهذه جنحة الطبيب ، فما الداعي للدفع ؟ وقد روى لنا « الدكتور بيرلى » كثيرا من الحكايات الطريفة عن الاعذار التى يتذرع بها مرضاه الميسورين للتهرب من دفع أجور العلاج وقد أصر فى جميع هذه الحالات على الدفع مقدما قائلا لمرضاه مقولة مماثلة « **انك إذا شفيت فهذا بفضل الطبيب وإذا لم تشف فانها قسمة ونصيب** » .

ويبدو أن هذه الحالة شائعة فى كل مكان من هذه البلاد القديمة بين كل طبيب انكليزى وزبائنه المحليين . ويحاول العرب والفرس احيانا رشوة الطبيب عن طريق اهدائه سجادة

أو بساط صغير لموطىء القدم قد يكون تافه لاقيمة له . أو اعطائه صينية مليئة بـالحلوى عسيرة الهضم أو إناء من النحاس الأصفر أو كسرة من إناء خزفي يقال عنها انهـا تحفـة قديمة . ويبدو أن نظام الدفع نقدا مقدما والمعالجة لاحقا هو الاسلوب الصحيح للتعامل مع هؤلاء الناس من الطبقات العليا في الخليج .

فإذا كان العامل يستحق اجرته فان الطبيب المقيم في موانىء الخليج يستحق بالتأكيد أكثر من ذلك . فالطبيب يمضي اوقاتا صعبة خالية من المتعـة والسرور تسـتمر شـهورا عديدة ، ففي هذه الأماكن النائية حيث القى عصى ترحاله فإنه يعاني من الملل والفراغ مالم يك مولعا بالتنقيب عن الآثار أو دراسة اللغات السامية أو ينهمك في ممارسة بعض الهوايات الممتعة التي تمثل ولعا له أو أن يسعى لأن يشغل أوقات فـراغة بـاهتمامات أخـرى ، فالرياضة متوافرة اذا كان يجيد تصويب الطلقات النارية بصورة مرضية لـكنها ريـاضة باهظة الثمن وتتطلب الكثير من الجهد والتعب .

فإذا كان اعزبا فان فراغه سوف يتفاقم بالوحدة مالم يعاشر السكان المحليين رافعا عنه الكلفة . واذا كان متزوجا فإنه سيكون متلهفا من أجل أن تكون عـائلته مقيمـة معـه لأن التكاليف ستكون أقل ، أما إذا لم تك عائلته مقيمة معه فان انفاقه سيكون كبيرا على اعتبار أنه مضطر للانفاق على جهتين في آن واحد .

فطالما انه توجد هناك قنصلية أو معتمدية سياسية يوجد دائما ناد رياضي قـد تـكون ملاعبه خالية أحيانا من المناسبات الرياضية لكنه يمثل ملتقى اجتمـاعي تتقـابل فيـه مجموعة قليلة من الناس بغرض أقامة صداقات والمشاركة في تنـاول الشـاي وتبـادل الأحاديث . كما يضم النادي مكتبة محتوياتها مبعثرة ، قد يستمتع المرء في تصفح كتـب الأدب القديم فيها بالرغم من الملل الذي تثيره القصص المتكررة روايتها . أو يجد المـرء متعة في قراءة الصحف التي تصل بعد أسبوعين من صدورها حيث تعاني مـن الفـوضى السائدة في النقل البريدي بسبب ظروف الحرب الجارية هذه الأيام إلا أنها تصل بصـورة منتظمة .

فالطبيب الجيد المقيم في هذه الموانىء متضرر للغاية من الحرب الجارية المثيرة للقلق في العالم ، فهو يستلم مرتبه الشهري بعملة الروبية إلا أن العملة السـائدة والمتـداولة في جميع أنحاء فارس هي « القران » وهي عملة قيمة الصرف فيها الآن مـرتفعة جـدا وفي ارتفاع مستمر ونتيجة لذلك فان دخل الطبيب يعاني بالضرورة من انخفاض متواصل . ففي مثل هذه الظروف الصعبة فإن هؤلاء الأطباء الذين يعيشون حياة مليئة بالتضحية والتفاني في مهنتهم يستحقون منا كل تقدير وتعاطف واعجاب .

الفصل الثالث عشر

زيارة للمدينة

وبعد أن ودعنا « الدكتور بيرلى » وزوجته توجهت مع رئيس المهندسين لزيارة مدينة بندر عباس والاطلاع على معالمها . وحيث أن المدينة تفتقر الى شارع أوطريق صالح للسير فيه يقى القدم من الغوص حتى الرسغ فى الرمال الرخوة أثناء السير ، وكذلك بسبب الاصابة التى أعانى منها فى الساق مما يجعل سيرى غير متوازن فقد تفضل « الدكتور بيرلى » واحضر لى زبونا فارسيا يقوم بتأجير حماره للركوب عليه . وقد جلب معه حمارا من صنف جيد لونه أسود فاحم وجلده ناعم وشديد التأنى فى خطوه وسيره ، ويكسو ظهر هذا الحمار خرج وهو عبارة عن غطاء مزركش مطرز تعلوه وسادة وثيرة من الجلد المستخدم عادة للسروج مما يجعل الركوب عليه مريحا . وقد جلست على ظهر الحمار منفرج الساقين متدلى القدمين نظرا لعدم توفر ركاب أضع فيه قدمى . وكان الصبى صاحب الحمار يقوده أثناء السير عن طريق الامساك برأسه ، فى الوقت الذى كان فيه صديقى الشاب رئيس المهندسين يسير على قدميه إلى جانب الحمار وبيده عصا طويلة .

وقد صنعنا بحالتنا هذه صورة كالصور التى تجدها فى الرسوم المصورة لحكايات الكاتب الأغريقى القديم « إيسوب » * ومنها حكاية الرجل العجوز وولده وهما متوجهان بحمارهما إلى السوق .

وبعد السير والتعثر فى الطريق أثناء السير وصلنا إلى المدينة وقمنا بعبور العديد من الأزقة الضيقة الملتوية والمتعرجة والمحصورة بين جدران مطلية باللون الأبيض الشاحب . ولايمكن لأحد أن يقوم باختراق هذه الأزقة الضيقة والعبور فيها مالم يك أحد سكان المدية الأصليين العارفين بها وبدروبها . وحيث كنا نرغب فى مشاهدة سوق المدينة

* تعقيب : كاتب اغريقى (نحو ٦٢٠ ـ ٥٦٠ ق. م) وضع عددا من الحكايات على السنة الحيوان .

فقد توجهنا مباشرة نحوها ولكننا وجدناها قاتمة وقذرة تنبعث منها الروائح الكريهة التـــى تزكم الانوف فلم نتمكن من البقاء هناك فابتعدنا عنها منصرفين بخطى سريعة عاجلة نحـــو الشاطىء الفسيح فى مواجهة المدينة .

وقد أعربنا عن موافقتنا لزيارة موضع آخر من المدينة وصفه دليلنا على أعتبار أنه موقع مثير لاهتمام الزوار والمسافرين يطلق عليه اسم « قبعة الرجل الانكليزى » وهو عبارة عن مبنى واسع مرتفع متهاوى لونه أحمر ، ويقع عند نهاية الطرف الغربى من سوق المـــدينة ، وتعلو هذا المبنى قبة طويلة ذات شكل غريب وهو شكل قبعة ليس لها حافة .

ولم يك بامكان أحد أن يخبرنا عن الغرض الذى شيد من أجله هذا المبنى ، ولـــربما أن هذا المبنى هو مجرد أطلال لمصنع أسسه الانكليز أو الهولنديون فى هذا الموضع منذ زمن بعيد . فقد كان يوجد هنا مصنع انكليزى دمـــره الفــرنسيون فى عـــام ١٧٥٩ فـــأصبح مهجورا . ومن الواضح للعيان بأن هذا البناء بالغ القدم من حيث كونـــه متـــداعيا وهـــو يستخدم الآن كمستودع للجمارك تخزن فيه البضائع المنقولة عبر المراكب التى ترسو عند حاجز الماء الصخرى القريب . أما المدخل فقد كان مزدحما بالعمال الداخلين والخارجين منه وهم ينقلون الأحمال الثقيلة ، أما داخله فقد بدا قاتما مقيتا تنبعث منه الروائح الكريهة لذا التزمنا جانب الحيطة والحذر بعدم الدخول فيه .

وقد أذنا لصاحب الحمار بالانصراف عنا ، وقمت مع رئيس المهندسين بجولة متـــروية مشيا على الاقدام على امتداد الشاطىء الرملى .

وقد ازدحمت عند الشاطىء أعداد كبيرة من المراكب بعضها يغادر الميناء مثيرا لضجة كبيرة ، وبعضها يقوم بتفريغ حمولته ، والبعض الآخر مقلوب على ظهـــره بغـــرض ســـد التشققات الظاهرة فيه أو مائل إلى جانب بغرض اصلاحه أو تنظيفه .

كل هذا يحدث وسط حشد كبير من البحارة والملاحين بمختلف مآربهم ومشـــاربهم ، فمن هم من يثرثر أو يتشاجر او يصرخ أو يشغل نفسه بعمل ما أو يدعى أنه مشغول بعمل ما إلا أن أكثرهم يتراخى أو يتقاعس أو يتكاسل أو يتسكع أو يتكىء أو يجلس على باطن ركبتيه أو يقف على قدميه ، وتصدر من هذا الحشد أصوات متنوعة يستعصى فهمهـــا على أكثـــر المتخصصين بالعربية والضالعين فيها أمثال « نيبـــور » و « بـــالجريف » و « بلمـــر » وتنتابهم الحيرة الشديدة مما يسمعون .

ففى جميع انحاء شواطىء الخليج يسود خليط من بلبلة الألسن واللهجـــات المحليـــة والريفية بما فى ذلك الكلمات والتعبيرات الأفغانية والفارسية والهندية والبلوشية العـــابرة والمستعارة مما يبرر بصدق التسمية الشعبية الشائع اطلاقها على هذا المزيج من الـــكلام وهى « **لسان الطيور** » اذ يتطلب منك فى سبيل فهم هذا المزيج من الكلام أن تنشأ وتتربى فى وسطه أو أن تتمتع بموهبة خاصة تعينك على فهم كل مايقال حولك . كما يشاهد عـــن قـــرب

جمع من الأطفال والفتيات والأولاد صغار وكبار وهم يلعبون ويثرثرون ويتسابقون ويتصارعون ويتصايحون ويصرخون ويضحكون . وهنا أيضا كما هو الحال فى المدن الأخرى توجد سوق السمك اليومية وهى مزدحمة بالمشترين والبائعين الذى يمضون أوقاتهم فى النقاش والمباحثة ، فهم يتساومون على الأسعار ويتجادلون ويطلقون ايماءات الكلام ويصرون وينكرون ، كل ذلك يجرى وسط أكوام من الأسماك الطازجة والبائتة والجافة والطرية أو المقلية المكدسة فى السلال أو الممددة فوق الأسمال الرثة أو المتروكة فوق الرمال الجرداء أو المعلقة على الأعمدة .

كما يشاهد عن قرب أكشاك الطبخ السريع المخصصة لشواء الكباب أو لقطع اللحم الصغيرة حيث تلقى هذه التجارة رواجا بين جموع المشترين المزدحمين حولها من كل جانب الذين يتصايحون ويشقون طريقهم بجهد وعناء فى سبيل الحصول على هذا الطعام . فهذا مشهد حى وممتع يفيض بالحركة يجرى أمامنا فوق رمال شاطىء المدينة . فأكثر الرجال المتواجدون على الشاطىء هم من الفرس الذين يرتدون ملابس من قماش قطنى أزرق اللون يعرف باسم « جاما » وهو عبارة عن سترة وسراويل فضفاضة متهدلة أو ضيقة عند رسغ القدم ، واسمال بالية من القطن الأبيض تغطى عقب القدم تسمى « بابوش » ويضعون على رءوسهم قلانس كروية الشكل مصنوعة من اللبد قبيحة المنظر . كما يوجد هنا أيضا عدد كبير من العرب بلباسهم المميز الملون أو الأبيض الخالص المسمى « كوفية » وهو وشاح كبير يشده على رؤوسهم رباط من شعر الجمال أو تمسكه حبال بيضاء عادية ، كما يرتدون سترة أو ثوبا داخليا طويلا وعباءة مصنوعة من الصوف الخشن لونها بنى أو أسود ويضعون فى أقدامهم نعال مزركشة . كما تحفل المدينة بوجود أعداد كبيرة لاتعد ولا تحصى من المهرجين الظرفاء ، وهم قوم احجامهم ضئيلة ، بالكاد تستر أجسامهم قطعة من الثياب حيث أنهم فئة من المتشردين المتعطلين ، أقدامهم حافية ورءوسهم حاسرة وأجسامهم قذرة وملابسهم رثة لكنهم ينعمون بالحرية المطلقة وراحة البال والشعور بالغبطة والابتهاج وعدم الاكتراث بأى شىء سوى بالمرح واحتياجات اللحظة الراهنة . أما الجنس الأخر فهو غائب عن الأنظار لا يظهر سوى قلة قليلة من نساء أدنى طبقة اجتماعية حيث يبدو منظرهن شبيه بالمومياوات المتحركة أو يمكن القول أن هؤلاء النسوة قد ابتلين بالعباءات السوداء التى تغطى كامل أجسادهن من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين ، فلا يظهر منهن أثر أو عين خشية أن يقع عليهن نظر عيون متطفلة . كما يوجد بالمدينة عدد قليل من الكلاب المصابة بالجرب القبيحة المنظر وبعض الحمير الضالة التى لاصاحب لها حيث يمثل هؤلاء جزءا من الصورة العامة للمدينة ويضيفون شيئا إلى الصخب العام والتنوع الواسع اللذين تتميز بهما الحياة فى هذه المدينة . أنه مشهد ممتع ومسلى ذلك الذى نراه أمامنا وقد اعترتنا رغبة جامحة فى التريث قليلا لمزيد من

الاستمتاع برؤية هذا المشهد المتنوع النابض بالحياة والحركة والزاخر بالألوان الرائعة لكنه كان يتوجب علينا أن نترك هذا المكان بأقصى سرعة ممكنة .

ففي ظل هذه السماء البديعة الصافية ، وقرب هذه المياه الزرقاء الجميلة المتموجة والمتدافعة نحو الساحل ، فان الشاطىء بأكمله كان يفوح بالروائح الكريهة النتنة التي أزكمت أنوفنا وأفسدت أنفاسنا فهي من شدة نتانتها وقوة نفاذها الى رئاتنا يتعذر علينا وصفها أو التعبير عنها بأي شكل من الأشكال .

وقد ألقيت فوق شاطىء المدينة اصناف متعددة من الفضلات والمخلفات والرواسب والأسماك المتعفنة وبقايا حوانيت الطبخ والمواد المحروقة والخضروات التالفة والأسماك البالية القذرة والحيوانات الميتة وروث الحمير المتناثر على امتداد الشاطىء باكمله ، فلو أبدى هؤلاء الفرس قليلا من الاهتمام الى هذا الشاطىء فإنه سيتحول إلى متنزه عام في غاية الروعة والجمال .. وبالرغم مما تسببه رواية هذه الحادثة من أحراج إلا أنها تعكس بالفعل حقيقة ماحدث أمامنا ، فقد وجدنا رجالا راشدين وأطفالا صغارا يجلسون على حافة البحر مستجيبين إلى نداء الطبيعة غير مكترثين بمسألة الحشمة والسرية متخذين من المد المتدفق من البحر وسيلة للغسل والاستحمام في آن واحد . وكان علينا أن نولي هاربين مبتعدين عن هذه المشاهد إلا أننا وجدنا مرة أخرى أنه ليس من السهل السير فوق الرمال الثقيلة أو الرطبة أو الناعمة قرب البحر بينما تتناثر فوق جميع أرجاء الساحل الألواح الخشبية المفككة والقواقع البحرية وصناديق الحمولة المتكسرة وعتاد المراكب المهجور والصواري المرمية النخرة والمسامير العتيقة الصدئة والأطواق الحديدية المتروكة أضافة الى الأسلاك الغليظة للمراكب الممددة من مقدمة المراكب إلى خلف خطوط المياه العالية ، فجميع هذه المتروكات تجعل الحركة بطيئة متأنية محفوفة بالمخاطر وقد بذلنا جهدا وعناء كبيرين أثناء تخطينا لها حتى صعدنا على متن مركب الطبيب الذي تفضل ووضعه تحت تصرفنا وهكذا انهينا زيارتنا لمدينة بندر عباس وألتحقنا بباخرتنا (زياني) دون أن يلحق بنا ضرر أو أذى في صحتنا أو في أعضائنا الجسمية .

الفصل الرابع عشر

عاصفة فى بندر عباس

ولقد قمنا بمغادرة مدينة بندر عباس فى حالة شديدة من الاستعجال ، فلو مكثنا ساعة أخرى أو مايقاربها على الشاطىء لهبت علينا عاصفة هوجاء من تلك العواصف المألوفة فى الخليج فلو انطلقت هذه العاصفة فجأة فوق المرفأ أثناء أبحارنا فى مركب صغير مكشوف على مدى ثلاثة أو أربعة أميال متجهين نحو باخرتنا الراسية فى عرض البحر لوجدنا أنفسنا فى مأزق حرج .

فقد لفت نظرى تلبد الغيوم حول تلال هرمز ، والسكون المفاجىء لهبوب الرياح ، وكذلك وميض البرق المتقطع القادم من جهة الجنوب مما ينذر بهبوب عاصفة . ولحسن الحظ فقد وصلنا إلى « دارنا » وصعدنا إلى باخرتنا فى الوقت المناسب وذلك بعد لحظات قليلة من احتجاب الشمس وسط كتل هائلة من الغيوم الغاضبة العابسة المكفهرة المنتشرة فى كبد السماء القرمزية . فعملية تفريغ الحمولة كانت على وشك الانتهاء عندما أنطلقت زمجرة مدوية من الرعد . وقد تم اقفال جميع الفتحات المؤدية الى قعر الباخرة باحكام شديد ، وكسيت الحمولة الملقاة فوق ظهر الباخرة بالأغطية المتينة الخشنة ، وتم ترتيب الأشياء بصورة مستعجلة وتنظيم كل شىء فى الباخرة على أحسن وجه . وانهمر سيل من الأمطار الغزيرة الثقيلة المتواصلة يصاحبها قصف سريع صاخب من الرعد وتوهج البرق فى ومضات خاطفة وهدير الرياح الساخطة التى تهب من كل جانب .

وانسدل الظلام كالغطاء الأسود أو كالستار الذى يحجب كل شىء عن الأنظار . فقد كان البحر ساكنا هادئا قبل سويعة خلت ، فأصبح هائجا مائجا عبر الموجات الهائلة المتلاطمة التى ارتطمت بالباخرة من كل جانب فى غضب وحنق عارمين . فهنا ينطلق « الصوت الجبار للبحر » يرافقه صوت الرعد القاصف .

« البحر الوحشى » داكن ، همجى مدمر
تلفه من القعر رياح غاضبة
والأمواج العارمة تنقض مندفعة كالجبال العالية .»

حقا انه منظر جليل مهيب ذلك الاستعراض الرائع لقوة الطبيعة . وقد أحدث هذا الاستعراض دون شك بعض الأضرار المادية الا ان الناس تتوق الى هطول الأمطار على امتداد هذا الساحل .

فهذا هو موسم الأمطار فى الخليج . ففى الأمس الأول هطلت زخات من المطر إلا أنها لم تك كافية ، فالناس يترقبون بتلهف وشوق بالغين هطول المزيد من المطر . فتموين المدينة والبلاد بالمياه يعتمد اعتمادا كبيرا على مثل هذه العواصف الماطرة المفاجئة التى يعتبرونها بامتنان وشكر مكرمة سخية من العناية الألهية .

ويبدو اننا كنا سعداء الطالع لكون باخرتنا لاتزال راسية فى عرض البحر أثناء حدوث هذا العارض الكبير المفاجىء فى حالة الطقس إذ لم يحدث بعد اقلاعنا وعبورنا للمضيق وللممرات البحرية المليئة بالصخور الواقعة بين بندر عباس ووجهتنا المقبلة وهى ميناء لنجه . وللدلالة على مدى عنفوان العاصفة وضراوتها يجدر بالذكر بأنه على أثر مغادرة بعض مراكب الصنادل المسطحة القاع لموقع الباخرة بعد تفريغ حمولتها متجهة جميعا بسلام نحو الشاطىء فان أحد مراكب الصنادل هذه قد وصل متأخرا عن الوقت المعتاد وكان محملا بحوالى تسعين كيسا من السكر كان من المفترض أن تنقل هذه الحمولة إلى الباخرة ، وقد حاول الاقتراب من الباخرة عندما غمرته موجة عارمة من مياه البحر فغرق غاطسا إلى القاع ، أما الرجال الأربعة أو الخمسة المكلفين بذلك المركب فقد شوهدوا وهم يصارعون البحر الهائج من أجل البقاء ولولا الجهود الانسانية التى بذلها قبطان باخرتنا لانقاذهم لأصبح هؤلاء الرجال طعما للأسماك المفترسة . فبناء على الأوامر التى أصدرها القبطان تم انتشال هؤلاء الرجال الغرقى ورفعهم من مستوى سطح البحر حتى استقروا على سطح الباخرة . ولم تك هناك أى وسيلة لنقلهم إلى شاطىء بندر عباس فى تلك الليلة ، لذا فقد تم نقلهم بالباخرة إلى مرفأ لنجه المجاور ومنها يفترض أنهم عادوا إلى مدينتهم ومنازلهم بعد يوم أو يومين بواسطة مركب شراعى ساحلى وسط دهشة وسرور وربما أحباط ذويهم الذين لابد أنهم يأسوا من العثور عليهم واعتبروهم فى عداد المفقودين بصورة قاطعة ونهائية .

أما فى هذه اللحظة فإن هؤلاء البحارة ذوى الطالع الحسن الذين اجتازوا باعجوبة حادث بحرى مهلك فإنهم يكادون أن يطيروا فرحا لنجاتهم ، كما أنهم يشعرون بأن « سرورهم لايقارن بأى سرور آخر » وهو تعبير فارسى مألوف للدلالة عن الفرح العارم عندما ينقلب موقف مأساوى حرج بصورة مفاجئة إلى نهاية سارة .

الفصل الخامس عشر

وصف مدينة بندر عباس

تقع مدينة بندر عباس على الجانب الشمالى لمضيق هرمز ، وتعتبر الميناء البحرى لأقليم كرمان أوكرمانيا . ويبلغ عدد سكانها حوالى ١٢٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ نسمة من بينهم عدد كبير من البغداديين والعرب والأرمن والأفغان والبلوش والسنديين حيث يتميز هؤلاء بطبيعتهم المترحلة والمتنقلة .

وتقع هذه المدينة فى نفس الموقع الذى كانت تقوم فيه سابقا مدينـة « جـومبرون » أو مدينة « كامباروا » الوارد ذكرها فى مصنفات المؤلفين البرتغاليين القدامى ، إذ لم يعد يذكر هذا الأسم الالماما حيث أختفى تماما منذ أن أتخذ الشاه الصفوى « عباس الكبير » هذا الموقع ميناءً بحريا رئيسيا له وأطلق عليه أسمه الشخصى . وقد تنازع على السيطرة على هذا الميناء مرارا وتكرارا سلاطين « مسقط » والفرس حتـى انتهـى الأمـر بـاقصاء المذكورين أولا فى عام ١٨٦٨ واستعادة المذكورين لاحقا لسيطرتهم النهـائية على هـذا الموقع الحيوى والمقاطعات التابعة له ، فقاموا بتعيين حاكما فارسيا هناك لادارة شئونه . فإلى جانب القنصلية البريطانية الموجودة فى المدينة توجد ايضا قنصليتان آخريين وهمـا القنصليتان الروسية والبلجيكية .

كما تتوقف فى هذا المرفأ البواخر التابعة لشركة الهند البريطانية للملاحة وشركة الخليج للملاحة وذلك لفترة قصيرة ولكنها منتظمة .

فالموقع القيادى الذى تتمتع به هذه المدينة بوقوعها عند مدخل الخليج وبحكم كونهـا نقطة انطلاق لأربعة من طرق التجارة أوطرق القوافل الممتدة الى داخل البلاد سوف يحيل هذه المدينة ـ لو أنها خاضعة اداريا تحت أمرة أيدى مناسبة ـ من مدينة ضئيلة الأهمية إلى مدينة ذات أهمية تجارية كبيرة .

فمن بعيد يلوح الصف الأمامى من المنازل البيضاء للمدينة وهـى تغتسـل فى أشـعة

الشمس الساطعة مما يضفى عليها منظرا بهيجا للغاية ، ولكنها تبدو على مقربة دانية منها عكس ذلك تماما حيث يبدو كل شيء فى هذه المدينة مثيرا للاحباط ومخيبا للأمال إذ يبدو واضحا للعيان بأنها مدينة متهالكة البناء رديئة التشييد ، يحيط بها سهل مقفر يكاد لاترى فيه شجرة يانعة واحدة ، ويستند ظهرها على سلسلة من جبال « شميل » الجرداء الكئيبة المنظر الواقعة من بعيد إلى الخلف من المدينة . فمعظم المنازل متصدعة متداعية ، تتكون من طابق واحد وسطح منبسط ، ولا يوجد بالمدينة منار أو مئذنة تخفف من الرتابة والقبح اللذين تتميز بهما منازل هذه المدينة .

وتعتبر المدينة موبوءة للغاية وذلك يعود بدون شك إلى القذارة المنتشرة فى كل موضع ومكان من المدينة . فالمسئول الصحى والكناس ليسا لهما أدنى وجود هنا ، وأية فكرة عن الصحة أو النظافة ليسا لها محل فى تفكير أى شخص ينتمى إلى مدينة بندر عباس . فامداد المدينة بالمياه يتم بواسطة بعض الصهاريج المقامة بعيدا عن المدينة ، إلى الشرق منها ، حيث تجلب منها المياه بواسطة الجرار الفخارية أو القرب الجلدية التى لايبدو اطلاقا أنه يجرى تنظيفها ، حيث تحمل أما على ظهور الحمير أو على أكتاف ورؤوس النساء البائسات . فكمية الماء المخصصة للشرب تعتبر قليلة جدا ، ومن الصعوبة بمكان أن توصف هذه الكمية فى أحسن الأحوال بأنها صالحة للشرب .

فالانجليز القلائل المقيمين فى هذه المدينة قد تدبروا أمرهم بشأن الحصول على المياه الصالحة للشرب عن طريق قباطنة البواخر حيث يحصلون على امدادات المياه القادمة من مدينة بومباى من خزانات البواخر الزائرة للمدينة .

واتصور أن معظم سكان المدينة لايعرفون الاستحمام المنتظم ــ طبقا لمفهوم الاستحمام الذى نفهمه خارج اراضى الشاهات والخلفاء ــ إلا فى حالات نادرة جدا ، أما أولئك الناس الذين يعملون فى البحر أو يزاولون مهن بحرية ، فإنهم يغتسلون عندما تقتضى أعمالهم ذلك . فمع وجود حكومة أكثر ذكاء وأكثر نزاهة واستقامة ، ومع مد شبكة افضل من الطرق ، واقامة سكك حديدية تمتد بعيدا على امتداد الساحل حتى تصل إلى مدينة أبى شهر ، ومع خلق ظروف صحية ملائمة بالمدينة ، وتوفير امدادات مناسبة من المياه الصالحة القادمة من المناطق الجبلية المجاورة ، وغرس الأشجار بالمدينة ، فأنا على يقين بأن هذه المدينة العفنة الفاقدة حاليا لكل مظاهر الحياة ستتحول إلى مدينة مزدهرة نابضة بالحياة والحيوية . فطالما أن هذه المدينة قد ابتليت بمثل هذه الحكومة وبسكان من الكسالى والخاملين الذين يبدو أنهم قانعون باقدارهم البائسة وبعجزهم الأبدى ، فيبدو أن هناك فرصة ضئيلة جدا فى أن تتحسن أحوال ميناء شاه عباس ، وأن هناك احتمالا ضعيفا فى ترجيح أنجاز شيء من هذا القبيل . وينطبق هذا الكلام على البلاد باكملها حيث أنها فى حاجة ماسة إلى تخصيب وتنشيط وتوعية تنفض عنها غبار الخمول . فعندما كنت بالمدينة

كان يجرى فيها مقدار ضئيل من النشاط والحركة يتمثل فى مد خطوط البرق عبر المناطق الجبلية حيث تشاهد أعدادا كبيرة من الرجال والحيوانات وهى منهمكة فى العمل ، وكذلك الكثير من المواد واللوازم على شكل بكرات من الاسلاك وأعمدة خشبية يتم جمعها لكى تنقل الى داخل البلاد .

وقد أسفت كثيرا ـ نظرا لقصر مدة الزيارة ـ لعدم استطاعتى زيارة السيد « سورابجى دورابجى » . الذى استقر فى هذه المدينة منذ سنوات عديدة حيث يقوم حاليا بتنفيذ أعمال على درجة كبيرة من الضخامة باعتباره تاجرا ومقاولا فى آن واحد .

فقد بدأ حياته التجارية هنا بافتتاح متجر صغير متواضع يسمى « متجر أوروبا » وهو يلقى الآن المزيد من التقدير باعتباره « ملك التجار » أو أمير التجارة . فبالصبر والمثابرة والبصيرة النافذة والحيوية وهى الصفات التى تميز الرجل المجوسى ، ورغم ضآلة مصادره الخاصة فإن السيد « دورابجى » قد نجح فى تحقيق الازدهار والانتعاش لتجارته واعماله التجارية .

فقد قيل لى أنه من ضمن المعاملات التى يقوم بتنفيذها محليا يوجد فى يديه حاليا عقد تزيد قيمته عن مائتى ألف روبية ، يقوم بموجبه بتزويد السلطات العسكرية البريطانية بالجمال ، فإلى جانب هذه المعاملات المحلية فهو يقوم أيضا بتنفيذ معاملات كثيرة مع بومباى ومناطق أخرى فى مجال التعامل بمادة المغرة الحمراء * المسماة « جيلك » وكذلك التعامل على نطاق واسع بمواد طبيعية مترسبة وملح الصخور ومواد معدنية كالتى تستخرج بكميات كبيرة من جزيرة هرمز . ويمتلك السيد « دورابجى » منزلا واسعا بالمدينة فى مواجهة البحر ، يضم متجرا ومستودعا للبضائع يقعان فى الطابق الأرضى منه . ويقع منزله بجوار منزل آخر اشاروا عليه قائلين لى بأنه قصر الحاكم المحلى ، فكلا المنزلين يبدو منظرهما متصدعين وآيلين إلى السقوط وهو منظر فارسى متميز .

---

* تعقيب : نوع من الصلصال غنى بحجر الدم (مغرة حمراء) أو باكسيد الحديد الهيدراتى الطبيعى (مغرة صفراء) ، وتستخدم مادة المغرة فى الصباغة .

الفصل السادس عشر

جزيرة هرمز أو هرمزد

بالقرب من مدينة بندر عباس ، وأثناء دخول باخرتنا إلى المرفأ ، وعلى الجهة اليمنى من الباخرة لاحت لنا فى الأفق جزيرة هرمز أو هرمزد ، وهى الجزيرة التى تمتعت بشهرة واسعة من قبل بسبب ثروتها الطائلة ، كما تغنى بتلك الثروة الشاعر الانجليزى الكبير « جون ملتون » فى مقولته الشهيرة « ثروات هرمز والهند » .

فهذه الجزيرة تواجه مصب نهر « ميناب » المتدفق نحو البحر والواقع إلى الشرق من مدينة بندر عباس ، ويفصل هذه الجزيرة عن الساحل قناة بحرية ضيقة يتراوح عرضها بأربعة أميال .

وربما أن اسم الجزيرة مشتق من أحد اسمين ، أما من اسم الأله « هرمزد » معبود الفرس القدامى وهو الخصم اللدود « لأهريمان » روح الشر والمنتصر نهائيا عليه ، أو أنه مشتق على الأرجح من التعبير الذى يتصوره بعض الناس ويرضون به وهو تعبير « خرموز » وهى كلمة مشتقة من اصطلاح « خرما » وهو الأسم الفارسى للتمر على اعتبار أن الأراضى المحيطة بالجزيرة الواقعة على مدى أبعد منها فى الداخل كانت تسمى « مغوستان » ويعنى هذا الأسم أرض النخيل ، وتذكر الروايات القديمة إن هذا الموقع كان شهيرا بوفرة وجودة تموره . ومن الواضح أنها جزيرة « ارمونزا پولس » التى ذكرها الجغرافى القديم بطليموس . وكان يطلق على الجزيرة سابقا أسم « جرون » حيث كانت تشكل على مايبدو فى الأزمنة الغابرة جزءا من البر الرئيسى الواقع إلى الشمال منها ، فى الموقع الذى كانت تقوم فيه على مدى أبعد فى داخل البر الرئيسى مدينة « هرمزد » وهى المدينة التى اتخذها أتباع « زرادشت » الأوائل مأوى لهم عندما كانوا يجوبون هذه الأنحاء قادمين من أقاليم فارس وكرمان وخراسان فقطنوا تلك المدينة واستقروا فيها

لسنوات عديدة . ولم يتبق من تلك المدينة القديمة أثر سوى أطلال واسعة متناثرة .

ويبدو أن هذه الجزيرة كانت تمثل الميناء الرئيسى لهذا الجزء من فارس واكتسبت شهرتها منذ القرن الثالث عشر الميلادى كمركز رئيسى للتجارة بين الهند وجميع أنحاء آسيا وأوروبا عبر سوريا وآسيا الصغرى . وفى عام ١٤٤٢م قام مبعوث لملك فارس شاه « رخ » بزيارة الجزيرة أثناء مروره بها فى طريقه متوجها إلى أحد بلاطات الهند ، وقد وصف هذه الجزيرة بأنها « أكبر مركز تجارى فى العالم » حيث يتردد عليها التجار من جميع أنحاء آسيا وشبه الجزيرة العربية يتعاملون فيها بكل نوع وصنف من البضائع والسلع كالحرير والمعادن والذهب والأحجار الكريمة واللؤلؤ والأسلحة والأقمشة المطرزة والسلع القطنية الثمينة والتوابل والطيور النادرة والحيوانات الشرسة . ومن هنا اكتسبت جزيرة هرمز شهرة واسعة عن ثرواتها الطائلة .

وكما كان الحال عليه فى الأزمنة القديمة بالنسبة للشطر الأكبر من الساحل الجنوبى لبلاد فارس فإن جزيرة هرمز ومنطقتها الثرية الواقعة إلى الخلف من الساحل كانت خاضعة على مدى فترة طويلة من الزمن تحت حكم رؤساء القبائل والملوك العرب الذين عبروا الخليج قادمين من عمان ومن مناطق أخرى فى وسط شبه الجزيرة العربية وأسسوا هناك سلالات حاكمة ذات أهمية ثانوية حتى أزاحت غارات التتار المتكررة ملك هرمز العربى من الساحل فانكفأ إلى الجزيرة ذاتها . وفى حوالى عام ١٥٠٧م عندما توسعت القوة البرتغالية نحو المناطق الواقعة إلى الشمال من مستعمرة « جوا » البرتغالية الواقعة بالهند قام البرتغاليون بشن غزواتهم هناك وأسسوا مستعمرات حصينة فى جميع أنحاء الخليج .

أما ملك هرمز فقد تضاءلت قوته أمام قوة وسطوة نائب الملك البرتغالى القائد الشهير « الفونسو دى البوكيرك » الذى كان متفوقا فى الرجال والعتاد ، فأصبحت الجزيرة تابعة إلى البرتغال وتدفع لها الجزية ، واستمرت فى خضوعها لتلك البلاد الأوروبية البعيدة قرابة قرن من الزمان . وبالرغم من وقوعها اسميا تحت حكم ملكها العربى إلا أن البرتغاليين كانوا هم الذين يفرضون سيطرتهم الفعلية على الجزيرة . ومع وقوع هرمز فى قبضتهم القوية قام البرتغاليون بإنشاء مستعمرات فى اجزاء أخرى من الخليج تحميها قلاع حصينة وبهذا فرضوا هيمنتهم على البحار فى داخل وخارج الخليج . وكان البرتغاليون يعقدون مراسم اختيار وتنصيب ملك هرمز من حين إلى أخر وذلك طبقا لما ذكره رحالة ايطالى قديم : « عندما توفى الملك العجوز ، اختار القائد البرتغالى ملكا آخر .. وجعله يقسم بأن يكون مخلصا لملك البرتغال .. وهو يحظى بمظاهر الحفاوة والتكريم والتشريف كملك لكنه لايستطيع مغادرة الجزيرة بدون موافقة مسبقة من القائد البرتغالى » .

وظهرت على المسرح فيما بعد « شركة جون وبهادور » وازاحت هؤلاء « البرتغال » —

كما أسماهم كاتب المذكرات اليومية الممتعة « بيبيس » - من المواقع الواقعة تحت سيطرتهم .

فالشاه « عباس » الذى يعتبر أشهر ملوك فارس اللاحقين وأكثرهم كفاءة واقتدارا وشأنا وتألقا كان قد وضع على هرمز لفترة طويلة عينا تعتريها الرغبة الجامحة والطمع ، فقد كان غيورا من القوة البرتغالية ومتضايقا من غطرستهم المتزايدة ، لذا فقد تدخل الآن - متمتعا بالمعونة المتأهبة للبوارج والجنود الانجليز - فحاصر الجزيرة التى استسلمت بعد حصار طويل وشهم فوقعت فى أيدى الفرس . فالخدمة التى قدمها الانجليز إلى الشاه الكبير لم تك بدون مقابل ، فقد أصر هؤلاء على اقتسام الغنيمة بحيث تكون جزيرة هرمز مناصفة بين الطرفين ، الى جانب حصولهم من الشاه على تنازلات هامة عديدة أخرى ، اضافة إلى انتصارهم على منافسيهم البرتغاليين .

ولكن كان على شركة الهند الشرقية أن تدفع مبالغ طائلة لارضاء وتهدئة أسيادها ، فالملك « شارل » وصفيه الأثير لديه « دوق بكنجهام » قاما باستجواب الجهات المسئولة بالشركة عن سبب رفعها للسلاح فى وجه بلد صديق لانجلترا ، وبالرغم من الصراع الطويل الأمد القائم بين جوا وبومباى من أجل فرض السيادة على البر والبحر ، فإن البرتغال قد أصبحت بعد ذلك بقليل تابعة إلى عرش اسبانيا وهى الدولة التى تحتفظ بعلاقة سلام مع انجلترا . وطبقا للسجلات المتعلقة بهذه الصفقات فقد ورد فيها العبارة التالية ، فكلاهما الوزير وسيده الملك « كان يجب ترضيتهما » وهى عبارة جميلة تعبيرية غنية بالمعانى ، لذا فإن الشركة قد تصرفت بحنكة وروية فقامت بدفع « هبة » قدرها ١٠٠٠٠ جنيه استرلينى لكل منهما وذلك من الغنائم والكنوز المسلوبة من جزيرة هرمز . فالاستيلاء على هرمز قد وجه ضربة قاصمة الى قوة البرتغاليين الشديد والصلف ، وفتح باب الملاحة الحرة فى الخليج أمام الانكليز . وقد قام الشاه « عباس الصفوى » بعد انتزاع جزيرة هرمز من أيدى البرتغاليين بإزالة جميع المنشآت الموجودة فى الجزيرة ونقلها إلى مدينة « جومبرون » المجاورة التى اصبحت تسمى بندر عباس !

وقد تضاءلت أهمية وقيمة جزيرة مدينة هرمز وتحولت الآن الى مجرد قرية صغيرة لايزيد عدد سكانها عن ألف نسمة . فهذه الجزيرة التى ذاع صيتها فى الأفاق من قبل وكانت ملتقى للشعوب والأمم فان مساحة محيطها تقدر بحوالى ستة عشر ميلا وعرضها يقدر بأربعة أميال ونصف الميل فقط .

فالجزيرة كما تلوح من فوق ظهر الباخرة تبدو صورتها محيرة للناظر ، فهى كتل من التلال البنية اللون الضارب لونها إلى الحمرة ، ترتفع شامخة إلى أعلى منطلقة من وسط

* تعقيب : استمر الحصار الفارسى الانكليزي لجزيرة هرمز من ٩ فبراير حتى ٢٣ ابريل ١٦٢٢م .

البحر دون أن يبدو فيها للعيان موضعا واحدا صالحا للرسو . فقمم وصخور هذه التلال قد تشكلت نتيجة لحدوث كارثة بركانية هائلة عند نشأة الأرض ، فكل شكل أو قالب قائم فيها يشير نحو الأعلى وذلك أشبه بالأبر العملاقة المنتصبة نحو الفضاء مما يضفى على الجزيرة منظرا شبيها بمظهر ظهر القنفذ الشائك المتحجر ، أو أن هذا البركان قد نسج بابرته من هذه التلال أشكالا محدبة وقمما مسننة ذات الوان رمادية ضاربة إلى الحمرة . وليس بالامكان رؤية شجرة واحدة فى أى مكان من الجزيرة مما يوحى بالغياب الكامل للماء ، كما ليس بالامكان رؤية نسر أو حدأة فى هذا المكان الذى يمكن للمرء أن يتصور إنه يمثل وكرا مثاليا للطيور ، حتى طيور النورس البحرية يبدو أنها تتفادى الاقتراب من هذا الموضع . أنها لصورة موضع موحش مقفر إقفارا تاما ويبدو أن سكون الموت قد أناخ برحله فوق هذا المكان . فالمدينة القديمة قد تضاءل شأنها وتحولت إلى مجرد مدينة صغيرة ليس لها شأن .

وتقع مساكن القلة القليلة من الصيادين البائسين وجامعى القواقع البحرية والتجار الصغار الذين يقطنون الجزيرة فى الجانب الشمالى من الجزيرة حيث يتعذر رؤية هذه المساكن من البحر .

وفى مقابل ذلك تقع اطلال قلعة البرتغاليين وهى القلعة التى سيطروا واستبدوا وتحكموا انطلاقا منها بجميع انحاء الخليج ، وهى القلعة التى تعرضت الى قصف كثيف من مدفعية جنود شركة الهند الشرقية قبل أن تستسلم حاميتها .

ولاتزال بعض المدافع القديمة الصدئة المنهكة الواهنة متروكة هناك تشهد بالسيادة البحرية القديمة للقوة الجبارة التى أسسها « فاسكو دا جاما » فى بحار المحيط الهندى والخليج ، كما تشهد بانهيار وسقوط تلك القوة . فكيف هوى ذلك المارد الجبار ! ويقوم الصيادون الأن باستخدام بعض هذه المدافع القديمة وهى التى سبق لها أن تحدت لفترة طويلة من الزمن قوة فارس واجبرتها على دفع الجزية فقد أصبحت هذه المدافع الأن مطمورة تحت الرمال حيث يستخدمها الصيادون لربط قوارب الصيد التابعة لهم . وقد ورد فى مذكرات « جون كينير » التى نشرت فى حوالى عام ١٨٢٠ م بأن ثلاثة من مدافع جزيرة هرمز قد أمر شاه « عباس » بنقلها من الجزيرة للاحتفاظ بها كتذكار لانتصاراته وهى

موجودة الأن فى قلعة « لار » الموقع الفارسى الحصين القديم باقليم « لورستان » على بعد عدة أميال فى داخل الأراضى الفارسية ، فهذه المدافع تحمل اسم « السيد فيليب الثالث ملك أسبانيا » و « السيد جيروم ازفيدو نائب الملك فى جوا ١٦١٧ » و « السيد خوان كونتينو نائب الملك فى جوا ١٦١٩ » .

ولاتزال قائمة فى الجزيرة بعض الأطلال لاديرة قديمة كانت تمثل فى الماضى مأوى لجالية

من الروم الكاثوليك كانت تعيش فى هرمز . كما يوجد بالجزيرة مئذنة منزوية وهى جزء من مسجد فارسى اندثرت معالمه الأخرى باستثناء مئذنته التى لاتزال قائمة وسبق أن استخدمها البرتغاليون كمنار للملاحة البحرية ، وهى ترمز إلى الوجود القديم للمدينة الثرية المزدهرة والميناء البحرى لجزيرة هرمز التى بلغت شهرة ثروتها وعظمتها الافاق النائية فى الأرض وتغنى بها الشعراء العظام .

ولاتزال بالجزيرة الكثير من الثروات المعدنية القابلة للاستغلال وهى متاحة للمستثمرين ، حيث تنتج الجزيرة بوفرة مادة المغرة الحمراء الثمينة المسماة « جيلك » ، كما تنتج ملح الصخور وخام المانجنيز ومواد معدنية مماثلة أخرى .

وتمتلك الجزيرة محاجرا تستخرج منها أحجار صلبة داكنة صالحة لأغراض البناء ، وهذه الأحجار نادرة الوجود فى أى مكان من سواحل الخليج وبلاد الرافدين . وتشحن هذه الأحجار الآن بكميات كبيرة فى بواخر خاصة حيث ترسل الى عبادان والبصرة والأماكن الأكثر بعدا الواقعة على نهر دجلة وذلك للاستفادة منها كمادة للبناء .

الفصل السابع عشر

الخليج العربى

يشار إلى الخليج العربى دائما بكلمة الخليج وهى الكلمة الشائعة الاستعمال .

وقد اطلق عليه الجغرافى القديم « بطليموس » وصف « خليج أكلة الأسماك » ، وعرفه القدماء عامة باسم البحر الأريترى وهو اسم اطلق أيضا على البحر الأحمر والمحيط الهندى .

وربما أنه يستحق الآن أن يطلق عليه اسم « بحر الشاه » حيث أنه يخضع من أدنى « جاسك » جنوبا حتى أعالى « المحمرة » عند شواطئه الشمالية أى على امتداد مساحة يزيد طولها على سبعمائة ميل تحت ادارة أو سوء ادارة فارس . ويتم الدخول فى الخليج إذا كنت قادما من بومباى بواسطة مضائق هرمز الضيقة الواقعة بين جزيرة « قشم » الطويلة وصخور « سلامة » البارزة أو بين هذه الصخور و « رأس مسندم » . فالرحلة من بومباى إلى البصرة تتم جزئيا فى بحر العرب ولكن الشطر الأكبر منها يتم فى الخليج مما يجعل مسار الباخرة المحملة بالبضائع مسارا متعرجا حيث تقوم الباخرة بزيارة كل ميناء من موانىء الخليج العديدة كل يوم وآخر بالتناوب أو كل يومين أو ثلاثة أيام . فمراكب البريد الانجليزية المسافرة مباشرة إلى البصرة والتى تتوقف فى أبى شهر فقط فإنها تقطع مسارها هذا فى سبعة أو ثمانية أيام .

ورحلتى على ظهر الباخرة « اس . اس . زيانى » قد استغرقت تسعة عشر يوما وهى مدة تعتبر مناسبة ، كما تمثل تقدما ملحوظا فى النقل البحرى حيث اتاحت لنا فرصة مشاهدة جميع الموانىء المطلة على كلتا ضفتى الخليج التى توقفنا فيها ، كما انتظرنا فى بعضها بغرض تلبية طلبات مراكب الصنادل المسطحة القاع المخصصة لتحميل البضائع ، وتعتبر « زيانى » ناقلة بحرية ممتازة حيث تستغرق مراكب الحمولة الأخرى

مدة أطول فى قطع هذا المسار . وتقلع الباخرة من مدينة « بومباى » نحو الغرب متجهة شمالا إلى « مسقط » أو متجهة أحيانا شمالا إلى « كراتشى » .

ومن ثم تتجه مباشرة غربا إلى « مسقط » وقد سلكت باخرتنا تقريبا اتجاه الشمال مباشرة الى « بندر عباس » ومن هناك اتجهت غربا إلى « لنجه » ومن ثم اتجهت جنوبا الى « دبى » ومن ثم اتجهت غربا إلى « البحرين » ومنها اتجهت شمالا الى « أبى شهر » سالكة مسار الشرق . وبعد مغادرة هذا المكان سلكت مسار الغرب متجهة شمالا إلى « الكويت » ثم عادت مرة أخرى متجهة إلى حد ما شرقا حتى اجتازت عائق جرف « البصرة » ومن ثم بعد التوقف فى « المحمرة » اتجهت مباشرة شمالا إلى « البصرة » عبر شط العرب .

والخليج فى الحقيقة والواقع عبارة عن بحيرة ضخمة تحيط بها الشواطىء الرملية أو الشواطىء المغطاة بالصخور ، وتتخللها الممرات الضيقة الشديدة الخطورة والمياه الضحلة ، وتتناثر فيها الجزر العديدة وسلاسل الصخورة البارزة فوق سطح البحر الواقعة فى وسط المياه أو المحاذية لليابسة مما يجعل الملاحة فيها صعبة للغاية أن لم تك خطرة . وتياراته أيضا متقلبة وغادرة حيث يتوجب على ربان السفينة أن يبقى دائما فى حالة شديدة من الاحتراس واليقظة التامة كما كان عليه حال الربابنة فى عصور ماقبل الميلاد . وقد أرتاد مياه الخليج بادىء ذى بدء للابحار فيه « الفينيقيون » الذين اشتهروا بكونهم مغامرون فى اقتحام البحار وركوب غياهب المجهول ، وهم جنس من البشر يروى بأن مهد حضارته الأسطورية قد أنبثق فى جزر البحرين أو ماحولها . فالقائد البحرى الذائع الصيت « نيارخوس » . قائد أسطول الأسكندر الأكبر المقدونى كان أول أوروبى حقيقى يبحر على طول امتداد هذا البحر المغلق ، وقد انطلق بالأسطول المقدونى من مصبات نهر السند ووصل إلى « بابل » أو « سوسة » عن طريق الشط ونهر كارون حتى وصل إلى « الاهواز » بعد أن واجه مصادفات عجيبة وصعوبات جسيمة .

والأوروبى الكبير الثانى الذى أعاد فتح بوابة الخليج للتجارة الغربية هو « الفونسو دى البوكيرك » البرتغالى الذى لاتزال تعتبر أفعاله الجريئة والمستبدة وقساوته الفظة فى هذه الانحاء مصدرا لنسج العديد من الأساطير والقصص .

فالبرتغاليون تحت قيادة هذا المؤسس الكبير للامبراطورية وبعد أن وطدوا اقدامهم فى مسقط وهرمز والبحرين ولنجه قاموا عمليا بإخضاع الخليج تحت سيطرتهم .

وقد كتب تاجر المجوهرات الفرنسى « جين شاردان » فى مصنفه الممتع « رحلاتى فى فارس والهند الشرقية » مشيرا إلى « أن البرتغاليين يمسكون بزمام السيادة على الخلجان العربية والفارسية إلى درجة أنهم يفرضون رسوما للعبور حتى على أصغر المراكب . وهم

يرفضون السماح بانتقال البضائع الفارسية إلى الهند ومنها الا على ظهر المراكب البرتغالية أو وفقا لتصريح خاص يمنح فى حالات نادرة جدا طبقا لشروط متشددة للغاية . وإذا جاء إليهم تاجر فارسى يتوسل فى الحصول على تصريح له فإنهم يطرحون عليه هذا السؤال : « هل ترغب فى الذهاب إلى الهند من أجل الشراء أو البيع ؟»

فإذا كان الجواب للشراء فإن مخازننا مليئة باصناف وأنواع البضائع فبإمكانك أن تشترى منها ماترغب فيه . وإذا كان الجواب للبيع فنحن على أتم الاستعداد لشراء بضائعك . فلاحاجة لك فى الذهاب إلى الهند . وإذا كان لزاما عليك فى كل ظرف بأن تتوجه إلى الهند فيتوجب عليك بأن تدفع لنا مبلغا كبيرا من المال كرسوم للجمارك ومبلغا كبيرا آخر من المال نظير الشحن والحمولة ومن ثم بإمكانك مواصلة سفرك » .

فهذا الطغيان الذى مارسه البرتغاليون فى غطرسة وكبرياء حينما كانوا فى أوج قوتهم قد أدى إلى زوال امبراطوريتهم وأدبار نفوذهم . « **فالكبرياء يأتى قبل الدمار والنزعة المتعجرفة تسبق السقوط** » . وعندما أصبحت البرتغال فيما بعد تحت الحكم الأسبانى فإن ممتلكاتها الهندية قد عانت من الاهمال .

وافواج الرجال المحاربين قد زج بها فى فلاندريا * وفى هولندا وذلك للقتال من أجل نصرة الكنيسة الكاثوليكية هناك عوضا عن إرسالها إلى الهند مما أدى إلى تدهور القوة البرتغالية . وقد تنبهت فارس ورؤساء القبائل العرب عاجلا إلى هذه الحقيقة فرفعوا رءوسهم وأستخفوا بدعاوى وأحكام البرتغاليين ، وجاء الانجليز والفرنسيون والهولنديون بدورهم يتزاحمون على الظهور واصبحوا أكثر جرأة وجسارة وشهد الخليج صراعات عديدة بين هذه الدول الأوروبية من أجل فرض السيادة التجارية عليه ، وقد بلغت هذه الصراعات ذروتها عندما قام الانجليز ــ كما سبق وأن ذكرت ذلك ــ ضمن القسمة التى عقدوها مع شاه « عباس الصفوى » وفيما بينهم بطرد أسياد « جوا » الذين تضاءلت قوتهم وازاحوهم من مواقعهم الحصينة فى هرمز والبحرين ومن ثم أخرجوهم نهائيا من كلتا ضفتى الخليج .

ثم كسب الانجليز الجولة الجديدة فى الصراع من أجل السيادة على الخليج وازاحوا من طريقهم منافسيهم الهولنديين والفرنسيين وعززوا موقفهم بالتنازلات الثمينة التى حصلوا عليها من شاه « عباس » وبهذا تمتع الانجليز بموقع حصين لاينال فى الخليج وأحكموا سيطرتهم عليه عبر اساطيلهم التى تجوب مياهه واصبحوا أسياد الخليج دون منازع .

وقد كان الخليج لقرون عديدة مليئا بالقراصنة المتجاسرين ، وقد طغى هؤلاء فى الخليج وعاثوا فيه نهبا وفسادا : « **فهم أسياد عالمهم وأرباب البحار الواسعة** » .

---

* تعقيب : تقع فلاندريا حاليا ضمن أراضى بلجيكا .

وبسبب إفلات هؤلاء القراصنةمن العقوبة الرادعة والاجراءات التأديبية فقد بلغ هؤلاء مرتبة لم يعد يعتريهم عندها خوف أو رهبة من جراء مايرتكبونه من انتهاكات وأسلاب .

فالقرصنة هى عملهم المفضل ومهنتهم التى يحترفونها . وقد اتخذ هؤلاء القراصنة من الشواطىء الغربية للخليج وبالذات من الرعن الجبلى العمانى الممتد فى البحر مأوى حصينا لهم ينطلقون منه لممارسة قرصنتهم البحرية وهى الشواطىء التى شاع تسميتها لفترة طويلة على سبيل التشاؤم « بساحل القراصنة » . وقد قام الأتراك بعد أن بسطوا سيطرتهم على بلاد العرب ووطدوا أقدامهم فى البصرة بإرسال اسطولهم البحرى إلى الخليج وبذلوا بعض المحاولات بصورة متقطعة ترمى إلى القضاء على لصوص البحر وأعمال السلب والنهب التى يمارسونها ، إلا أن هؤلاء القوم قد تحدوا كل المحاولات الرامية إلى القضاء على قرصنتهم واستمروا على هذا المنوال حتى ظهرت البوارج الحربية البريطانية على مسرح الخليج واضعة نهاية لبلاء القرصنة الذى استشرى فى هذه المنطقة . فهؤلاء القراصنة الخطرون الذين أطلق عليهم « شايلوك » اسم « جرذان البحر » قد ملأوا الخليج رعبا وفزعا ردحا طويلا من الزمن فلم يعد لهم فيه وجود الأن ، فجميع القاطنين على سواحله من عرب وفرس ، وجميع المسافرين المبحرين فى مياهه يثنون ويباركون الجهد الذى بذلته الحكومة البريطانية حتى استتب الأمن التام والشامل الذى ينعمون به الأن .

أما تجارة الرقيق التى كانت رائجة فى مياه الخليج وعلى امتداد الشواطىء العربية فقد شهدت خاتمة مماثلة وذلك بعد أن جرت العديد من المصادمات العنيفة بين البحارة البريطانيين وتجار الرقيق المحليين الذين كانوا يتلقون التأييد والدعم من الشيوخ الأقوياء والضعفاء على السواء .

كذلك الحال مع عمليات تهريب السلاح التى تجد لها مرتعا خصبا فى هذه الأنحاء وتمثل عملا تجاريا مربحا ، وبالرغم من الصعوبات التى برزت مع الفرنسيين والدول الأوروبية الأخرى . وكذلك مع الكثير من الشخصيات المحلية ذات النفوذ ، حيث أن هؤلاء جميعا كانوا يتشاركون فى الأرباح الطائلة التى تدرها عليهم عمليات تهريب الأسلحة والذخائر فقد طويت صفحة هذه العمليات نهائيا وأصبحت فى حكم الماضى وذلك يعود إلى تصميم وعزيمة الحكومة البريطانية وعينها الساهرة على الأمن والنظام .

ولبريطانيا الأن اليد الطولى فى جميع أنحاء الخليج حيث تجوب كل بقعة فيه دورية بحرية بريطانية عبارة عن كوكبة من قطع الأسطول البحرى البريطانى . فهذا الممر المائى الحيوى الواقع بين تركيا الأسيوية وفارس من جهة والهند من جهة أخرى يخضع الأن بالكامل تحت السيطرة البريطانية .

فالخليج يعيش الأن تحت ظل السلم البريطانى أو الهيمنة البريطانية ، فحرية الملاحة

فى هذا الممر التجارى الهام وجعله بمنأى عن كل التدخلات الأجنبية والمعادية تعتبر مسألة ذات حيوية عظيمة بالنسبة للتجارة الهندية ، كما لايجب اطلاقا أن يكون أمن الخليج عرضة للمخاطر والمجازفات أو التفريط فيه .

وقد كان للاتراك اسطول فى مياه الخليج وكان العثمانيون مغرمون كثيرا بالتفاخر بأنفسهم والتباهى بها لذا فقد كانوا يطلقون على باشا بغداد لقب « قبطان باشا » .

ويتعذر الان رؤية بارجة حربية تركية واحدة حتى ولو ابدينا الرغبة فى رؤيتها فإن ذلك متعذرا . كذلك القوة البحرية لفارس التى كانت تفرض سيطرتها وسيادتها فوق هذه المياه خلال العهد الزاهر « لشاه عباس الكبير » لم يعد لها من وجود فى هذه المياه سوى طراد صغير منعزل ضئيل الشأن يسمى « برسبوليس » أهداه القيصر « وليام الثانى » لشاه فارس ، وهو يتخذ من المرفأ الداخلى لأبى شهر قاعدة ينطلق منها ويعود منزويا إليها .

وتزخر مياه الخليج بأصناف عديدة من الأسماك حيث تتوافر فيه منها كميات وافرة من كل نوع وصنف ، وتباع هذه الأصناف بأسعار رخيصة . ويمثل السمك أحدى المواد الرئيسية لغذاء السكان القاطنين على كلتا ضفتى الخليج ، ونتيجة لذلك عرفهم القدماء باسم أكلة الأسماك . وقد استمتعنا بأكل الأسماك الطازجة بمعدل يومى تقريبا طيلة مدة الرحلة التى امضيتها فى الخليج وذلك فى كل الموانىء التى حللنا فيها واحدا بعد آخر . وأنواع الأسماك عديدة منها الطازجة ومنها المملحة ومنها المقددة وفق طرق متعددة ، وجميعها سلع تجارية هامة ذات قيمة ثمينة .

أما المصدر الرئيسى الأخر للرزق والثروة الذى لايزال يعتبر أهم المصادر الاقتصادية بالنسبة للسكان القاطنين على امتداد سواحل الخليج سواء كانوا من الشيوخ الأقوياء أو التجار الأثرياء أو فئة الصيادين الفقراء أو البحارة أو الغواصين فهو مصائد اللؤلؤ النفيس ومغاصاته المحاذية للشواطىء الجنوبية للخليج الممتدة من البحرين غربا حتى دبى شرقا .

وهناك بعض مغاصات اللؤلؤ الواقعة فى بحار مسقط وسوقطرة وسيلان وبحار أخرى من بقاع العالم إلا أنه ليس بالأمكان مقارنة أيا من هذه المغاصات من حيث الاتساع والأهمية مع مغاصات اللؤلؤ المنتشرة فى الخليج . ويتمتع لؤلؤ الخليج منذ القدم بالشهرة الواسعة والصيت الذائع ، وهو موضع اطراء واعجاب الناس بسبب جماله الفاتن وحجمه الكبير وبياضه الناصع ونقاوته الصافية . فمصائد أو مغاصات اللؤلؤ الثمين التى تعتبر مصدرا لأنتاج أهم سلعة للتجارة فى الخليج فإنها توفر إلى جانب تلك العوائد الكبيرة التى تذرها على الحكومات القائمة على امتداد شواطىء الخليج فرص طيبة للعمل النافع والمربح لأعداد كبيرة من الناس فى الخليج ، فهناك أساطيل ضخمة من المراكب التى يزاول الرجال القائمون فيها مهنة الغوص على اللؤلؤ فى هذه المغاصات سواء كان هؤلاء الرجال مالكى

هذه المراكب أو شركاء فى هذه المهنة أو غواصين أو بحارة فإنهم يكسبون معيشتهم ورزقهم من هذه المغاصات أو المصائد . ويعتبر اسطول مراكب الغوص التابع لجزر البحرين أكبر هذه الأساطيل وأهمها ، كما تعتبر عاصمتها مدينة المنامة ومرفأها المسقوف من أكبر مراكز وأسواق تجارة اللؤلؤ فى العالم . ويتم سنويا اصطياد وبيع لؤلؤ فى الخليج تقدر قيمته بآلاف الجنيهات الاسترلينية ، كذلك تنال أصداف اللؤلؤ اللامعة البراقة المستخرجة بكميات كبيرة من هذه المغاصات اقبالا كبيرا فى الأسواق الخارجية المنتشرة فى جميع أنحاء العالم . أن مجىء البرتغاليين إلى هذه المنطقة قد أعطى زخما ودفعة قوية لتجارة اللؤلؤ فى الخليج ، فكلمة « الچو » المستخدمة فى جميع البلدان المطلة على الخليج كمعيار لوزن اللؤلؤ أطلقها البرتغاليون فى الأصل على أحد أوزان اللؤلؤ ولاتزال تستخدم حتى الآن بحيث أصبحت تذكار تاريخى لمعاملاتهم التجارية السابقة .

وتعتبر مغاصات اللؤلؤ القريبة من جزر البحرين أغنى وأهم المغاصات فى الخليج ، حيث يمتاز اللؤلؤ المستخرج من مغاصات البحرين بجودته العالية .

وقد أشار القائد البرتغالى « البوكيرك » إلى البحرين بأنها شهيرة بلؤلؤها الناعم النقى ، وجاء فى أحدى كتاباته بأنه « ترسل حبيبات اللؤلؤ واللآلىء الكبيرة من هناك إلى اقاليم البرتغال على اعتبار أنها تمتاز عن غيرها من اللآلىء المستخرجة من هذه الانحاء بالجودة والصلابة »

ويبدأ موسم الغوص على اللؤلؤ من بداية شهر أبريل حتى نهاية شهر أكتوبر من كل عام ، ويقسم هذا الموسم الى ثلاثة فصول وهى الربيع والصيف والخريف حيث تمارس عمليات الغوص على اللؤلؤ فى المغاصات الواقعة بالمياه الضحلة خلال الفصلين الأول والثالث ، أما عمليات الغوص فى المغاصات الواقعة بالمياه العميقة فتمارس خلال الفصل الثانى . ويوجد فى المغاصات القريبة من شواطىء البحرين وحدها أسطول يقدر بأكثر من ثلاثة آلاف سفينة تزاول طواقمها صناعة الغوص على اللؤلؤ وتكسب معيشتها من هذه المهنة المربحة . أما الزنوج الذين ينحدرون أصلا من الرقيق القادم من أفريقيا وهم فئة من الغواصين يتميزون بالخبرة العملية والمراس الشديد حيث يمكثون عادة تحت الماء لمدة دقيقتين كاملتين فإنهم يحصلون على أجور مجزية وينالون الرعاية والاهتمام .

ويتزود الغواص عادة بانشوطة من الحبال وبمادة ثقيلة هى عبارة عن حجر تساعده على الغطس فى عمق البحر بخفة وهدوء ، كما يضع على أنفه مشبكا من العظام ، ويقوم بطلاء اذنيه بالزيوت أو الشحوم ، فهذه الطريقة البدائية البسيطة المستخدمة فى صيد اصداف اللؤلؤ لاتزال متبعة حتى الآن . فهؤلاء الناس مرتبطون بشدة بعاداتهم القديمة ومتمسكون بممارساتهم المألوفة ، بالرغم من أن استخدام أجهزة متطورة ومناسبة للغوص يمكن أن يزيد من الحصيلة السنوية لصيد هذه الأصداف الثمينة التى - ء فر

أجود وأنفس أنواعها فى المغاصات الواقعة بالمياه العميقة . وقد جاء فى قصيدة للشاعر الانجليزى « ماثيو آرنولد » * :

« الغواص المخضل يغطس طوال اليوم فى الأمواج الزرقاء وزوجته الشاحبة تنتظر وتبكى على الشاطىء قرب البحرين الرملية فى الخليج » .

وقد وصف رحالة قديم عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى مشاهداته لعملية الغوص على اللؤلؤ أثناء طوافه بهذه الانحاء قائلا . « وهم يلقون إلى القاع حبلا يتدلى منه حجر . وفى وسط المركب يقف أحد الغواصين يضع حول عنقه كيسين ويربط فى قدمه حجرا كبيرا ، ويهبط خمسة عشرا باعا تحت الماء ويبقى هناك حتى يضيق نفسه ، فيجمع الأصداف ويضعها فى الكيسين ويتخلص من الحجر المربوط فى قدميه ويصعد إلى سطح البحر بواسطة أحد الحبلين » .

ويباع اللؤلؤ فى هذه الأماكن بالجملة فى معظم الأحيان ، ومن النادر جدا أن يباع اللؤلؤ الجيد أو بعض اللآلىء بالتجزئة فى البحرين .

وقد قيل لى أنه كثيرا مايباع اللؤلؤ الزائف الفرنسى الصنع للمسافر الغافل الذى تنقصه البصيرة والخبرة ، لذا فإنه من الأسلم والأضمن شراء اللؤلؤ فقط عن طريق تاجر مرموق موثوق جرت التوصية عليه من العارفين .

ويعتبر الخليج بمغاصاته الواسعة المليئة باللآلىء النفيسة منجما زاخرا بالثروة تستفيد منه جميع فئات الناس القاطنة حول شواطئه ، وتعتبر هذه الثروة الدفينة فى قاع الخليج تعويضا عن الجدب العام الذى تعانى منه أراضى المنطقة الداخلية الواقعة خلف السواحل والمطوقة من كل جانب برمال الصحراء القاحلة . فالسكان العرب القاطنين فى هذه الأنحاء غالبا مايرددون هذه المقولة « **نحن جميعا بمختلف درجاتنا أرقاء نتبع سيدا واحدا وهو اللؤلؤ** » .

وتقدر القيمة السنوية لمحصول اللؤلؤ فى الخليج بقرابة مليون جنيه استرليني .

وتمثل الأسماك واللؤلؤ والتمور والصوف والصمغ والخيول الصادرات الرئيسية فى تجارة الخليج ، أما الاستيرادات من الخارج فهى عديدة ومتنوعة حيث تجلب الى موانىء الخليج البضائع بشتى أنواعها وأصنافها من الهند واليابان والصين وشبه الجزيرة العربية وأفريقيا ومن اجزاء أخرى من العالم

وتنقل هذه التجارة الواسعة فى المقام الأول ، بواسطة السفن الأجنبية كالبواخر العديدة التى تعمل ضمن خطوط مواصلات بحرية منتظمة وتتبع شركة الهند البريطانية للملاحة وشركة الخليج للملاحة وشركات ملاحية أخرى . كما أصبح لمراكب الشحن اليابانية خطوط ملاحية فى الخليج ، وكثيرا ماتشاهد المراكب اليابانية وهى تـ ب مياهه ، فاليابان

---

* تعقيب : شاعر وناقد انكليزى (١٨٢٢ ـ ١٨٨٨م)

منافس تجارى طموح ومتصيد للفرص .

أما التجارة الساحلية فى الخليج فإنها لاتزال تنقل بواسطة العديد من المراكب الصغيرة القوية المصنعة محليا . وهى مراكب ذات هياكل ضخمة ثقيلة تتكدس فيها أكوام من قطع الألواح الخشبية ولكنها مصممة بطريقة ملائمة لوسائل واحتياجات الأرض والناس فى هذه الأنحاء .

وبالرغم من أن معظم هذه المراكب التى يراها المرء فى مرافىء الخليج أو يشاهدها فوق مياهه تبدو بدائية من حيث الشكل والبناء والصوارى والأشرعة والمجاذيف إلا أنها صالحة تماما للابحار ونافعة لأداء المهام المخصصة لها ، مع الأخذ بعين الاعتبار قول المستكشف الجغرافى البريطانى « فرانكلن » :

« للسفن الضخمة أن تغامر أكثر ولكن ليس بوسع القوارب الصغيرة إلا البقاء قرب الشاطىء »

وأتصور ــ ولا أظن بأننى سأكون مخطئا كثيرا فى هذا التصور ــ بأن هذه المراكب هى من حيث الصنع والتصميم مماثلة لتلك المراكب التى سبق وأن استخدمت فى نقل مواد البناء لمعبد سليمان فى ذلك الزمن البعيد الممعن فى القدم ، فهذه المراكب مصنوعة من اخشاب صلبة ذات جودة عالية ، صقيلة ، وتتميز بمقدمة طويلة بارزة وعرض فسيح ، كما يتميز القسم الخلفى منها بالارتفاع . أما التصميم الداخلى للمركب وهو القسم المخصص للنوم والطبخ وبيت الخلاء الخ فيتميز بالخشونة والبساطة وبالرخص فى التكلفة سواء كان هذا التصميم يتعلق بمراكب « البتيل » أو « البغلة » أو « الدهو » أو « المشيلة » ، فجميع هذه المراكب بدائية الصنع وتتشابه فى الشكل والتصميم .

وقد احتل الانجليز باعتزاز وفخر مركز الصدارة فى مجال الملاحة البحرية ، فهم طليعة البحارة فى العالم ويليهم الهولنديون الذين يحتلون المركز الثانى فقط فى هذا المجال ، أما الأخرون فليس لهم مكانة فى هذا المجال الصعب .

إلا أن هذا الشىء لاينطبق بالتأكيد على عرب الخليج المتمرسون فى صناعة البحر .

وبالرغم من التحريم الاسلامى القائل « من نزل البحر مرتين فقد كفر » إلا أن المكاسب الكبيرة التى تذرها التجارة قد أغرت العرب القاطنين بجوار البحر على مواجهة الصعاب وركوب المخاطر والمجازفات فتحولوا بذلك الى بحارة مغامرين جديرين بالثقة ويتمتعون بمهارة عالية وبالذات بحارة البحرين والكويت الذين برزوا ، اكتسبوا شهرة كبيرة فى مجال الملاحة البحرية .

فالبحارة العرب الذين ابحروا فى كل الأزمنة ولايزالون يبحرون على متن هذه السفن التى

* لم نعرف من أى مصدر أتى المؤلف بهذا التحريم !

وصفتها أعلاه فإنهم يستحقون عن جدارة السمعة الملاحية التي يتمتعون بها الآن باعتبارهم بحارة جسورين بارعين أعتادوا على اقتحام المخاطر البحرية المتكررة ، وأتوقع أنه عندما تعترضهم واحدة من تلك الزوابع الهوجاء المألوفة في الخليج فإنهم يتخطونها ويتجاوزونها أو يتعاملون معها بذلك الهدوء المتميز ورباطة الجأش أو عدم المبالاة التي تجد أصدق تعبيرا لها في تصرفهم المعتاد المتمثل بالقبول بالقضاء والقدر .

وعلى متن هذه المراكب البدائية ذات المظهر الخشن كانت تنقل منذ الأزمنة البعيدة ولا تزال تنقلُ على متنها حتى الآن معظم التجارة الساحلية وذلك على طول المسافة الممتدة من البصرة شمالا نزولا إلى شواطىء عمان حيث تصل هذه المراكب إلى موانىء مسقط والمكلا وعدن وسوقطرة وحتى أبعد من ذلك جنوبا إلى زنجبار من جهة ، كما تصل من جهة أخرى إلى موانىء كراتشي وكاتياوار* وحتى إلى بومباى .

كما ان الاتصال القديم المبكر بين المراكب الساحلية العربية وبين بومباى قد تم عبر الجزيرة التى كانت تسمى سابقا بجزيرة « العمان » والتى اتخذ منها الجنود البريطانيون مقرا لهم فى « كولابا » وأطلقوا عليها أسم « جزيرة المرأة » .

وفى الزمن الغابر وعبر عصور تاريخية طويلة قام هؤلاء البحارة العرب بمراكبهم القديمة هذه بالدوران حول رأس «قومرين»** واسسوا فى جزيرة جاوا البعيدة مملكة كبيرة ، ومنها قاموا بنشر الدين الاسلامى فى أرخبيل جزر الهند الشرقية ، وقد احتكروا تجارة التوابل الرائجة لمدة تقارب اربعمائة عام متواصلة متخذين من البصرة مركزا تجاريا لتزويد أوروبا بالكثير من المنتجات الثمينة القادمة من جزر التوابل ، واستمروا على هذه الحال حتى أقصاهم من مدينة جاكرتا القديمة « هرر » الشهير بالجشع والبخل وبسياسته الثابتة القائلة « اعط أقل القليل وطالب بأكثر الكثير » .

* تعقيب شبه جزيرة فى الهند تقع فى الزاوية الشمالية للساحل الغربى الهندى وتطل على بحر العرب .
* تعقيب : الرأس الجنوبى لشبه جزيرة الهند الممتد فى المحيط الهندى .

الفصل الثامن عشر

لنجه أو لنجا

وبعد أن ساد السكون وهدأت العاصفة الهوجاء التى ذكرتها سابقا ، اقلعت باخرتنا « زيانى » من بندر عباس فى حوالى الساعة العاشرة مساء ، وقد قضى قبطان باخرتنا ربع ساعة شاقة ومضنية وهو يحاول التخلص من المركب الضخم الذى غرق الى جوار باخرتنا أثناء هبوب العاصفة ، إذ أن النصف العلوى من الصارية الثقيلة للمركب لايزال ظاهرا فوق سطح البحر ، حيث تتأرجح وتتمايل هذه الصارية يمنة ويسرى وتهتز فى كل اتجاه وصوب وذلك نتيجة لحركة البحر الذى لايزال هائجا . ولم يكن من المستبعد أن تتشابك حبال أشرعة وصوارى هذا المركب الغارق مع بعض آلات باخرتنا وبالأخص مع الرفاص مما سيعيق دون شك حركة الباخرة واقلاعها . وقد تمكنا على أية حال من الابتعاد عن حطام المركب الغارق ودخلنا الخليج بسلام بعد ذلك بقليل حيث عبرنا المضيق الواقع بين جزيرة « قشم » وصخور « سلامة » مرورا بجزيرة « هنجام » الصغيرة الواقعة فى منتصف الطريق إلى الجنوب من جزيرة « قشم » .

وتتوقف جميع مراكب البريد المبحرة بين « بومباى » و« البصرة » عادة فى جزيرة « هنجام » وذلك لشحن أو تفريغ الطرود البريدية من والى بندر عباس ولنجه ودبى ، وهى الأماكن التى لاتتوقف فيها عادة بواخر البريد .

وتتمتع جزيرة « هنجام » بموقع ممتاز حيث تقع فى المنفذ الضيق للخليج ، ولو أن هذا الموقع الحساس خاضع لسيطرة البريطانيين لتحولت هذه الجزيرة الى جزيرة « بريم » ثانية * حيث يتمكنون بواسطتها من اغلاق المضيق أمام جميع السفن المعادية الداخلة أو الخارجة من الخليج .

* تعقيب : تقع جزيرة « بريم » فى وسط مضيق باب المندب المنفذ الجنوبى للبحر الاحمر .

وبتاريخ ١٣ ديسمبر ، وبعد شروق الشمس بقليل رست باخرتنا فى مرفأ لنجه ، وهــى بقعة حسنة الموقع محصورة بين « رأس بستانة » الممتد فى البحر وبين نهــاية الــطرف الغربى لجزيرة « قشم » أو الجزيرة الطويلة . ومن خلال ذلك البناء المرتفع ذو الــطابع المميز المثير للدهشة والاستغراب والذى هو عبارة عن برج عال يســمى « بــادجير » أو صائد النسيم أو قانص الهواء تبدو الصفوف الطويلة للبيوت البيضاء فى مدينة لنجه أكثــر وضوحا . فهذه المدينة الصغيرة الجميلة تمثل الميناء البحــرى لأقليــم « لــورستان » الفارسى الجنوبى الواسع .

وإلى الخلف من المدينة ترتفع شامخة إلى عنان السماء قمة جبل لنجــه التــى يصــل ارتفاعها إلى ٣٠٠٠ قدم حيث أن هذه القمة بالاضافة إلى سلسلة جبال « شراك » الواقعة فى الجانب الغربى من المدينة وكذلك البحر الأزرق الصافى الواقع قبالة المدينة تضفى جميعها على هذا الموقع منظرا فاتنا خلابا فى غاية الروعة والبهاء . ولقد كان هذا الميناء الــرائع فى أيدى العرب حتى عام ١٨٩٨ م ومنذ هذا التاريخ تحول إلى ميناء فارسى بقوة السلاح .

وبعد أن أمضينا ليلة تميزت برداءة الأحوال الجوية حيث كان الطقس فيهــا عــاصفا ماطرا انبلج عند وصولنا الى مرفأ لنجه فجر يوم صحو ممتع يهب فيه النسيم البارد المنعش العليل ، أما البحر فلايزال متقلبا مضطربا أحيانا إلى حد ما حيث تتكسر على صفحة مياهه أشعة الشمس الذهبية فتبدو مياهه متلألئة لامعة براقة ، لذا فقد بدت لنا مدينة لنجه جذابة مغرية ، وبمجرد أن صعد العمال على ظهر الباخرة بهيئتهم المماثلة لمنظر الصعاليك ذوى الثياب الرثة ، وبدأوا العمل فى تفريغ الحمولة توجهت مع قبطان الباخرة برفقة « الــدكتور جونستون » المسئول الصحى فى الميناء إلى الشاطىء ، وامضينا يوما كاملا فى التجول على الأقدام فى داخل هذه المدينة الصغيرة المدهشة . وكان رسونا قبالة قصر الحاكم العام فى المدينة ، وهو مبنى متواضع خال من مظاهر الفخامة والأبهة ومتهالك البنــاء ، تتســكع أمامه ثلة من حرس الجمارك ، كما يوجد أمامه عسكرى فارسى يرتدى ثيابا رثــة ، رديئــة الهندام ، ممزقة عند الكوع ، ويقوم بتدريب حفنة من المتهمين البائسين على اطلاق مدفع هاون حيث يقومون باطلاق المدفع بطريقة بدائية ولكنها متروية .

وقد توجهنا أولا إلى القنصلية البريطانية للسلام على القنصــل البــريطانى ، فهــذه القنصلية عبارة عن مبنى رحب واسع مناسب ذو سطح منبسط كما هو حال جميع المساكن الفارسية .

وقد استقبلنا القنصل البريطانى السيد « مونجافان » بتــرحاب ولــطف بــالغين ، وأعطانى كتابا مسليا مليئا بالرسومات الأنجلو ــ هندية . وبعد أن أنجز القبطان العمــل الذى جاء من أجله قمنا بتوديع القنصل البريطاني وتوجهنا مع الطبيب ومرافقنا السياحى

الفصل التاسع عشر

الأسواق فى الخليج

هذه هى المرة الأولى التى أشاهد فيها سوقا فارسية أو عربية من الداخل ، فزيارة السوق الشرقية الذائعة الصيت تعتبر جزءا اساسيا فى برنامج عمل كل مسافر ، ولاغنى لمترحل عن زيارة مثل هذه السوق والاطلاع على معالمها . فمعظم المسافرين الذين زاروا أسواق فارس وسوريا وشبه الجزيرة العربية لم يكفوا عن أطرائها والاشادة بها أو حتى التبرم منها وذلك طبقا لحالة السوق ذاتها .

ومنذ هذه المشاهدة الأولى زرت أسواق عديدة أخرى ولقد ادهشنى مما رأيت وقرأت عن هذه الأسواق بأن جميع هذه الأسواق الأسيوية أو المجمعات التجارية قد شيدت طبقا لنفس التخطيط والنمط ، وصممتِ وفقا لنفس المواصفات الهندسية وذلك فى جميع الأسواق القائمة من دمشق إلى طهران ومن تبريز الى مسقط . أنه استنتاج عام تم التوصل إليه من خلال نموذج واحد .

كما أن بعض هذه الأسواق سواء كانت كبيرة أو صغيرة فى مساحتها قد شيدت بصورة أفضل من بقية الأسواق الأخرى ، وجميعها نافعة وملائمة وتفى بأغراض واحتياجات الناس ، كماتتشابه جميعها فى كونها قاتمة وقذرة إلا أن بعضا منها يتميز عن البعض الأخر بالتفوق فى هاتين الصفتين .

ويقوم تخطيط هذه الأسواق على أساس طريقة المتاهة ، وهى شبكة معقدة من المتاهات ممثلة بالأزقة والممرات والمعابر المسقوفة المتداخلة زواياها الواحدة مع الأخرى والمتفرعة زواياها كل واحدة من الأخرى مما يجعل شكلها الهندسى شبيها بالمتاهة المعقدة أو شبيها بسرداب الموتى الرومانى . وليس من المستغرب أن يتيه الزائر الغريب الغافل بسرعة فى وسط هذه المتاهة من المعابر والأورقة المتشابكة مالم يرشده الى الطريق شخص

لديه معرفة بهذا المكان وملم بدروبه ومسالكه .

وتعتبر السوق القائمة فى مدينة لنجه واحدة من أفضل الأسواق التى شاهدتها ، ومساحتها ليست كبيرة مثل مساحة أسواق بوشهر والبحرين والكويت أو البصرة ولكنها واسعة بصورة كافية ، ومتراصة ومدمجة ضمن شبكة من الطرق والمسالك المقوسة ، وتصطف على كلا الجانبين المتاجر أو المخازن حيث تعرض فيها البضائع والسلع بأصنافها المختلفة وأنواعها المتعددة من السجاد العجمى الثمين القادم من تبريز أو كرمنشاه إلى المراوح اليابانية الصنع أو فرشاة الأسنان الرخيصة الثمن . وتتصدر واجهة كل واحد من هذه المتاجر أو الدكاكين دكة أمامية أو عتبة عريضة يجلس عليها كل من التاجر والزبون القرفصاء وذلك للمناقشة والمساومة حول الأسعار .

أما داخل الدكان حيث توضع وتخزن البضاعة فيبدو معتما وقاتما ، وتجلب السلع عادة من الداخل تدريجيا واحدة بعد أخرى وتعرض على المشترك فى خارج الدكان .

وقد بدأ « الدكتور جنستون »كمن يعيش فى موطنه ، ففى كل مكان ذهبنا اليه فى هذه المدينة كان الناس يحيونه بلطف واحترام ، فهو شخصية مقبولة لدى الجميع .

وبحكم كونه خبيرا فى السجاد فقد قادنا الى العديد من المتاجر المتخصصة فى بيع السجاد والتى تتمتع بسمعة تجارية طيبة ، وقد عرضت علينا بعض القطع الجميلة للسجاد ولكن أسعارها لم تك عرضة للنقاش وذلك بسبب الارتفاع الكبير الحالى فى قيمة « القران » الفارسى وهو عملة النقد المحلى ، لذا فان الفرصة لم تك مواتية لنا لاجراء مساومة حول تخفيض هذه الأسعار بالرغم من المحاولات العديدة التى بذلناها فى هذا الشأن . وقد كان البائعون فى غاية التأدب حيث بسطوا أمامنا سجادة بعد أخرى لكى نرى أو نختار من هذه القطع مايعجبنا ، فمنها السجاد الثمين ، ومنها السجاد الجميل ، ومنها السجاد الردىء الصنع ، وبالرغم من معرفتهم المسبقة بأن أسعارها غير مناسبة لنا على الاطلاق إلا أنهم قد عرضوا علينا جميع هذه القطع لكى لايخيبوا ظننا . ومما لاشك فيه أن الحرب الدائرة رحاها هذه الأيام * قد عادت عليهم بفوائد جمة إذ أن التوقف التام فى حركة انتقال القوافل من داخل البلاد قد أعطت البائع فرصة للتحكم فى السعر مثلما يشاء ، وأن يملى شروطه عند بيع البضائع التى فى حوزته .

وإلى جانب المتاجر الخاصة بالسلع التجارية توجد بالسوق أيضا بعض الأقسام المخصصة للجزارين وباعة الدواجن ، وأقسام أخرى للصناع المهرة ذوى الحرف اليدوية المختلفة كالنجارين والحدادين وصاغة الفضة والنحاسين وصانعى الأسلحة وصناع الأحذية والاسكافيين وباعة التبغ والخياطين وصانعى الطاقيات والقلانس الرجالية وغيرهم من أصحاب الحرف والمهن . كما تنتشر فى جميع الزوايا المناسبة من السوق

* عام ١٩١٦

المطاعم الصغيرة ودكاكين الحلوى واكشاك الخضروات والفواكه والعديد من المخابز ذات الأفران البخارية والمقاهى .

كما تتوفر في جميع الأوقات أصناف المربى وأطباق الأطعمة الجاهزة الحارة أو الباردة والخبز والبسكويت والشربات والقهوة والمشروبات بمختلف أنواعها حيث بإمكان المرء أن يستمتع بهذه المأكولات والمشروبات وأن يشبع رغباته منها وقتما يشاء ، أو أنها تفى بالمطالب والاحتياجات المحلية بما توفره من أرضاء وأشباع لرغبات العامة . وقد تعمدنا الاطالة فى جولتنا هذه بداخل سوق مدينة لنجه بسبب المتعة الكبيرة التى وجدناها وسط هذه الأجواء والمشاهد المؤثرة والممتعة .

وباستثناء أوقات الظهيرة التى تتوقف فيها الأعمال لأسباب دينية تتعلق بأداء فريضة الصلاة الواجبة ، فإن العرب والفرس واللنجاويين وهم سكان المدينة الأصليين وكذلك الأجانب والمشترين والبائعين والمتعطلين والمتسكعين والزوار والمواطنين متواجدون جميعا فى موقع السوق . كذلك الشحاذين والدراويش الذين يدعون بأنهم يتمتعون باعفاء عن مزاولة الأعمال الدنيوية ، أو أنهم يواصلون أداء مهام القداسة الخاصة المنوطة بهم ، ويطوقون اعناقهم بسبحات من الخرز ويحملون فى أيديهم محفظات للنقود أو لايحملون مثل هذه المحفظات ، ويطوفون خلسة بين الناس ويختلطون ببقية الحشد متمتعين بامتيازات شبيهة بتلك الامتيازات التى تتمتع بها الأبقار الهندوسية فى مدينتى « بنارس » و « متورا » الهنديتين . فهذه الفئة الغريبة الأطوار من أصحاب الكرامات ذوى الخطى المباركة لايغتسلون ولا يمس الماء اجسادهم ، ويرتدون ثيابا عجيبة غير لائقة وبعيدة عن الذوق العام ، ويتجولون أو يتسكعون أو يقفون فى الموضع الذى تشدهم إليه الدعابة والفكاهة ، وهم يتسولون الصدقات بتلاوة الدعوات بالبركات أو بتمتمة من الشتائم واللعنات ، ولا يقدر أحد أن يعترض على فعلهم أو أن يرفض طلبهم . وهم بالطبع ليسوا من تلك النوعية الظريفة من الناس التى تستحق التجمهر حولها والتدافع من أجل رؤيتها ، ولكنهم دون شك يضيفون صبغة ونفحة ونكهة شرقية إلى هذه البقعة من الأرض .

أما التنوع الكبير للملابس العربية المطرزة والأزياء الفارسية والبلوشية والأفغانية التى يمكن للمرء أن يشاهدها جميعا هنا فى هذه المدينة فإنها تثير الحيرة والدهشة . فلكل قبيلة أو عشيرة ملابس خاصة مميزة يرتديها أفرادها ، إذ أن كل فئة من الناس تنتمى إلى هذه القبيلة أو إلى تلك العشيرة ترتدى غطاء مميزا للرأس وثوبا خاصا بها . ويضع بعض منهم فى وسطهم الخناجر أو السكاكين الكبيرة ذات المقابض المصنوعة من القرون أو العاج أو المزخرفة بالفضة المخرمة ، وتوضع هذه الخناجر والسكاكين عادة فى أحزمتهم أو فى الأربطة المشدودة حول خصورهم .

وتوجد فى السوق سرية صغيرة جدا من العساكر ، يحملون بأيديهم بنادقا ذات فتائل أو

بنادقا عادية ، ويقومون بأعمال الدورية فى السوق ، ويتجولون بطريقة بطيئة ومتروية ، أو يقفون فى أحد الجوانب بالسوق أو يتكئون على زواياها . ومن المفيد القول أنه لم تحدث فى وسط هذا الحشد المتباين من الناس أية مشاجرة أو خصومة أو شكوى حيث تسود الدعابة واللطف والسكون جميع أرجاء هذا الموضع .

وتعتبر رؤية النساء فى الطرقات من الأمور النادرة الحدوث هنا بأستثناء حفنة قليلة من النسوة التى يرجح أنهن من أفراد الطبقة الوسطى أو الفقيرة حيث يخرجن نادرا إلى شوارع وطرقات المدينة وهن متحجبات ويرتدين العباءات السوداء التى تغطى كامل أجسادهن مما يستعصى على المرء تكوين أية فكرة عن أشكالهن أو ملامحهن ، ومن هنا يجب تصديق مايقال عن حسنهن وجمالهن بثقة عمياء ومطلقة . فالرجل الفارسى محروم من النظر إلى الجنس الناعم ، لذا فإنه يسلى نفسه بمقولة فارسية سمعتها تتردد مرارا هنا ، وتعنى هذه المقولة :

« قد تظن أن تحت الخمار جمالا »

فإذا نزعته قد تجد تحته جدة والدتك » .

وتفتقر مدينة لنجه إلى التعليم كما هو الحال فى الأماكن المجاورة لها وحتى أن وجد فيها قدر ضئيل من التعليم فإنه لايستحق الذكر ، حيث شاهدت الأطفال يتجولون فى السوق وفى الأماكن الأخرى من المدينة طوال الوقت ، وتبدو على أساريرهم مظاهر البهجة والسرور . ومن الصعب التمييز بين الأولاد والبنات من خلال الملابس التى يرتدونها حيث تبدو ملابسهم متشابهة ، وقد قاربت أعمارهم سن الرشد بينما تبدو خطواتهم قصيرة ومتعثرة ، كما أن قاماتهم قصيرة وبطونهم كبيرة وأجسامهم ممتلئة ، ووجنتاهم متوردة ، وصحتهم جيدة ، ووجوههم بشوشة ضاحكة ، وهم يمرحون ويعبثون ، وبعضهم يرتدى أجمل الملابس وبعضهم عراة ، وبعضهم يضعون نعال فى أقدامهم ، وبعضهم حفاة ، وتعتبر مشاهدتهم مصدرا للمتعة والسرور .

وعندما اطلقت تجاههم بعض الاشارات الهزلية المازحة قهقهوا ضاحكين وتفرسوا بانظارهم متعجبين أو جروا هاربين .

ان هذه الأسواق المميزة ليست مخصصة فقط للأغراض التجارية كأجراء صفقات البيع والشراء والتسوق من أجل الحصول على أنواع السلع المختلفة ، ولكنها تمثل ملتقى أجتماعيا متعدد الأغراض كتبادل الأحاديث حول أخبار المجتمع ، ونشر الأشاعات والأقاويل وتمضية أوقات الفراغ .

ويقع ضمن نطاق السوق المسجد الرئيسى للمدينة وهو مبنى متواضع ليس له مئذنة وهى حالة تثير الدهشة والاستغراب بالنسبة لمدينة فارسية . والجدير بالذكر أن المساجد الموجودة على امتداد الشواطىء المطلة على الخليج لها طابع ثابت وهو عدم وجود المآذن

فيها كتلك المآذن المألوفة عادة فى المساجد القائمة فى البلدان الاسلامية الأخرى .

ويبدو أن سبب هذه الظاهرة الفريدة فى الخليج يعود إلى النفوذ الوهابى الذى سبق وأن أمتد إلى معظم هذه الانحاء وبالأخص فى الشواطىء العربية ، وقد حث هذا الأتجاه الصارم المتشدد على التخلى عن بناء المآذن وعلى الاقلاع عن استعمال الـزخرفة والـزينة فى دور العبادة .

الفصل العشرون

منزل الطبيب فى مدينة لنجة وموضوعات أخرى

كانت جولتنا فى مدينة لنجه طويلة حيث امتدت إلى داخل السوق ، وإلى قرب مرفأ جمارك المدينة الملىء بالنشاط والحركة ، وحول الشاطىء ، وقد شعرنا بسرور بالغ وغبطة كبيرة ونحن نقوم بجولتنا الممتعة هذه . وقد واصلنا جولتنا فى هذه المدينة حتى أصاب الاعياء والتعب أرجلنا فلم تعد تقوى على بذل المزيد من الجهد والحركة ، لذا فقد توجهنا إلى منزل الطبيب لنأخذ لنا هناك قسطا من الراحة والاسترخاء . فهذا المنزل عبارة عن مبنى كبير واسع يمتد فوق مساحة كبيرة من الأرض دونما تناسق أونظام إلا أن حالته رديئة جدا إلى حد يتعذر عنده أجراء أى تصليح فيه .

ويبدو واضحا أن الفرد الفارسى يمقت أجراء تصليحات على البيوت والمبانى . ولايزال « الدكتور جنستون » عازبا كما لاتزال غرف المعيشة فى منزله صالحة للسكنى ، وقد كان الطبيب لطيفا معنا إلى درجة أننا شعرنا كأننا فى منزلنا وليس فى منزل آخر . أما السلم الذى صعدنا عليه والمؤدى إلى أعلى فهو آيل للسقوط كبقايا أطلال قديمة ، وقد وعد مالك هذا البيت المهذب مرات عديدة بترميم هذا السلم إلا أنه يرجىء القيام بهذا العمل حتى تحين اللحظة المناسبة لذلك ! فالصعود على هذا السلم يعتبر أمرا صعبا كما أن الهبوط منه يعتبر أمرا خطيرا ، فعندما هبطت من هذا السلم إلى الأرض وأنا أجر ساقى المصابة دون أن أشعر بأذى أثناء الهبوط فقد غمرنى الارتياح واثنيت على الحظ الذى حالفنى فى تلك اللحظة . وفى الفناء الداخلى المفتوح الذى يوجد مثله تقريبا فى كل بيت من بيوت المدينة قام الطبيب بحراثة الأرض وزراعة الخضروات داخل حديقة صغيرة ، وقد سمح لنا بمشاهدة قطعة صغيرة من الأرض لاتتعدى مساحتها بضعة أقدام مربعة تنمو فيها بعض الخضراوات مثل الخس والبصل والبقدونس ، وقد أينعت هذه الخضراوات لتوها . ويقع مسكن الطبيب عند أحدى زوايا قطعة كبيرة من الأرض مختلفة الأضلاع حيث يقع منزله إلى الخلف مما يسمى بقصر الحاكم وذلك عند حدود نهاية المرفأ ، وتقع مبانى القنصلية

البريطانية فى جهة منها ، بينما تقع فى الجهة الأخرى منها بعض البيوت الكبيرة الواسعة إلا أن أكثرها قديم ومتهدم .

وبالامكان تحويل هذا المكان إلى منتجع عام للراحة والاستجمام ، إلا أن الفرد الفارسى ـ كما أظن ـ غير منفتح على مفاهيم الايثار وحب الغير وخدمة الآخرين ، أو على مفاهيم أخرى من هذا النوع ، لذا فإن هذا المكان يبدو وعرا ومتعرجا ومجدبا وغير مرصوف ، ويستخدم حاليا كموضع لرمى الأنقاض والقمامة والنفايات ، كما يستخدمه البحارة لتجفيف أشرعتهم أو لرتق هذه الأشرعة عندما تقتضى الحاجة لذلك ، حيث يمدون أشرعتهم فى هذا الموضع كيفما و أينما يشاءون . وليس بالأمكان رؤية شجرة واحدة فى هذا المكان لذا فإن ضوء النهار يسطع بقوة فى جميع أرجائه .

وقد شاهدنا هنا فى أحدى هذه الزوايا صهريجين كبيرين مستديرى الشكل قد شيدا من الحجارة على ارتفاع منخفض ويغطيهما سقفان مقنطران . ويطلق على هذا النوع من الصهاريج اسم « بركة » أو آبار صغيرة ، وهى تمثل خصوصية متميزة ينفرد بها هذا الجزء من الخليج ، وتستخدم كخزانات لجمع وتخزين مياه الأمطار التى يعتمد عليها الناس هنا للتزود بمياه الشرب ، وقد بنيت صهاريج عديدة فى نواح متفرقة من المدينة . وهذا هو نفس نظام تموين المياه المستخدم أيضا فى بندر عباس وهرمز وبوشهر ومدن أخرى واقعة على امتداد الساحل الشمالى .

وعلى بعد خمسة أميال إلى الشرق من لنجه تقع « كنج » حيث تطل على ساحل البحر ، وهو موقع مناسب للنزهة والترفيه حيث لاتزال تقوم فيه أطلال قلعة برتغالية قديمة . ويشتهر هذا الموضع بكونه بقعة جميلة للغاية .

والأوروبيون القلائل المقيمون فى لنجه يسلون أنفسهم عن طريق تنظيم النزهات الموسمية إلى « كنج » . ولم يك فى مقدورنا زيارة هذا الموضع فقد كان يتوجب علينا سلفا مغادرة لنجه تلك الليلة .

وبعد أن عبرنا عن شكرنا وامتناننا « للدكتور جنستون » جزاء الحفاوة البالغة التى غمرنا بها وقمنا بتوديعه عدنا ادراجنا مبحرين باتجاه باخرتنا « زيانى » وذلك قبل الغروب . وقد كان المرفأ مزدحما بالمراكب الشراعية والقوارب الساحلية المختلفة الأشكال والأحجام ، حيث أن بعض هذه المراكب والقوارب قد صممت بطريقة مدهشة اذ صنع فى القسم الخلفى منها الكبائن الخشبية العالية المطلية بطلاء لامع والمزخرفة بأشكال جميلة .

لقد كانت أمسية بهيجة ممتعة ولكن الجو أصبح باردا للغاية وذلك بعد هبوب ريح شمالية طرية باردة . ولم تنته عملية تفريغ الحمولة إلا بعد أن تجاوز الوقت الساعة العاشرة مساء .

الفصل الحادى والعشرون

دبى

غادرنا لنجه فى الساعة الحادية عشرة مساء ، وقد اشتدت الآن ريح الشمال أى الريح الشمالية الغربية الباردة التى كانت تهب طوال النهار وأصبحت أشبه بعاصفة هوجاء واستمرت فى هبوبها طوال الليل . وكان موج البحر يتلاعب قليلا . وقد أصبح مسارنا الآن إلى الجنوب مباشرة تقريبا حيث يقع إلى يسارنا « ساحل القراصنة » الشهير الذى كان فيما مضى منطقة محرمة . وبعد قليل من ابحارنا مررنا بالقرب من الجزيرتين التوأمتين المعروفتين بطمب الكبرى والصغرى حيث يوجد فى أكبرهما منار لارشاد السفن .

وعلى مدى أبعد فى البحر اقتربنا من جزيرة أبو موسى الكبيرة التى تتكون من صخور بركانية وبعض القمم العالية بحيث أصبحت هذه الجزيرة على مرأى منا . وتمثل هذه الجزيرة مرعى خصب ترسل إليه خيول وجمال شيوخ الشارقة ودبى فى فصل الشتاء وتأكل من عشبه النامى كيفما تشاء . وفى كثير من الأوقات تلجأ إلى هذه الجزيرة القوارب الساحلية فى الأجواء العاصفة ، ويقال ان هذا الموضع يزخر بأسراب البط البرية والأرانب ، وغيرها من الطرائد الصالحة للصيد . فالقوارب الشراعية التى غالبا ماتضط تحت وطأة الأحوال الجوية للجوء إلى هذا الموضع تتوقف فيه لمدة يومين أو ثلاثة حتى تتحسن حالة الطقس . وقد اضطرت الأحوال الجوية « بالجريف » * للتوقف هنا لبضعة أيام ، ويبدو أنه استمتع كثيرا بذلك . وهناك مقدار كبير من التجارة المحلية التى تنقل بين هذه السواحل على متن المراكب المحلية التقليدية .

وقد هدأت الريح نوعا ما إلا أن البحر ظل هائجا عندما رسونا فى خليج دبى فى الساعة السابعة والنصف صباحا على بعد ميلين ونصف الميل تقريبا من المدينة الصغيرة .

(*) تعقيب : وليم بالجريف (١٨٢٦ ـ ١٨٨٨ م) رحالة انكليزى زار بلاد العرب ، وكتب وصفا عن رحلته فى كتابه « رحلتى إلى أواسط وشرقى الجزيرة العربية » .

وكانت الأمواج العاتية تتكسر على طول امتداد الساحل الرملى ، وقد توقف العمل كليـة فى ذلك اليوم نتيجة لرداءة الأحوال الجوية . وقد صعد الموظف التابع لوكيل شركة المـلاحة على متن باخرتنا بع أن طاف كثيرا فى البحر وغير من مسار قاربه أثناء الأبحار متخذاً طريقاً متعرجا تفاديا لمواجهة الريح وبالرغم من أن القبطان قد ألح عليه هائجا بأن يرسل مراكب الصنادل لتفريغ الحمولة إلا أنه وعد وعدا ارتجاليا بذلك ، مازجا وعده بالكثير من عبـارة « إن شاء الله » ، ولم يجازف أى بحار بالاقلاع بعيدا عن الشاطىء والمضى فى ذلك البحر المتلاطم خصوصا وأن الريح كانت تشتد مرة أخرى وتهب بقوة قرب الشاطىء . لـذا كان علينا أن نقبل ذلك على مضض وأن نسترخى طوال اليوم ونحن نرقب الأمـواج الجميلـة تتلاعب أمامنا وأن نحدق مليا فى الرمال اللامعة الممتدة فى الأفق والمتـاخمة للشـواطىء الغربية المنخفضة للرعن الجبلى الكبير لعمان .

وتمثل دبى مدينة عربية صغيرة تحيط بها مساحة شاسعة من الأراضى البعيدة النائية . وتقع هذه المدينة على لسان طويل من اليابسة ، وتقابل خليج رائع المنظر ، ويستند ظهرها على خور كبير جدا وهو بمثابة بحيرة داخلية تتوغل فى اليابسة على شكل لسان مائى ضـيق كما هو شائع فى أنحاء عديدة من الخليج ، مما يوفر ملجـأ أمنـا للمـلاحين فى الأجـواء العاصفة . وهذا بدوره يضفى على دبى مظهر المدينة المطلة على بحرين ، كما يبدو منظرها جميلا عند مشاهدتها من على ظهر الباخرة ، حيث يشـاهد الصـف الـطويل لمنـازلها البيضاء ، وحصون وقصور حاكمها وأبراج « البوادجير » التى تبدو شبيهة بالمآذن والتى قد يظن المرء أنها مداخن . وتمثل التلال النائية الواقعة إلى الجنوب من المدينة و « جبـل على » المرتفع الذى يقف إلى الخلف وكذلك بساتين النخيل الكثيرة المنتشرة فى هذا الجزء من عمان تمثل هذه جميعا وحدة واحدة متكاملة تبدو كصورة رائعة جذابة . وتعـد دبـى واحدة من أكبر مراكز صيد اللؤلؤ ويحكمها زعيم عربى مشاكس جرد سلاحه قبل سـنوات قليلة خلت متحديا قوة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى . فقد حدث أثناء المحاولات الأخيرة الرامية إلى القضاء على تهريب السلاح ومـداهمة مهـربى الأسـلحة ، وهـى المحاولات التى أدت إلى استتباب الأمور فى الخليج إذ قام زورق حربى بريطانى بمـطاردة أحد مهربى الأسلحة إلى خليج دبى ، ونزلت مفرزة من بحارة الاسطول فى هذا المـوضع ، وكان المهرب على اتصال مع الرجال المسلحين التابعين للشيوخ وفئة من قـطاع الـطرق المحليين . وأسفرت المصادمات عن حدوث بعض الاصابات فى كلا الجانبين ، وبـإمكان المرء أن يتصور ما الذى حدث هناك بينهم ، وقد قيل أنه تم تهريب واخفاء ما يقـارب مـن أربعمائة بندقية أو أكثر من ذلك وحيث أن البريطانيين لم يعيروا اهتماما بالتمسك بـالحد الأقصى من مطالبهم المتمثلة بتسليم الأسلحة المهربة إليهم ، فقد تم التوصل إلى صـيغة تصون ماء وجه الشيخ ، واعتبرت المسألة كنوع من الترضية تقاسم فيها الطرفان نتيجـة مشرفة . ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الشيخ أكثر مشاكسة وصلفا من ذى قبل ، ولايجـوز

الآن لأى شخص غير مسلم أن ينزل فى دبى بدون جواز سفر خاص ، ولايوجد حتى نائب للقنصل يقيم هنا ، كما أن غياب العلم البريطانى ــ وهو الرمز المألوف للقوة البريطانية ــ من فوق هذا الساحل للقراصنة يضفى صبغة مميزة على تبجح الشيخ باعتباره قد تحدى الانكليز . وقد انتابتنى رغبة جامحة فى النزول إلى الشاطىء بالزى العربى رغما عن الشيخ إلا أنه تم اثنائى عن ذلك بسبب هياج البحر والحاجة الملحة للقوارب وهى حجج لايمكن دحضها على الاطلاق . وعند اقتراب الليل هدأت الريح وسكن البحر ، لذا ففى الصباح الباكر من اليوم التالى وقبل شروق الشمس احتشد حول الباخرة « زيانى » أسطول من مراكب الصنادل كانت محملة بمجموعة كبيرة من العمال التواقين للعمل بحماس ونشاط . وقد تم تفريغ حمولة دبى بسرعة ومهارة ، ورفعت المرساة بعد الظهر بقليل ، وغادرنا دبى الجاثمة وسط الرمال والنخيل وتركناها خلفنا مع شيخها الفظ المتغطرس فى حوالى الساعة الخامسة مساء . ومررنا على مرأى من جزيرة « صير بو نعير » أو « أبو موها » وعادة ما يشاهد المسافر فى الخليج العديد من هذه الجزر الصغيرة ، حيث أنه من الممتع دوما الابحار بالقرب منها ، إلا أنه ليس من المستحسن على الاطلاق النزول فيها .

الفصل الثانى والعشرون

جزر البحرين

تعتبر الرحلة من دبى الى البحرين أطول مسافة تفصل بين مينائين فى الخليج وقد قطعت الباخرة « زيانى » هذه المسافة فى غضون ثلاثين ساعة . وكان الطقس غائما بينما هبت الريح المعاكسة الباردة القوية طوال النهار ، وقد تساقط رذاذ من المطر عند وصولنا الى وجهتنا . وفى اليوم التالى لمغادرتنا دبى ما بين الساعة الثانية الى الثالثة بعد الظهر ترآى لنا الى جانبنا الايسر ساحل البحرين بسلسلته الطويلة من الحواجز المرجانية المنخفضة وجزره الممتدة على مدى بضعة اميال نحو مدخل المرفأ ، حيث تكسو بساتين النخيل هذه الجزر . ويقع مدخل المرفأ او المرسى بين عوامتين طافيتين مخصصتين لهداية السفن ، احداهما يعلوها مصباح احمر يرسل نورا بعد حلول الظلام .

وفى الساعة ٥,٣٠ بعد الظهر القت باخرتنا مراسيها فى مياه منخفضة على بعد ما يقارب ثلاثة اميال قبالة اكبر جزيرتين فى ارخبيل البحرين . ومن الافضل المجىء الى هنا قبل الغروب لان الاقتراب من المرفأ يتطلب قيادة حذرة جدا للدفة بسبب وجود سلسلة طويلة من الحواجز والصخور المرجانية ، والمياه الضحلة والتيارات المتقلبة . وحال اقترابنا من هذا الموضع توقف القبطان عن العمل ، كما توقف الرجال المكلفين بسبر غور البحر عن طريق اسقاط المسبار عن العمل ايضا . وقد لزمت منصة الربان منذ اللحظة التى ترآت لنا فيها اليابسة حتى اللحظة التى اطلقت فيها الاشارة النهائية لايقاف الباخرة وهوت على اثرها المراسي مصلصلة تشق طريقها الى القاع . وعندما اقتربنا من الساحل الممتد الى يسارنا بدا لنا منخفضا تكسوه العديد من بساتين النخيل الكثيفة والمتفرقة حيث يشاهد من بينها بيوت القرويين ، وقد افصح هدير الامواج المتكسرة على الصخر وارتطام الامواج بالشاطىء عن وجود العديد من الجزر الصغيرة ، والحواجز المرجانية ، والصخور

المغمورة في الماء ، مما يجعل الابحار بينها في الليل شديد الخطورة .

وتتجمع حول ارخبيل البحرين سبع جزر متقاربة واقعة بين رأسين بـريين او لسـانين بارزين عن اليابسة مما يشكل مدخلا الى خليج واسع عميق ذو ثلاث زوايا ، ومن على ساحل الاحساء المجاور الواقع في الشمال الشرقي لشبه الجزيرة العربية مما يمنحهـا اسـمها الشائع والذي هو عبارة عن الصيغة العربية المزدوجة للفظة البحرين وتعني « بحران » . وتعتبر هذه الصيغة في تسمية الاماكن والمواقع ميزة عربية الى حد ما ، فعلى سبيل المثـال اسـم بـلاد مـا بين النهرين هو التطابق الدقيق للاسم العربي الـذي اطلـق على تلك البلاد الواسعة ، فكلمة « النهرين » تعني ما بين المائين او الـرافدين ، وهمـا دجلـة والفرات . ومن بين هذه الجزر السبع او « السباعية » كما قد يطلق عليها تقليـديا هـذا الاسم الذي استخدمه « بطليموس » وهو الاسم المشار اليـه في خـريطة مـكتب شركة الملاحة بمدينة بومباي فان اكبر هذه الجزر هي تلك الجزيرة التي تبلغ حوالى ٢٧ ميلاً طولاً ولها عرض واسع والتي تقع فيها مدينة المنامة العاصمة التجارية للبلاد .

والى جوار هذه الجزيرة تقع جزيرة اخرى وهي المحرق ويفصلهما ذراع مائي ضحل او قناة بحرية صغيرة *جرى بينهما ، وتتميز جزيرة المحرق عن شـقيقتها الجـزيرة الاولى بكونها مقرا لاقامة الشيخ وافراد عائلته والوجهاء والبحرينيين الميسورين الحـال . ولا تمثل الجزر الاخرى المتجمعة حول هاتين الجزيرتين سوى صخور اشبه بنقاط على صفحة ماء البحر ، يقطنها القليل من الصيادين الفقراء ، وجامعي بلح البحر والطحالب البحرية الصالحة للأكل . كما انها تمثل موطنا لاعداد هائلة لا تحصى من طيور النورس البحـرية ، وطيور الغاق ، والطيور الغاطسة صائدة الثعابين ، وطيور مائية اخـرى . وقـد تـوقفت باخرتنا قبالة مدينتي المنامة والمحرق حيث بدا منظرهما من بعيد من فوق ظهر البـاخرة جميلا للغاية . كما بدت واضحة للعيان العديد من المباني البيضاء العالية من بينها قصور الشيخ ، والمقر المعتمدية الذي يرفرف عليه العلم البريطاني ، ومنازل التجار الاثـرياء ، واعمدة البرق واللاسلكي التي تم تركيبها مؤخرا .

وكان الطقس عاصفا وغائما في البحر بالامس الاول وقد تحول الى صاف وبهيج بمـرفأ البحرين في المساء ، وبالرغم من ان تلك الليلة كانت حالكة السواد وباردة الا انه « سرعان ما اصبح سطح السماء سميكا مرصعا باغشية من الذهب البراق » كما انشـد او تغنـى الشاعر العظيم ، لذا فان التنزه على سطح الباخرة كان ممتعا للغاية في تلك الامسية ، كمـا تلألأت انوار المدينة من بعيد

---

* تعقيب ؛ سميت البحرين بهذا الاسم نظرا لوجود ماء عذب يتدفق من عيون طبيعية في ماء البحر المالح ، مما يشكل بحران في آن واحد ، احداهما عذب والآخر اجاج .

** تعقيب : يعرف طائر النورس محليا باسم « القتّة » و « الجنّة » ، أما الغاق فهو طائر مائي ضخم نهم يقتات بالأسماك ، وهو من فصيلة البجع ، يعرف محليا باسم « اللوُهة » .

ومن الواضح ان وكيل الشركة المالكة للباخرة فى البحرين رجل أعمال حاذق ، إذا صعد مديره على متن الباخرة بمجرد ان أطلقت صفارتها اشارة الوصول رغم الظلام الدامس الذى أرخى سدوله حولها . وتبعه حالا وصول مراكب الصنادل إلى جانب الباخرة ، كما قام العمال بتفريغ الحمولة حتى ساعة متأخرة من الليل إذ أن الباخرة أحضرت معها إلى هذا المرفأ كمية كبيرة من الحمولة تزيد على ١٠,٠٠٠ رزمة .

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى جاء إلى الباخرة المسئول الصحى بالمرفأ وأنجز جميع الاجراءات المتعلقة بفحص أوراق الباخرة ، فهو يعتبر شخصية مهمة فى حد ذاته ، إذ أنيطت به جميع المهام فى مجال عمله ، فهو بمثابة المسئول الصحى بالمرفأ ، وهو الطبيب المعالج في دار المعتمدية البريطانية عند الضرورة ، وهو الطبيب الخاص للشيخ وعائلته الكبيرة العدد ، وهو مسئول عن نوع من العيادة المجانية إلا أنه يمارس العلاج الخاص أحيانا من أجل زيادة دخله ويحصل على مردود مادى مقابل قيامه بمعالجة عرب المدن الذين لديهم على أي حال استحياء ديني نحو الطب الغربي ولا يلجأون إليه إلا فى حالة الضرورة القصوى .

فهذا الطبيب الشاب المتعدد المهام والذى قام بزيارة رسمية لباخرتنا ينتمي إلى طائفة « الخوجة » وقد تم نقله مؤخرا من مدينة « ريتنغاري » الهندية إلى هذه البقعة المنعزلة والمرهقة . وقد صعد على ظهر الباخرة وهو يرتدي معطفا ثقيلا واسعا ، ويطوق عنقه لفاع عجيب من الصوف ، كما يلتف شال دافىء كالسحابة حول رأسه . وقد ارتعش وسعل معبرا عن عدم رضاه بوظيفته الجديدة . وبالنظر إلى الحال الذي يعيش فيه بحكم كونه رجل جديد في بقعة ليس له فيها صلة أو صديق ، كما انه يجهل لغة البلاد ، ويقيم في موضع يخلو من كل أسباب الترفيه والتسلية والاستجمام ، كما يعج السكن بجميع أسباب الازعاج ، فهو يستحق دون شك راتبا كبيرا بقدر كاف يرضيه ويعوضه عن ذلك الحال أودعنا نأمل أنه يحصل على مثل ذلك الراتب . وقد اعتبرنا من جانبنا أنا والقبطان « أكورجي » وجود الطبيب الجديد — وهو شاب قدير كفء — محل الطبيب السابق بمثابة مفاجأة مؤسفة . فقبل مجيء هذا الشاب إلى هنا كان يشغل منصب طبيب الشيخ شخص مجوسي يحمل درجة « اجازة فى الطب والجراحة » من بومباى اسمه الدكتور « فردونجي بوميليه » وهو صديق حميم لنا ، وقد مكث في هذا الموضع خمس سنوات متواصلة عجيبة عند وصفها ، وقد غادر إلى بومباي دون علمنا قبل وصولنا إلى البحرين بثلاثة أيام فقط . وقد أصابنا احباط شديد وشعرنا بالأسي نتيجة لذلك فقد كنا مرهقين من رتابة الطعام الذي كان يقدم إلينا في الباخرة ، إذ كان الطهاة المهرة فى الباخرة « زياني » يقدمون طعاما جديدا ووافرا إلا أنه يتكرر على نحو ثابت لا يتغير ، وكنا نتطلع بشغف لامتاع أنفسنا بوجبة طعام متقنة تعدها لنا زوجة الطبيب التى شاركت زوجها بشجاعة في منفاه طيلة هذه السنين في هذه البقعة النائية المنعزلة عن العالم ، فهي معروفة بمهارتها الفائقة في تحضير وجبات المطبخ المجوسي .

انها حقا وليمة وهمية جئنا من أجلها فكان علينا أن .

نتخم البطون الجائعة بتخيل تلك الوليمة الرائعة »

إلا أننا عوضنا جزئيا عن هذا الاحباط بوجبة غذاء على الطريقة العربية سوف أصفها بعد قليل .

يعتبر شيخ البحرين شخصية مهمة جدا ، ويشتهر بكونه أثري الحكام الذين يقتسمون فيما بينهم الشواطىء العربية للخليج . ويعتبر دخله كبيرا ، كما أن عوائده من الرسوم الجمركية وضرائب الغوص على اللؤلؤ ضخمة . وتعد البحرين مركزا مهما للتجارة ، وهي تتولى عمليا زمام القيادة في الخليج نظرا للقيمة الاستراتيجية الكبيرة التي يتميز بها موقعها ، ويحكم الشيخ عدد كبير من السكان ويتمتع بنفوذ كبير في اقليم الاحساءالواسع من البر الرئيسي . وهو ذو فائدة كبيرة للحكومة البريطانية ، وقد منح « وسام زميل امبراطورية الهند من الدرجة الأولى » وهو شديد الاعتزاز به . ومن أجل اسعاده فقد تم التلويح له دبلوماسيا بانه سيحظى يوما ما بلقب ملك.وهو عضو في قبيلة آل خليفة ، وينحدر من سلسلة طويلة من السلاطين العرب الذين حكموا اقليم الاحساء الواسع . ومنذ عام ١٦٢٢ م جرت منازعات متتالية بين عرب الاحساء والفرس من أجل السيادة على البحرين التي كانت تقع تحت سيطرة هؤلاء أو أولئك بالتناوب . وأخيرا أزاح العرب الفرس عنها إلا أنهم بدورهم أزيحوا أو تم إخضاعهم من قبل الأتراك ، ماعدا البحرين فقد ظلت في أيدي العرب .

وفي الآونة الأخيرة وبالذات في عام ١٨٧٥ م أثار السادة حكام عمان وكذلك الأتراك بعض المشاكل وحاولوا الاستيلاء على البحرين إلا أن البريطانيين تدخلوا في النزاع . حيث ظهرت فورا بارجة بريطانية في الصورة . واضطر الأتراك إلى التراجع كما جرى إبعاد العديد من الشيوخ العرب إلى الهند ، وتم اختيار الحاكم الحالي ليجلس على سدة الحكم ، وتم تثبيته في مشيخته ليحكم هذه الجزر المهمة ، إذ أنه يحكمها تحت الحماية البريطانية . وقد أصبحت البحرين مؤخرا مركزا سياسيا بالغ الأهمية في الخليج حيث يقيم في المنامة بصفة دائمة وكيلا سياسيا بريطانيا ، ونظرا للموقع الجغرافي الممتاز الذي تتمتع به جزر البحرين فانه ينتظرها مستقبل باهر ، إذ ان بغداد والبصرة واقعتان الآن في أيدي البريطانيين ، ومن المؤكد أن الكويت القريبة منهما ستصبح خلال فترة قصيرة من الزمن نهاية الخط الجنوبي لسكة حديد وادي الفرات وبغداد .

---

* تعقيب : هو الشيخ عيسى بن علي الذي حكم في الفترة مابين ١٨٦٩ ـ ١٩٣٢م

الفصل الثالث و العشرون

كيف رسونا على شاطىء المنامة

وفى صبيحة اليوم التالى هبت ريح الشمال بقوة مرة أخرى ، فوجدت صنادل الحمولة صعوبة كبيرة فى الاقتراب من الباخرة ، لذا لم يتم إنزال الجسر الخشبى خشية أن يتهشم . وكنت على أى حال متشوقا للنزول إلى الشاطىء من أجل مشاهدة العديد من معالم مدينة عربية كالمنامة ، لذا فقد غادرنا الباخرة أنا والقبطان فى الساعة العاشرة صباحا . وقد نزل القبطان بخفة ورشاقة على السلم الخاص بالمرشد لكننى لم أستطع أن أفعل ذلك بسبب ساقى المصابة لذا قامت إحدى الروافع بالباخرة برفعى فى سلة كبيرة ضخمة تستخدم عادة لتفريغ البضائع المهشمة ومن ثم إنزالى فى قارب عريض أرسله وكيل الشركة الينا لنقلنا إلى الشاطىء . ولقد طافت بمخيلتى فى اللحظة التى كنت فيها معلقا فى زنبيل مصنوع من خوص النخيل المثنية شبيه بالسلة صورة رأيتها فى إحدى مسرحيات « اريستوفان » عندما علق سقراط المسكين فى سلة من أجل تسلية جمهور أثينا الوقح المولع بالمسرحيات . وبما أن التيار كان مواتيا والريح كانت تهب وراءنا فقد رفعنا الشراع الكبير للقارب واستمتعنا بقضاء أجمل رحلة قطعناها مبحرين نحو الشاطىء . وقد كان الطقس باردا لذا كانت ملابسى الداخلية عبارة عن بدلة دافئة كنت البسها دائما عندما كنت فى لندن خلال الشتاء الماضى ، كما ارتديت معطفا ثقيلا ووضعت على رأسى قلنسوة صوف مما جعلنى أشعر بالراحة ، كما تألقت شمس الصباح المشرقة فى مشهد حافل بهيج ، وكانت مياه المرفأ الضحلة المليئة بالاعشاب الخضراء شفافة تماما ، لذا كان بالامكان رؤية الطحالب البحرية المتعددة الألوان والصخور المرجانية فى القاع بوضوح تام ، بينما حلقت فوق رءوسنا ومن حولنا اسراب من طيور النورس البحرية ، حيث كانت تدور وتحوم فى

* تعقيب شاعر مسرحى اغريقى (من حوالى ٤٤٥ إلى حوالى ٣٨٦ ق م) ولد فى أثينا . لم يبق من أعماله الادبية سوى القليل من المسرحيات يعد من كبار شعراء الادب المسرحى الاغريقى القديم

الهواء أو تنزلق بسرعة فوق سطح الأمواج الصافية نصف الشفافة التى كانت تتراقص وتتلألأ فى ضوء الشمس الساطعة . وقد خلقت هذه المناظر ومناظر أخرى كمنظر السماء الجميلة المتألقة فوق رءوسنا ، والبحارة العرب الذين يرتدون ملابس متيرة للاستغراب ، والعديد من المراكب الشراعية المحلية التى تبحر بقوة الرياح أو بواسطة المجاديف ، والوسط الجديد المدهش ، مشهدا رائعا ليس من السهولة بمكان نسيانه ، حيث « **يلمع فوق مقلة العين** » ، لذا فإن استرجاع هذا المشهد فى الذاكرة يغمرنى بفرحة عارمة لا تنقطع . وقد استغرقت مدة الابحار إلى الشاطىء ثلاثة أرباع الساعة فقط ، فقد كانت حقا رحلة قصيرة جدا . وقد نزلنا فى غرفة رديئة البناء واقعة فى واجهة مدينة المنامة . ويحصل شيخ البحرين على عوائد كبيرة من جمارك المرفأ ، وبامكانه أن يوفر موضعا للرسو أو أرصفة للمرفأ أكثر صلاحية للاستعمال من الموضع القائم . كما أن توفير رافعتين بخاريتين لأغراض تفريغ الحمولة وانزالها سوف يؤدى إلى توفير الكثير من الوقت وتلافى حدوث مشاكل ومنازعات حول البضائع المهشمة وبالامكان تغطية التكلفة من رسوم الرسو .

هناك شىء آخر إذا كان الشيخ يتمتع ببعد النظر فبامكانه بل يتوجب عليه أن يعمل فى سبيل تحسين الأحوال السائدة حاليا فى هذا المكان وعند توفير زورقين بخاريين والعديد من مراكب القطر البخارية التى يمكن للشيخ أن يستثمرها على أساس تجارى ، فإن ذلك سيعود بفوائد عديدة على شحن وتفريغ الحمولة ، وعلى نقل الركاب ، كما سيوفر الكثير من الوقت ، ويسهم فى تخفيف العديد من الصعوبات والعوائق ، ويضيف الكثير إلى دخل الشيخ . فقد كان مشهدا مليئا بالضوضاء والفوضى والنشاط . فهنا يتم إنزال الركاب والبضائع معا فى حالة شديدة من الفوضى والبلبلة فيختلط الحابل بالنابل . ويقع مبنى الجمارك وهو بناء منخفض قائم وسط فناء واسع يحيط به سياج . على مرمى حجر من الوضع الذى يعج بالنشاط والحركة ، ويزدحم بالرجال والحمير واصحابها من الصبيان الصغار وهم يمضون جيئة وذهابا فى حالة شديدة من الاستعجال والتدافع .

وتشتهر البحرين فى جميع انحاء الخليج بانواع الحمير الجيدة . وينجذب الغريب اليها منذ الوهلة الأولى وهى غالبا ماتكون ناصعة البياض ، ويوجد لدى العديد منها شعر عند العنق واذيالها برتقالية اللون مصبوغة بالحناء ، وهى ملفته للنظر من حيث الحجم والسرعة والقوة والاعضاء الغليظة التى تفوق أجناسها فى مناطق أخرى . ويمثل الحمار هنا كما فى بقية انحاء الخليج وسيلة عامة للنقل والتحميل وهو حيوان نافع مثله مثل الخنزير فى ايرلندا يرد لصاحبه جميع نفقات تربيته واطعامه . فالغياب التام لجميع انواع المركبات المثيرة للضوضاء من حركة السير يمنح المرء القادم من بومباى الشعور بالسكينة والاحساس

بالسلام . ويقتنى كل فرد هنا حمارا خاصا به او يستاجرله حمارا ، ويعهد الى هذا الحيوان المفيد « المسالم والضرورى » باداء كافة مهام النقل الا اذا قررت بنفسك بالطبع ان تسير على قدميك . وتوضع فوق ظهر الحمار قطعة من الحصير او وسادة خشنة تربط حول ظهره حيث تقوم مقام المقعد او السرج ، اما اللجام والركاب فيعتبران ضربا من الترف لاضرورة لهما . ويجرى الصبى صاحب الحمار وبيده سوط الى جانبه لكى يرشده الى الطريق ، فاذا بدأ من الحيوان جموحا امسكه الصبى من اذنيه لكى يكبح اى تصرف عابث يصدر عنه . ولايجلس الراكب على ظهره منفرج الساقين بل يجلس وساقيه متدليتين فى جانب او آخر . فهذا هو اسلوب الركوب المتبع هناك وهو يمتى بتمهل مما يجعل الراكب يشعر بالارتياح . وعندما يتحول الحمار الى حامل للمتاع . فهو يحمل على ظهره رزم البضائع او قرب الماء او الجرار التى تربط فى كلا جانبيه . كما يحمل مواد البناء ، واكياس الرمل او اى شىء آخر يتطلب النقل . ويعتبر الحمار فى البحرين نموذجا لجميع ابناء جنسه فى كل مكان ، فهو مطيع ، وسهل الانقياد يذعن لسوط سيده او لصرخات اوامره ، وعندما يشعر بالرضا واعتدال المزاج يطلق نهيقا صاخبا وذلك للتنفيس عن احاسيسه ومشاعره او لاداء التحية لاخ عابر محمل بالاثقال والذى يرد التحية بمثلها . وهو فى الحقيقة والواقع جميل للغاية ويستحق مبلغا كبيرا من المال . ولم نشاهد اثناء وجودنا فى البحرين اية خيول لكننا شاهدنا القليل من الأبل ، ومن المعروف ان الناس الميسورى الحال هنا يمتلكون العديد من الجياد . فالشيخ يمتلك مجموعة كبيرة من خيرة الجياد الأصيلة . وغالبا ماتربى الخيول فى منطقة الاحساء الواقعة بالبر الرئيسى ، وتاتى هذه الخيول فى المرتبة الثانية من حيث الجمال والسرعة وقوة التحمل بعد امير فصيلة الافراس وسيدها الحصان العربى فى منطقة نجد الواقعة بالزاوية الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة العربية . ويستخدم التجار بالطبع الجمال لاغراض النقل البرى الا ان الحمار متوفر فى كل مكان وفى كل وقت وهو يخدم فى المدينة وفى القرية على السواء .

وعندما يكون الحمار المطيع خاليا من الاحمال سواء من الأفراد او المتاع يلقى الصبى صاحب الحمار بنفسه بخفة ورشاقة فوق ظهره او يقفز من خلفه على ظهره كالبهلوان ، ويؤرجح قدمية فوقه ، او يهرول قليلا ، او يترنم ، او يمزح مع اترابه وزملائه من الأولاد ، وينادى الزبائن والركاب بروح مرحة سمحة داعيا لهم بالركوب على ظهر حماره لكى يأخذهم اينما يشاءون .

ويعتبر الحمار فى البحرين نوعا من المقتنيات الثمينة ، بينما لاتكلف اعالته شيئا يذكر . وينهمك الحمار فى اوقات الفراغ فى التقلب على ظهره اينما يجد نفسه قادرا على تنشيط بدنه ، او يقف هادئا فى زوايا الطريق يقضم او يمضغ برفق شظايا القش المتناثرة والعشب وبقايا البرسيم التى قد تقع بالصدفة فى طريقه . وهو ليس بحاجة الى سائس ، ويسير بدون

نعل ، واى شيء يأوى اليه سواء مسقوف او غير مسقوف يمثل اسطبلا له ، واى بساط قديم او فضلة من القماش تكفى لا يوائه واسكانه . وهو على اهبة الاستعداد لالتهام اى شيء يقع فى طريقة على شكل يرقة او علف . وهو يستمتع بأكل فضالة التمر والنوى المسحوقة المخلوطة بالاسماك الجافة المهملة ، وينمو بقوة عندما تتاح له فرصة اكل حفنة من مثل هذه الوجبة الدسمة .

الفصل الرابع والعشرون

مدينة المنامة

من بين المدينتين التوأمين الرئيسيتين اللتين تتكون منهما البحرين فان مدينة المنامة قد شيدت على امتداد ساحل المرفأ بأكثر من ميل واحد طولا ومثله تقريبا فى امتدادها إلى الداخل عرضا ، وتتكدس فى داخل هذه المنطقة أحياءها السكنية ومكاتبها وأسواقها الكبيرة . وهى المركز التجارى لكل هذه الجزر ، وجميع الأعمال والمعاملات التجارية تجرى فى هذه البقعة . كما يوجد فيها كبار التجار ، والوكالات التجارية ووكالات البواخر ، والقنصلية البريطانية ، وجميع المكاتب المختلفة ، والأسواق الكبيرة وجميع العاملين فيها بأجناسهم وأعمالهم المختلفة . وتبدو هذه البقعة كثيفة السكان بدرجة كبيرة . وتبدو أحياءها السكنية المتعددة ومستودعاتها متراصة بعضها بالآخر . وتقع فى وسطها الطرق أو بالأحرى الممرات والأزقة الضيقة .

وجميع البيوت أو المبانى هنا مطلية باللون الأبيض على نحو شائع ، وذلك لكى تعكس أشعة الشمس الحارة طيلة الشهور العديدة التى يصفو فيها الجو . وتتألف العديد من هذه البيوت من طابقين إلا أنها جميعا تتميز على نحو غريب بمظهرها الواهن المتصدع . وهى تبدو متفاوتة ومتنافرة وغير مستوية ولم يستخدم ثقل الرصاص الخاص بفحص الاستقامة أثناء بنائها على الاطلاق مما جعلها فى حالة غير سليمة . وأتصور أن الجير غير معروف فى هذه النواحى . أما الطوب فان وجد فانه ردىء الصنع حيث يجفف تحت وهج أشعة الشمس بدلا من نار الفرن . وغالبا ما تتكون مواد البناء من كتل مختلطة من المواد البيضاء ومن الرمال ومن الصخور البحرية المستخرجة من المرفأ ومن الساحل . وتحاكى العديد من البيوت هنا نمط البناء الفارسى من حيث الأسطح المنبسطة المزينة بحواجز التفاريج المصنوعة من الجبس المزخرف بالنقوش المخرمة ، أو بحواجز الشرفات ، ومن حيث الشرفات المعلقة ، والأروقة العمودية ، عند المداخل مع التظاهر بشىء من الفخامة

فيها ، اضافة إلى النوافذ ذات المصاريع الخشبية المزخرفة بنقوش شبكية أو ذات الألواح المنزلقة مما يضفى عليها منظرا جميلا . ومن المدهش أن هناك عددا من هذه البيوت فى حالة خربة منذ زمن طويل . وجميع الأعمال الخشبية فيها بدائية للغاية . وبالكاد ما يتلاءم باب أو نافذة مع اطارهما أو يتوافق أحد مصراعيهما مع ثنيته الأخرى بدون أن يترك فجوة أو شق أو خلخلة أو صدع فى أعلى أو فى أسفل أو فيما بينهما . ويبدو أن الدهان الزيتى لاوجود له هنا ، وقلما يستخدم الصقل ماعدا فى بعض المبانى التى تتميز بشىء من الفخامة . وعوضا عن إصلاح هذه العيوب العديدة فان الفرد العربى أو الفارسى يتقبلها برباطة جأش وهدوء معللا النفس ومواسيا لها بترديد تعبيره المألوف « لا بأس من ذلك ، ولا داع للقلق » .

وقد وجدت فى بعض البيوت أبوابا ونوافذ تعلوها شبابيك مروحية نصف دائرية مكسوة بألواح من الزجاج الملون الأخضر والأزرق والأحمر والأصفر ، بينما توجد فى معظم البيوت نوافذ ذات حواجز منخلية مثقبة أو مصاريع خشبية ترفع وتوصد ، وتضفى هذه الشبابيك المروحية الملونة على البيت حليته الوحيدة ، وتساعد على تخفيف حدة سطوع الشمس من خلال نفاذ أشعتها عبر الزجاج الملون فتنعكس تلك الألوان على الجدران البيضاء ، كما تساعد على تهوية الغرف بصورة رائعة . ويبدو أن القرميد أو البلاط لأى غرض كان لاوجود لهما هنا على الاطلاق . وجميع الأسطح هنا منبسطة لكن الأسطح التى اتيحت لى الفرصة بزيارتها والاطلاع عليها قد صممت بطريقة متفاوتة وغير مستوية مما يجعلها شبيهة بالمرتفعات والمنحدرات . ويبدو واضحا أن تقل الرصاص الذى يستخدمه البناءون لفحص الاستقامة وميزان المساح ومسحاج النجار هى أدوات نادرة الاستعمال فى طرق وأساليب البناء العربى . وبسبب الأحوال المناخية السائدة فى جميع أنحاء المنطقة الممتدة من نهاية الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط إلى بحر العرب فان السطح المفتوح المنبسط هو النمط السائد فى البناء منذ زمن بعيد ممعن فى القدم . ويتألف السطح من غرفة النوم وغرفة الجلوس ، أو فناء النزهة . وهو مكان ملائم لاعلان الأوامر الرسمية وإشهارها ونشر الأخبار وإشاعتها بين الناس . وغالبا ما يسمع صوت الواعظ من هناك ، **ومن هنا جاء التعبير العام الشائع « اذهب وعظ من فوق سطح البيت »** . وعادة مايحمى السطح المنبسط جدار منخفض أو حاجز شرفة كالذى ورد ذكره منذ زمن سحيق يعود إلى **أيام النبى موسى الذى أوصى قائلا : « اذا بنيت بيتا جديدا فاعمل حائطا لسطحك »**

وبينما تتميز الغرف بالسعة والارتفاع فى أفضل أنواع البيوت فان السلالم تتميز بالخشونة بصورة استثنائية ، فهى عالية العتبات ومرهقة أثناء الصعود والهبوط . وغالبا مايتم تركيب أو بناء السلالم إلى جانب الجدار أو فى احدى الزوايا وذلك من أجل استغلال فسحات البيت استغلالا حسنا إلا أنها ضيقة وملتوية وترتفع كل عتبة منها قدم ونصف القدم . ومن مميزات المساكن العربية والفارسية ــ حيث تهب هناك ريح السموم اللاهبة ــ وجود

« البوادجير » أو أبراج التهوية المقامة من أجل الوقاية من متاعب فصل الصيف المرهق الذى يستمر طوال خمسة شهور فى السنة ، وقد شيدت هذه الأبراج الهوائية ببراعة واتقان وتقوم بنفس الخدمة التى تقوم بها أشرعة السفينة من حيث اصطياد الهواء وتبريد الداخل . وتخلو جميع البيوت فى شواطىء الخليج من الأقواس إلا فى حالات نادرة جدا مما يضفى غيابها على هذه البيوت مظهرا مميزا . وقد شيدت أعداد كثيرة من هذه البيوت بطريقة عشوائية دونما تخطيط أو تصميم . وينطبق هذا الوصف الثابت أيضا على جميع البيوت التى شاهدتها فى مدينة بوشهر وفى أماكن أخرى أثناء هذه الرحلة . وبالرغم من أن مدينة المنامة تفتخر بوجود شىء فيها شبيه بالبلدية وذلك من خلال ما لاحظته من اعلانات ملصقة على زوايا السوق فان القوانين الداخلية المتعلقة بالبناء تعتبر من الأمور المستبعدة ، وكل شىء يتعلق بالتدابير الصحية ليس له محل فى أنظمة وتوجهات الادارة المدنية العربية أو الفارسية .

فالطرقات فى المدينة أو ما يقوم مقامها كالتى تحتاجها لأغراض السير ، قد يطلق عليها هذا الاسم من باب المبالغة فى المجاملة . فمعظمها ملتوية ووعرة وضيقة (باستثناء تلك التى تفصل بين الأقسام الرئيسية من الأسواق) وغير ممهدة ومهملة وقذرة ونتنة . وعادة ما تكون الطرقات فى أماكن عديدة غير متناسقة ومعقدة جدا وواقعة بين جدران بيضاء يصعب تمييزها إذ نادرا ما يطل باب من تلك الجدران أو تشرف منها نافذة مما يتطلب السكن فى تلك البقعة لمدة ستة شهور على الأقل أو يتطلب تدريب دقيق للتعرف على المكان وذلك من أجل انقاذ شخص من تيه محقق فى وسط تلك المتاهة من الطرقات .

الفصل الخامس والعشرون

الاهمال الصحي

بالامكان تحويل موضع الرسو وكلا جانبيه حيث يمتد المرفأ الجميل الى منتزه خـلاب تنتشر فيه المقاعد وتكسوه الاشجار الوارفة الظلال لو بذل قليل من الجهد ووظف شيء مـن الذوق وانفق القليل من المال ، الا ان المفاهيم الجمالية والافكار المتعلقة بالصحة لـدى الفرد العربى ليست ذات شأن ولا يعتد بها على الاطلاق اذا كان للمرء ان يحكم ـ وبامكانه ذلك ـ من خلال المشاهد التى وقع عليها بصري فى كل صوب من هذا المـركز التجـارى المزدهر النابض بالحركة والواقع فى وسط الخليج . فالافكار الغربية عن تخطيط المـدن والمعيشة المتحضرة لم تشق طريقها بعد نحو العقل العربى ، الا ان التغيرات السريعـة للأمور التى احدثتها الحرب العظمى فى هذا الجزء من آسيا تبشر على اية حال بان الامـور سوف تتحسن وتسير نحو الافضل ان شاء الله . !

اما الشاطيء البحري الجميل الواقع فى واجهة المدينة حيث تلمع الامـواج كالـزمرد النابض بالحياة حينا ، وكالفيروز السائل حينا آخر ، وتتلألأ الأمواج المتكسرة المليئة بالرغوة فى اشعة الشمس الساطعة احيانا اخرى ، فقد ترك هذا الشاطيء مهملاً فى حـالة مزرية من القذارة والبشاعة . والطرقات هناك ليست سوى ممرات جانبية مليئة بـالنفايات ومكتظة بالبضائع التى تم انزالها من السفن او على وشك ان تشحن اليها . وتتنـاثر فى كل مكان وكيفما كان كتل مواد البناء والاخشاب وعتاد السفن مما يعرض المـارة للخـطر . ويوجد عند الشاطيء عدد من القوارب الرأسية فى حالة شديدة من الفوضى مربوطة بالحبال أو السلاسل فى أوتاد خشبية أو مسامير طويلة مسننة الرءوس بطريقة تؤدى حتما الى حدوث اضرار جسمانية لمستخدميها وكل من يقترب منها . ولا توجد هناك اشجار للتفيء فى ظلها او للاستمتاع بالنظر اليها ، كما لا يوجد هناك شيء يشيع البهجـة والسرور فى النفس بـل

العكس من ذلك كل شيء هناك يؤذي العيون ويزكم الانوف ، اذ تتناثر في جميع ارجاء ذلك المكان الاسماك الميتة ، وجيف الحيوانات المختلفة ، وفضلات الذبائح ، كالتي تتسبب في ظهور وتفشي وباء الطاعون الا ان الهواء الجاف المانع للتعفن يقلل بسرعة عجيبة من تلك المخاطر عن طريق منع تحلل تلك النفايات ، الا ان اكثر المشاهد غثاثة واشدها بشاعة من بين جميع المشاهد التي يراها الزائر هناك هو مشهد البحارة واهالي المدينة صغاراً وكباراً وهم جالسون يلوثون الشاطيء دون مراعاة للاداب العامة ودون اي اعتبار للاخرين . وتبدو هذه الامور اعتيادية جدا ومألوفة للغاية . ولم أر أحدا يقوم بأعمال الدورية في ذلك المكان ، كما ان حراس مبنى الجمارك لا يكترثون بشيء من هذا القبيل ، ولربما انهم اعتادوا كثيرا على مثل هذه الامور بحيث اصبحت لديهم مناعة من اثارها الضارة ، بل قد يفتقدونها اذا تم الاقلاع عنها ، فالانسان اسير عاداته حتى الممقوت منها لا يعد مقيتا . واتصور ان العربي رجل محترم اكثر من منافسه المغولي على الساحل المقابل . فكل ما يحتاج اليه هو القليل من التعليم النظامي والتثقيف ودعنا نأمل بأنه سوف ينال ذلك عما قريب في ظل الحكم البريطاني الذي يجب ان يسيطر حالاً على الاراضي الداخلية الواقعة فيما وراء ساحل الخليج ان شاء الله . !

الفصل السادس والعشرون

مضيفنا العربى

يبدو اننى استطردت كثيرا لكن ذلك على أى حال جزء من حكايتى الرمزية الغنية بالمعانى . حسنا لقد رسونا على شاطىء المنامة ، ورحب بنا هناك بعض التجار العرب الذين يعرفون القبطان ، وسرنا معهم فى الفرضة المزدحمة وعبر شبكة معقدة من الممرات الضيقة والقذرة والملتوية التى تؤدى إلى المدينة متجهين نحو مكتب وكيل شركة الملاحة المالكة لباخرتنا . ويعد هذا الرجل أحد أقطاب التجارة فى عالم الأعمال بالبحرين اسمه « يوسف بن احمد كانو » ، وهو نموذج ملائم للعربى الوقور الوسيم القوى البنية والسليل الحقيقى لاسماعيل الابن البكر لابراهيم الخليل . وهو حائز على ميدالية « قيصرى هند » الذهبية . وقد وقف يحيينا ويرحب بنا بحفاوة بالغة حيث انه يكن تقديرا كبيرا للقبطان « اكورجى » ويعتبَره أبرع ربان للبواخر فى الخليج وقد أعرب عن سروره البالغ لرؤيته واستقباله .

وعند جلوسنا على المقاعد أحضر لنا الخادم القهوة التى تعتبر الرفيق الدائم لكل زيارة تتم فى أى ساعة من ساعات اليوم ، وكان يمسك باحدى يديه عدة فناجين صغيرة الحجم كانت مصدر احباط شديد لى عندما اكتشفت انها أوان يابانية الصنع إذ كنت أتوقع شيئا نفيسا من صنع الصين القديمة أوفارس ، كما كان يمسك بيده الأخرى دلة * نحاسية مدهشة الصنع والشكل إذ بدت أشبه بطائر غريب المظهر قبيح المنظر . وهى صغيرة جدا فى حجمها بالمقارنة مع رأسها ، وتحوى صنبور يشبه منقار طائر الطوقان ** أو طائر ابو

* تعقيب : الاسم الشائع لابريق القهوة هو « دلة » الا ان هناك اسما عربيا فصيحا له إقل شيوعا وهو « ركوة القهوة » .

** تعقيب : طائر أمريكى ضخم المنقار .

قرين * الذى يعيش فى آدغال مالبار ، وتتدفق القهوة عبر هذا الصنبور إلى الفناجين التى تستعمل بدون صحون . وتشاهد هذه الدلال المتميزة بمنقارها الطويل فى كل مكان من مدن الخليج حيث تعرض مصقولة صقلا جيدا ولامعة براقة ، وكلما امتلك عربى المزيد من دلال القهوة كلما دل ذلك على وجاهته ومنزلته الاجتماعية . ويدل وجود خمس أو ست من هذه الدلال اللامعة البراقة حول المجمرة الملتهبة فى البيوت الخاصة على ثروة ومكانة أصحابها . أما الصحون فلا تستعمل ويتضح انها غير معروفة . وتعتبر القهوة الجيدة الصنف رحيق العرب ، وهى تشرب ساخنة وكثيفة وسوداء ومرة بدون سكر ، وغالبا ما تضاف اليها نكهة الزعفران والقرفة وتوابل أخرى . وهى تتطلب مذاقا مكتسبا ولكنك إذا اعتدت على تذوقها فسوف تتعلق بها وتطلبها عندما تزور منزل احد العرب . وكان يتواجد معنا فى مكتب « السيد يوسف بن احمد كانو » بعض الزوار الآخرين الذين جاءوا من أجل معاملاتهم التجارية أوجاءوا للسلام عليه والسؤال عن صحته وأحواله . ولا تزال الكراسى تعتبر من البدع الجديدة الغير مألوفة الاستعمال فى هذه النواحى إلا أنه امعانا فى تكريمنا والحفاوة بنا قدم لنا كرسين للجلوس عليهما حيث وجدناهما من صنع قديم من صناعة بومباى ، ويتميزان بالخشونة ولهما أذرع ومقاعد ومساند مصنوعة من الخيزران . ويبدو أن عادة استعمال الكراسى أو المقاعد لم تكن مجهولة فى فارس والبلدان المجاورة لها قبل أكثر من الفين سنة مضت ، فقد شوهدت رسومات لها منقوشة فى أعمال النحت بمدينة برسبوليس** ويروى السير ب . سايكس فى هذا الشأن رواية طريفة عن رجل فارسى كان يندب اضمحلال الحضارة الفارسية إذ انهم اعتادوا فى هذه الأيام على الجلوس على الأرض

فى كل مكان ، إلا أن شخصا فارسيا آخر واساه بملاحظة حكيمة موضحا له على سبيل التملق بان الكراسى ترمز فقط إلى التقدم المادى الذى وصل إليه الاوربيون لتوهم بينما الفرس قد تخلوا عن الكراسى لانهم وصلوا إلى مرتبة عالية من الروحانية ! وباختصار لقد طاف الساقى العربى حول الضيوف وقدم لهم القهوة المعطرة المصنوعة من البن اليمنى المخاوى ، ومن الأصول والقواعد الواجب عليه اتباعها أن يملأ الفنجان من القهوة مرة بعد أخرى حتى تقلب الفنجان امامه . والفنجان صغير الحجم ومقدار السائل المسكوب فيه ضئيل جدا ، لذا بامكانك مطمئنا أن تشبع رغبتك منه أكثر من مرة عندما تقعد أو تجلس القرفصاء تتبادل الأحاديث الودية.ومن أصول الضيافة العربية الترحيب حتى بالغريب عابر السبيل والسماح له بالدخول وتناول فنجان أوفنجانين من القهوة دون أى نقاش معه ،

* تعقيب : طائر ضخم المنقار يعيش فى الغابات الحارة يعرف أيضا باسم « ابوقير » و « الختو » .

** تعقيب : عاصمة الامبراطورية الفارسية الاخمينية اسسها « داريوس الكبير » .فى اواخر القرن السادس ق. م شهدت توسعا كبيرا أو عمرانا هائلا فى عهود خلفائه . أحرقت عام ٣٣٠ ق. م . تعرف حاليا باسم « تخت جمشيد » وتبعد ٥٠ كم عن شيراز . تحوى آثارا رائعة .

ويبدو أن القهوة تترك دائما تغلى ببطء على المجمرة الملتهبة لكى تبقى جاهزة للشرب فى أى وقت يدخل فيه قادم جديد .

وتعتبر القهوة اليمنية أفضل وأثمن أصناف القهوة من حيث النوعية والنكهة وهى الوحيدة التى يمكن أن يقال لها قهوة « مخا » نسبة إلى ميناء تصديرها المطل على البحر الأحمر . فهذه هى حبة القهوة الحقيقية التى يعتبرها العربى الخبير بالبن الحبة الوحيدة التى تستحق التمحيص والدق لكى يصنع منها شرابا عالى الجودة . أما بقية أنواع حبوب القهوة العديدة الأخرى فتعتبر مجرد فاصوليا . وقد وصف « بالجريف » فى كتابه المتعلق برحلاته * حبة القهوة اليمنية بانها « حبة صلبة ، مدورة ، نصف شفافة ، بنية يميل لونها إلى الأخضر ، وهى التى تنتقيها بعناية فائقة الأصابع الماهرة . وتستهلك الجزيرة العربية وسوريا ومصر بالتمام ثلثى محصولها ، أما الثلث الباقى فيقتصر استهلاكه تقريبا على الأفواه التركية والأرمنية . وتشحن الفضلة الباقية من أصناف حبوب القهوة الأقل جودة ونكهة المنبسطة ، والمعتمة ، الضارب لونها إلى البياض لأغراض الاستهلاك الخارجى » . ويتسم العربى صاحب الثراء والمكانة الاجتماعية المرموقة والنشأة الطيبة بجودة قهوته .

والفرد العربى الذى ينتمى إلى سواحل الخليج ـ كما نعرفه ـ مثله مثل الفرد الصينى من حيث كونه متحفظا للغاية ، وهو يفضل كثيرا ـ كما فضل على مدى عصور عديدة ـ أن يترك لوحده منعزلا عن العالم الخارجى . وهو يفزع من تغلغل الحضارة الأجنبية ويستشعر العدوان عليه من جراء ذلك . وتعتبر احتياجاته قليلة جدا ، وفى معظم اجزاء المناطق الشمالية والغربية من بلاد العرب حيث تسود الاحكام والتعاليم الوهابية أو لاتزال عالقة هناك من النادر جدا السماح بأستعمال أى نوع من أنواع الترف والبدخ .

ويمنع منعا باتا ارتداء الحرير او اى صنف آخر من الملابس الفاخرة تحت طائلة العقاب الشديد . كما يحظر فى كل مكان شرب الخمور وحتى التدخين . ولا توجد فى البحرين او فى اى مكان من الانحاء المجاورة محلات لبيع الخمور حتى فى الوقت الراهن الذى تراخت فيه الاداب العامة ، بينما لا يزال يعتبر التبغ او كان يعتبر منذ عهد قريب جدا رجس من عمل الشيطان ، ويطلق عليه اسم « المخزى » . ويتألف طعامهم المتواضع من الارز المسلوق مع مرق الضأن واللحم المطبوخ والخبز الخشن ، ثم يستعمل قليل من التمر او اللبن الرائب والجبن كتحلية بعد الاكل . بينما يتألف أثاثهم المنزلى من بعض قطع السجاد او بعض قطع الحصير المصنوع من خوص النخيل ومن الوسائد الخشنة . وكانت السجادة تمثل بالنسبة للشعوب السامية سواء فى الجزيرة العربية او سوريا او فلسطين او فى البلدان

* تعقيب : كتاب « رحلتى الى اواسط وشرقى الجزيرة العربية » لوليم بالجريف .

بسهولة كيف ان المشلول « **سيحمل سريره ويمشى** » عندما امره السيد المسيح ان يفعل ذلك فقد كان عليه فقط ان يطوى سجادته ويحملها على كتفه ، اذ لم يك يتوفر لديهم انذاك سرير ذو اربعة قوائم او حتى سرير خفيف . وقد قوض التغلغل الغربى السلمى منه او غيره تدريجيا فى الاونة الاخيرة البساطة المتزمتة القديمة فى التدبير المنزلى العربى . فقد اصبحت الجزيرة العربية فى هذه الفترة مليئة بالاحتياجات الجديدة والأدوات الحديثة وقد دونت ملاحظات خاصة بهذا الشأن اثناء زيارتنا للبيوت والمكاتب العربية فى مختلف الاماكن التى نزلت فيها بالخليج وما حوله .

وقد شاهدت فى المكتب البارد الفسيح الخاص بمضيفنا بمدينة المنامة (ما يعتبره محمد بن عبدالوهاب المؤسس الكبير للحركة الوهابية ضرباً من البدع التى تستحق الاستنكار والشجب) طاولات ومقاعداً مكتبية يستخدمها الموظفون ، وآلات طباعة لاستنساخ الرسائل ، وآلة كاتبة ، وشاهدت ايضا تقويماً جدارياً بالانجليزية ، وساعة دقاقة امريكية الصنع ، وخزانة حديدية حديثة الطراز ، بالاضافة الى موظف برتغالى او روسى الاصل تم استقدامه من بومباى للعناية بالرسائل الانجليزية . وكانت الاقفال والمفاتيح فى الماضى تتميز باحجامها الضخمة حيث صنعت بطريقة غير عملية من الاخشاب او صنعت دون اتقان من الحديد مما جعلها ثقيلة وصعبة عند الاستعمال . وغالباً ما تبلغ اطوال هذه المفاتيح قرابة قدمين ، كما انها عريضة يتعذر اخفاؤها فى الجيب ، لذا كان يجب ان توضع فى سلك طويل وتربط فى الحزام او تعلق متدلية على الكتف . ولكن كل هذه الاشياء قد تغيرت الان . ويتجه العالم العربى القديم حاليا نحو تغيير شامل ، وبالامكان الان مشاهدة اقفال ومفاتيح اوروبية وامريكية الصنع . وقد شاهدت فى العديد من اسواق هذه الانحاء آلات الخياطة « سنجر » معروضة للبيع ، وبعضها يقوم الخياطون العرب بتشغيلها حالياً .

وقد ذكرتنى الساعة الدقاقة الامريكية المشار اليها آنفاً بالطريقة التى يحتسب بها الوقت فى هذه البلدان المطلة على الخليج ، وهى تتميز بالانحراف عن المركز ، إذ لم تتبدد حيرتي بشأنها الا عندما قيل لى رداً على استفسارى حولها بان العرب القاطنين فى هذه الانحاء وكما اتصور فى الانحاء الاخرى التى تحت ايديهم يبدأون احتساب الساعات من الشروق الى الغروب . لذا فعندما تشير ساعاتنا الى السادسة صباحاً فان ساعتهم (ان وجدت) تشير الى الواحدة صباحاً ، وعند الظهر تشير ساعتهم الى السادسة ، كما انها تشير الى الثانية عشرة عند الغروب . اما كيف يحتسبون التوقيت

★ تعقيب : قصة وردت فى العهد الجديد من الكتاب المقدس مفادها إن شخصا مصاب بالشلل كان مطروحاً على سريره امره السيد المسيح قائلا « قم احمل سريرك وامشى » ففعل .

ليلا فقد فاتنى التحقق من ذلك . وهذه الطريقة الخاصة باحتساب الساعات حسب النظام الشمسى تصيب الغريب بالحيرة والبلبلة حتى ولو كان قادماً من بومباى .

ومن بين التغيرات الحديثة الاخرى التى طرأت فى هذه البلدان المطلة على الخليج انتشار تدخين التبغ فيها على نطاق واسع وبصورة واضحة للعيان . واصبح تدخين السيجارة التركية الضارة شائعاً بوجه عام الآن . ولم تعد النارجيله القديمة* والأقل ضررا من الناحية الصحية تشاهد الان بكثرة كما فى السابق . ويفضل المترفين من العرب تدخين السيجار ولكن بسبب الحرب الحالية فقد توقفت مؤخرا جميع اشكال التجارة مع بغداد والقاهرة ، وتستعمل حاليا وعلى نطاق واسع من قبل الفئات الميسورة والفقيرة السيجارة المحلية الصنع المتميزة بشكلها الطويل المماثل لشكل المدخنة والمكونة من مزيج كثير من التبغ الهندى الخشن وذلك بسبب عدم توفر وسيلة افضل للتدخين . واتصور ان امام تجار التبغ الهنود فرصة متاحة لتحويل انظارهم نحو الخليج وعقد صفقات تجارية مربحة . ولم أر أى أثر لمعاقرة الخمر فى هذه الاراضى القديمة من البلاد الاسلامية التى ظلت دائما بمعزل عن الثقافة الغربية ، اذ يعيش الخليج بأكمله بمنأى عنها .

ولا تشاهد فى الاسواق محلات لبيع الخمور او المشروبات الكحولية . واخشى ألا تطول المدة قبل ان تجد زجاجة البيرة « **وماء الحياة** » الاوروبية طريقهما الى هذه الانحاء كبشائر للحضارة الغربية والحياة الاجتماعية المنفتحة . وبالرغم من التمسك التام بالاحكام القرآنية التى تنص على تحريم الخمور الا ان هناك دون شك الكثير من المشروبات المحرمة التى تستهلك فى السر . وهناك العديد من الرجال الطيبين والملتزمين دينياً الذين زارونا على متن الباخرة قد ابدوا ولعاً كبيراً وميلاً شديداً نحو الجعة الاسكتلندية واستهلكوا قدراً وافراً منها دون الحاجة الى اضافة مادة مخففة اليها . واتوقع ان تغيراً ما سوف يطرأ حتماً فى هذه الاراضى التى تعيش فى عزلة طويلة ، مع تغير الأزمنة والاحوال والظروف ، كما ان اختمار الافكار والممارسات الغربية سوف يخلق رؤية جديدة اكثر شمولية عن الناس والامور فى هذه الاراضى المحافظة منذ زمن بعيد التى يقطنها احفاد اسماعيل المنعزلين والوهابين المتشددين ، والتى ظلت تعيش على مدى قرون عديدة وراء الكواليس معزولة عن بقية انحاء العالم . **هل ستبقى « زاوية الرؤية » الجديدة و « التغيير الحتمى الذى يلوح فى الأفق »** على الدوام ام لا ، بقى ان نرقب ذلك ، ونرى ما سيحدث .

---

* تعقيب وسيلة تقليدية قديمة شائعة الاستعمال فى تدخين التبغ قوامها جوزه النارجيل اي ثمرة جوز الهند الخاوية الجوف و انبوبيين مجوفيين من القصب وقطعة فخارية صغيرة تحوى اوراق التبغ الخام وجمرات ملتهبة من الفحم لاحراق التبغ واحلته الى دخان

الفصل السابع و العشرون

أسواق البحرين

ألح علينا مضيفنا وصاحبنا « يوسف بن أحمد كانو » بأدب ولطف أن نبقى لتناول وجبة الفطور معه ، وفى اثناء تحضير الفطور أوصى بنا أحد ابنى اخيه ليأخذنا فى جولة بالمدينة . وقد كان دليلنا يتحدث الهندية بطلاقة وقليل من الانجليزية ايضا . وقد اصطحبنا فى جولة طويلة فى أسواق المنامة الواسعة . وقد سبق لى أن قدمت وصفا تفصيليا عن الأسواق فى احدى المدن الواقعة على ساحل الخليج وينطبق ذلك الوصف على معظم الأسواق فى المنطقة . ولاتتمتع أسواق المنامة بمميزات خاصة تجعلها تختلف عن غيرها من الأسواق ، وبعض طرقها وممراتها المعقدة الملتوية مسقوفة الا أن معظم طرقها وممراتها تغطيها سقوف من القش الجاف وسعف النخيل التى تجعل المكان باردا ومحميا من أشعة وحرارة الشمس . ومن حسن الطالع ان كمية المطر التى تهطل سنويا هنا شحيحة جدا والا فان ممرات المشاة فى هذه الأسواق سوف تتحول الى مستنقعات من الوحل اذ لايوفرلها هذا الغطاء سوى حماية ضعيفة جدا . وقد مررنا فى الأسواق مرات عديدة باجناس متنوعة من البشر ، من عرب ، وفرس ، ويهود ، وزنوج وأجناس مختلفة من أبناء سام ، الا انه من الملاحظ ان التركى غائب اليوم عن هذا التنوع البشرى . ومن بين هذا الحشد من الأجناس يتميز العربى الجليل بسلوكه الهادىء ووسامته الشخصية ومشيته الرصينة بكونه رجلا وقورا محترما .

وبالرغم ان المدينة تخلومن الأشجار وكافة اشكال الاخضرار الا ان هناك العديد من البساتين اليانعة الجميلة التى تنتشر خارجها ، وتسقى من مياه الآبار . وتشاهد محاصيل هذه البساتين معروضة فى العديد من منصات البيع المفتوحة بالأسواق او متكومة على جانب الطريق . ومن بين الفواكه المتوفرة اثناء الموسم الرمان والتوت والبطيخ والليمون (الذى يختص هذا المكان بزراعته وانتاجه) والقرع والبلح الذى يتوافر بكميات هائلة . اما الخضروات فتبدو نادرة الوجود هنا الا انه يتوافر منها أنواع قليلة مثل الخس وبعض

أصناف الفاصوليا وكميات كبيرة من البرسيم . وينمو البرسيم هنا على نطاق واسع ويمثل العلف الرئيسى للخيول والحمير والجمال . وقد أصابتنى الدهشة عندما شاهدت عربيا أشعث الرأس ، رث الثياب ، يسحب بهدوء صرة من هذا العشب الأخضر ، ويمضغه بصوت طاحن وبطريقة متروية كانما اعجبه طعم هذا **العشب*** .

والى جانب البلح والأسماك واحد الأصناف الخشنة لعجين الشعيرية التى تمثل الغذاء الرئيسى للسكان القاطنين على امتداد سواحل الخليج ، فقد قيل ان البحرينيين اضافوا الى هذه المأكولات صنفا جديدا من الطعام وهو الجراد الجاف المملح والمخلل كنوع اضافى من انواع الترف . وعندما تاتى اسراب الجراد بصورة دورية مع الغيوم فانها تلقى ترحيبا هنا اشبه بالترحيب الذى لقيه المن والسلوى فى فيافى صحراء سيناء ، كما كتبت الرحالة **الجريئة السيدة « تيودور بنت » : « ان اللعنة المحيقة بالمزارعين قد جرى تحويلها الى وجبة لذيذة مفضلة » . ويؤسفنى القول باننى لم أنل من هذا الطعام الطيب المذاق اذ لم يخطر ببالى وقتها أن أسأل عنه ، واتمنى لو أن الفرصة اتيحت لى لتناوله . وقد وصفت شريعة موسى الكليم الجراد بأنه « مخلوق نظيف صالح لغذاء الانسان »** . وهو دون شك **الغذاء المألوف ليوحنا المعمدان** وليس ثمر الخروب كما فسر ذلك بعض مفسرى الكتاب المقدس »** .

والجدير بالذكر ان بلح البحرين يمتاز بجودته العالية ، وهو فاكهة ذات حجم مناسب ، داكنه اللون ، رقيقة القشرة ، وحلوة المذاق . وتتكدس اكوام هائلة من البلح فوق منصات البيع المكشوفة بالأسواق ، وتحوم حولها اعداد لاتحصى من الذباب محدثة بذلك طنيناً عاليا ، اشبه بالسكر الخام او دبس السكر فى دكاكين الهند . كما توجد هنا بعض المقاهى او المطاعم العربية تحوى مطابخ تابعة لها ، تنبعث منها رائحة القهوة ودخان الكباب المشوى المشبوك فى قطع خشبية او أعواد صغيرة . وتستحق هذه المطاعم الزيارة حتى ولو اصابك الغثيان من طريقة عرض الطعام فيها . وبالامكان الحصول فى هذه الأماكن على القهوة الحارة الحالكة السواد وعلى قطع اللحم المشوى المثير للشهية (اذا رغبت فيه) **ولحم الضأن أو البقر المضمخ جيدا بالتوابل ولحوم الحمير والبغال والجمال*** وذلك فى أى وقت من أوقات النهار . وبالامكان الحصول على البلح من منصات البيع المكشوفة ،** وكذلك الحلوى وانواع الحلويات الآخرى من دكان الحلوانى جاهزة للاستعمال لاغراض التحلية بعد الأكل . ويوفر تنور الخباز القريب من هنا نوعا من الخبز المنبسط المدور السميك اليابس الا انه غير مستساغ على اية حال . كما تتوفر هنا تشكيلة متنوعة من الالبان منها صنف ممتاز من الجبن الابيض الطازج وانواع من اللبن الرائب

---

* تعقيب . هذا تصور خاطىء للمؤلف حيث ان الحمير والبغال لاتؤكل فى هذه المنطقة .
** تعقيب : هو النبى يحيى المذكور فى القرآن الكريم .
*** تعقيب : ربما ان نوعية العشب الذى يقصده المؤلف هنا ليس ببرسيم وانما نوع آخر من العشب شبيها بالبرسيم لكنه صالح للاكل البشري ويعرف عامة باسم « الحلبة » .

الفصل الثامن والعشرون

مواضيع متفرقة

اعترتني رغبة شديدة في اقتناء بعض الأدوات المصنعة محليا من أجل حملها معي كتذكار ، إلا انني لم أجد شيئا يستحق الاقتناء . وتمثل السلال والحصر والمراوح اليدوية الصغيرة والكبيرة وأدوات أخرى مشابهة صنعت من خوص النخيل الأشياء الوحيدة من تحف البحرين التي يمكن مشاهدتها هناك ، ولا تتسم صناعة هذه الأدوات على أي حال بأية مهارة فنية أو براعة يدوية . وقد قيل لي ان البحرين تشتهر بصناعة القصعات * الخشبية المرصعة على نحو جميل بالفضة أو بالأصداف البحرية ، والتي تقدم عادة للضيوف والزوار مليئة بالماء أو اللبن الرائب ، الا انه لم يحالفني الحظ في العثور على واحدة منها . وتشاهد في السوق أعدادا هائلة من الأواني الفخارية متراكمة على بعضها الآخر منها أواني الزير الخزفية المسامية البيضاء المخصصة للماء ، ومنها جرار الماء باحجامها المختلفة الكبيرة والصغيرة وأشكالها المشابهة لاناء الدن**ذو العروتين ، الا انه من الواضح ان هذه الأواني الفخارية ليست من صناعة جزر اللؤلؤ هذه بل انها مستوردة من مسقط بشبه جزيرة عمان التي تشتهر بصناعة هذا النوع من الفخار ***

وقد زرنا بعض محلات تجار السجاد واللؤلؤ ، الا ان ارتفاع الأسعار واحتمال تعرضنا للخداع قد حالا دون دخولنا في مناقشة حول الأسعار .

وتشاهد في السوق العديد من المتاجر المليئة بمختلف أنواع البضائع الانكليزية واليابانية مثل الخردوات المعدنية والملابس والحرير والأواني المعدنية المزخرفة والأواني الخزفية الرخيصة .. إلخ ، ويبيع معظم هذه السلع صديقنا المؤدب الصابر

* تعقيب : نوع من الاقداح دائرية الشكل .

** تعقيب : قارورة ضيقة العنق ذات عروتين .

*** تعقيب : اشتهرت جزر البحرين منذ القدم بصناعة الفخار التي تعتبر من اقدم واعرق الصناعات اليدوية فيها ، وكانت في أنحاء عديدة منها ، ولاتزال تمارس حتى الوقت الحاضر في احدى قراها وهي قرية عالي .

المثابر المرن القادم من بومباى وهو البهرى ، والذى يتحدث مزيجا من الهندية ولهجة **عامية قريبة من العربية***وقد تمكن من إقامة أعمال تجارية مربحة والتعايش مع المجموعات الغريبة والتكيف مع وسطه الجديد .

ولم يلج الرجل المجوسى المغامر بعد إلى هذه « الحقول الطرية والمراعى الجديدة » فى شبه جزيرة العرب إلا انه من المرجح إذا سارت الأمور على ما هى عليه الآن وكما تبشر به بحيث يرفرف العلم البريطانى خفاقا فوق مدن الخليج وإلى مدى أبعد من ذلك فى بغداد وما ورائها فلن يتأخر المجوسى المغامر فى انتهاز هذه الفرصة . فهو يتميز ـ كما نعرفه ـ بحاسة مرهفة نحو أى شىء يمكن أن يتحول إلى نقد . ولابد له من أن يسلك هذا السبيل . ومما لاشك فيه أنه يترقب الآن الوقت المناسب ، وقد تتطلع هذه الوهاد البعيدة القديمة النائمة قريبا إلى من يوقظها من سباتها الطويل ويبعث فيها شيئا من الحياة الجديدة بفضل انطلاقته الجريئة فى الحياة ودرايته بفن العيش ، وحبه للمغامرة ، واستعداده وقابليته الحيوية على التكيف مع ظروف العمل ، ومن المؤكد ان هناك حقلا من حقول العمل الحر فى **هذه الأنحاء ينتظر هذا التابع الكفء لزراوشت** لكى يؤدى دوره فيه على أحسن وجه**

وكمثال حى يدل على النزعة المحافظة المتبلدة والمتخلفة السائدة بين العرب القاطنين فى هذه الأنحاء فبالامكان ان نشير إلى العملة المحلية ، حيث لايزال يتداول هنا وعلى نطاق واسع الريال القديم المهجور أو الدولار النمساوى وعليه ختم سلالة « هبسبورغ » ونقش بارز للامبراطورة « ماريا تريزا » . ولاتزال تشكل هذه العملة التاريخية فى بعض الأحيان جزءا من الهدايا التى تقدم إلى العروس المجوسية فى زفافها أو تزين بها رقاب النساء الهندوسيات الداكنة البشرة . كما يجرى التعامل هنا وبسهولة بالعملات الفارسية والتركية وقدر كبير من الليرة الايطالية ، بينما تبشر الروبية الهندية بان تصبح بسهولة العملة المتداولة فى المعاملة بهذه الأنحاء من سواحل الخليج ، ومن المتوقع أنها ستلغى وستحل قريبا محل ذلك الخليط المربك من العملات السائدة فى المعاملة الآن والتى تسبب خسارة وإرباكا للزائر الغريب .

ويقع ضمن نطاق السوق المسجد الجامع ، وهو المبنى الوحيد المهيب إلى حد ما الذى رأيته فى مدينة المنامة ، وهو يخلو من أى مظهر من مظاهر الفخامة المعمارية . وله بوابة مقوسة إسلامية الطابع مزخرفة بنقوش شبكية من الجبس ، وله مئذنة منخفضة ضئيلة الحجم خالية من كل أشكال الزخرفة والزينة ، ولا تتمتع بأى مظهر مثير أو جذاب ، وذلك طبقا لتوصيات التعاليم الوهابية ، الا انها تفى بغرضها فى دعوة المؤمنين للتوجه نحو القبلة وأداء صلواتهم الخمس يوميا . ومن الواضح أن مبنى المسجد قديم وهو بحاجة إلى

* تعقيب : عادة مايتحدث المسلمون الهنود اللغة الاردية وهى خليط من الهندية والعربية والفارسية والانجليزية .

** من الواضح من الاشارات والتلميحات العديدة فى الكتاب إلى هيمنة الديانة المجوسية للمؤلف على رؤيته للأمور .. ومن المعروف إن زرادشت هو « نبى » المجوس الذين ارتحلوا الى الهند من بلاد فارس .

تصليح وترميم شأنه شأن معظم المبانى القائمة إلى جانب الخليج ، بينما تحتاج البيئة المحيطة به مباشرة إلى تنظيف . الا انه من المؤمل مع ظهور ناظر المدرسة الذى لابد له أن يطرق هذا السبيل قريبا أن يظهر أيضا المفتش الصحى والكناس من أجل جعل الأماكن الدينية والدنيوية نظيفة وجميلة .

ويمثل الأطفال العرب الصغار ذوو الأجسام البدينة والخدود المتوردة والبشرة الجميلة المختلطين مع الأطفال الزنوج ذوى البشرة السوداء ، من أولاد وبنات ، فى هذا المكان كما هو الحال عليه فى أماكن أخرى من الخليج مصدرا دائما للمتعة والتسلية بالنسبة لى .

ويشاهد الأطفال متجمهرين على هيئة مجموعات إلى جانب رصيف المرفأ ، وفى الطرقات ، أو على عتبات أبواب البيوت . بعضهم يرتدى ملابس أنيقة من الأزياء العربية الكاملة ، والبعض الآخر رث الثياب حفاة الأقدام إلا أنهم جميعا يختلطون بعضهم بالآخر ويتحركون اجتماعيا على نحو متكافىء . وقد لاحظت أن لديهم القليل أو ليس لديهم شىء على هيئة دمى أو ألعاب . وسيوفق أى شخص يقوم بفتح متجر للألعاب فى العصر الجديد الذى يبزغ فجره الآن فى هذه الانحاء من الخليج فى تكوين ثروة كبيرة . وقد رأيت هنا كما رأيت فى البصرة لاحقا أن اللعبة الوحيدة التى يلعبها الأولاد عامة فى الطرقات هى لعبة الخذروف أى الدوامة السوطية * . ويكفى احضار أية عصا مربوط فيها سلك صغير ودوامة خشبية صغيرة مسننة الطرف خشنة الشكل من أجل ممارسة هذه اللعبة . وتستعمل الصدفة الحلزونية اللولبية الشكل أيضا محل الدوامة السوطية . وهذه الدوامة رخيصة الثمن بالطبع ومتوفرة بكثرة ، وهى توفر للصبى العربى فى الشارع أثناء وجودها فى يديه البارعتين فى اللعب رياضة ممتعة ومسلية . ويشاهد حتى الكبار وهم منهمكون فى ممارسة هذه اللعبة المسلية القديمة ، يضربون باسواطهم ويديرون دواماتهم فى حماس شديد ، وهم يلعبونها على طول امتداد الطريق ، إذ ان خلو السير من جميع أنواع العجلات يساعد على ممارسة هذا النوع من اللهو . أما الطوق وحبال الوثب وحتى الطيارة الورقية فلاتزال غير معروفة بين هؤلاء الصغار .

---

* تعقيب : تعرف هذه اللعبة الشعبية عامة باسم «البلبول » أو « الحنبوص » .

الفصل التاسع والعشرون

تموين المياه فى البحرين

هناك شىء جدير بالملاحظة فى البحرين بامكان المرء أن يفهم من خلاله وجود عاصمتين للبلاد وهما المنامة والمحرق والمتمثل بالنظام الغريب للتزود بالمياه العذبة . وعند مشاهدة الرجال والأولاد والنساء والحمير يحملون جرار الماء الكبيرة وقرب الماء المصنوعة من جلود الماعز فى الطرقات وفى كل وقت ، وعند ملاحظة عدم وجود آبار أو صهاريج كالتى تستعمل فى لنجه وأماكن أخرى فقد استفسرت عن مصدر هذا السائل الثمين ، فأخبرونى بأنه يجلب من الجزيرة الشقيقة المحرق حيث يوجد فيها على امتداد الساحل ينابيع تتدفق بالمياه العذبة تزود هاتين المدينتين الكبيرتين وضواحيهما باحتياجاتهما من المياه العذبة . ففى المحرق يسكن الشيخ وجميع وجهاء البحرين ، وهى أجمل بكثير من المنامة ، ومناخها أطيب ، وأكثر انفتاحا ناحية البحر . وهى بالفعل مقر الحكومة . وهنا توجد ينابيع المياه العذبة المتدفقة باعجوبة من قاع البحر * . وتوجد هذه الظاهرة الطبيعية المدهشة أيضا فى بعض الأماكن الأخرى . وعند تدفق المد العالى تصبح هذه الينابيع مغمورة فى أعماق مياه البحر ، وهى غزيرة المياه لاتنضب . ويستخرج هذا الماء العذب بصعوبة بالغة عن طريق أعواد من الخيزران المجوف أو أنابيب دقيقة تغرز فى الينابيع عبر ماء البحر فيطفح الماء العذب خلالها إلى أعلى شفافا ، رائقا ، حلوا وخاليا من الملوحة فى الطعم . ويعهد للغواصين أحيانا بالنزول إلى قاع البحر وملء القرب الجلدية بالمياه الحلوة . وعندما ينحسر البحر عن هذه الينابيع أثناء الجزر ويصبح ضحلا بما فيه الكفاية يخوض الناس فى البحر ويملأون القرب والجرار بالماء العذب ويحصلون

---

* تعقيب : تعرف هذه الينابيع أو العيون البحرية عامة باسم « الكواكب » وكان عددها يزيد على ثلاثين « كوكبا » فى بداية القرن العشرين الميلادى ، وتنتشر فى أنحاء مختلفة من البحر ومن أشهرها · أم السوالى ، أبو ماهر ، كوكب صالح ، كوكب قربة ، أم الجراجير ، جردى ، الشريبة ، كوكب سماهيج ، العيادى ، كوكب ريا والفوارة وغيرها من « الكواكب »

بذلك على التموين الكافى من مياه الشرب . ويؤكد الجميع أن هذا الماء غير مشبع بالملوحة على الاطلاق ، وهو جيد وصالح للشرب ، كما أنه يعتبر فى الواقع الماء الوحيد تقريبا الذى يشرب منه أهالى الجزيرتين . وتباع قربة الماء الواحدة بسعر زهيد . واذا كان بمقدور الشيخ أو مايسمى بالبلدية تحسس الأمور بطريقة سليمة فبإمكانهم وبتكلفة ضئيلة من المال تزويد الجمهور بمياه هذه النوافير الطبيعية بطريقة أيسر شريطة أن تستخدم لذلك الأجهزة العلمية المناسبة . وستحل الآبار الارتوازية والمضخات البخارية سريعا محل الخيزران المجوف والغواص والطرق البدائية المضنية . وبعد تجميع إمدادات المياه فى خزانات فبالامكان توصيلها عبر أنابيب إلى المدن الكبيرة وإلى مدى أبعد فى داخل البلاد ومن هناك توزع بواسطة أنابيب عمودية مناسبة .

ويوجد على بعد ثمانية أميال من المنامة نبع الماء العذب الشهير المسمى « عين الحنينية » الواقعة فى جوار القريتين التوءمين المعروفتين باسم الرفاع ، ويعتبر ماؤها أفضل من ماء الينابيع البحرية وهى بذلك توفر للمدينة مصدرا آخر للتزود بماء الشرب الممتاز على نحو دائم طوال العام . وترسل الجمال والحمير صباح كل يوم إلى هناك لاحضار الماء وتكلف القربة الواحدة من آنتين إلى أربع آنات . وتشتهر ضواحى المنامة المحاطة بالبرارى الرملية بخصوبة تربتها ، وتسقى بغزارة من مياه الآبار التى يعتقد العرب أنها تتغذى من ينابيع جوفية قادمة من الفرات . ويوجد فى الرفاع الفلل الريفية للشيخ والمسئولين الرسميين التابعين إليه .

وهناك شىء آخر أيضا ، اذا كان الشيخ يتحلى بصواب الرأى ، فبإمكانه أن يعمل على وضع نهاية للمتاعب والصعوبات التى يعانى منها رعاياه الوديعين الذين لديهم معاملات يومية بين المدينتين الكبيرتين الواقعتين فى الجزيرتين الرئيسيتين . ويتوجب اجتياز الذراع البحرى الفاصل بينهما بواسطة قوارب صغيرة بعيدة كل البعد عن الراحة ، بينما لايخلو الخوض فى الماء الضحل بالأقدام أو على ظهور الحمير من الخطورة ، ويتسبب فى حدوث تأخير طويل وإزعاج شديد . فبالامكان بسهولة توصيل الجزيرتين عبر القناة بواسطة جسر من الحديد الخفيف أو جسر معلق من الصلب ، وستنتهى بذلك جميع الصعوبات والهموم التى يعانى منها الناس . ولن يكلف مثل هذا الجسر الكثير من المال ، وبالامكان استرجاع تكلفته بسهولة خلال فترة سنوات قليلة عن طريق استحصال رسم زهيد مقابل العبور عليه . فهذا مشروع نافع قابل للتنفيذ بصورة مؤكدة . ولقد سبق لى أن تطرقت إلى الأوضاع العسيرة السائدة فى المرفأ . وهكذا توجد هنا العديد من الأشياء التى تنتظر الانجاز ، والتى بالامكان تنفيذها بسهولة فى هذه الجزر المهمة من أجل مصلحة الشعب والتيسير عليه ، ومن أجل تحسين أحوال التجارة والمعاملات التجارية ، وسيؤدى ذلك فى الوقت نفسه إلى زيادة دخل الشيخ وتحقيق الرفاهية للبلاد . إلا أن الشيخ حاكم مطلق السلطة ، والعربى بطبيعته يفضل أن تترك الأمور تسير على الغارب إذ أنه كما يتضح

غير قادر على مواكبة الزمن . لقد تغيرت الأزمنة والدهور ، ولم يتغير العربى الاحسائى والنجدى .

وكما سبق أن أشرت من قبل أن جزر البحرين ينتظرها مستقبل رائع زاهر ، اذا استطاع حاكمها ورعاياه المحافظين جدا أن يرتفعوا إلى مستوى الأحداث واستعدوا وأعدوا لما هو آت لاريب فيه . وفى الوقت الراهن لم يعد لتركيا أى وزن فى هذه المنطقة ، كما أن الحكم العثمانى الجائر مصيره الفشل المحتوم . أما روسيا فتقع إلى الجانب الأيمن من السياج . ولابد من إبعاد المانيا بقسوة عن هذه الأنحاء . وليس من المرجح أن تطالب فرنسا وايطاليا بأية منطقة نفوذ هنا ماداما لها مطلق الحرية والتصرف فى شمال افريقيا . وهكذا من السهل التنبؤ بمستقبل هذه الجزر المهمة ، بعد أن أصبحت الكويت واقعة تحت الحماية البريطانية باعتبارها البوابة الشرقية لسكة حديد وادى الفرات التى يجب أن تكون فى الأيدى البريطانية ، فان الموقع الممتاز الذى تتمتع به جزر البحرين سوف يضعها فى المستقبل فى مرتبة همزة الوصل ونقطة الاتصال بين الشرق والغرب .

الفصل الثلاثون

الغذاء على الطريقة العربية

وبعد ان تجولنا فى اسواق المنامة وقمنا بكل مايستحق القيام به عدنا ادراجنا الى مكتب صاحبنا السيد « يوسف بن احمد كانو » وبما ان قدرتى على المحادثة بالعربية لاتـزال فى مهد طفولتها الأولى فقد كان من حسن الطالع ان القبطان قد مارسها اكثر ويتقنها بصـورة افضل كما كان مضيفنا الجليل يتقن الهندية باعتباره قد زار بومباى وأقام فيها ، لذا لـم يتعطل الحديث فيما بيننا . وقد أخذنا مضيفنا فى جولة حول مبنى واسع بناه لتوه وهو عبارة عن خان كبير شيد على هيئة مستودع تصطف فى كلا جانبيه الدكاكين او الغرف المخصصة لتخزين البضائع ويخترقها طريق او ممر رملى ينفتح من جهة الشاطىء او المرفأ . وتوجد فى المبنى طوابق علوية ، ويغطيه سقف علوى متصل مما يجعله مريحا للبائع والزبون ، وهـو يقع على مرمى حجر من « المحشر » او مبنى الجمارك ، ومن المرجح ان يمتلأ هذا المكان بالمستأجرين اذ انه يبشر بان يتحول الى مشروع استثمارى مربح . وقـد بـذل مضـيفنا قصارى جهده فى الحفاوة والترحيب بنا ، وجعلنا نزور السطح المنبسـط لهـذا المبنـى الكبير . فقد كان علينا الصعود الى السطح بواسطة سلم ضيق مبنى من الجص ملتصـق بالجدار طبقا للطراز المعمارى السائد هنا ، وقد انقطع نفسى اثنـاء الصـعود فـوق تلك الدرجات العالية التى تتطلب القوة العضلية لساقى رجل رياضى ، الا ان المشـهد الـذى رأيناه من اعلى المبنى قد عوضنا عن الجهد المضنى الذى بذلناه اثناء الصعود . فقد بدا المنظر الشامل للمرفأ فى الهواء الطلق وتحت السماء الزرقاء الصافية فى غـاية الجمـال . وبدت امامنا البواخر ومن بينها الباخرة « زيانى » واضحة للعيان من بعيد ، وبدت العديد من السفن المحلية ذات الأشرعة البيضاء العريضة المنشورة وهى تذرع جيئـة وذهـابا المسافة الفاصلة بين الباخرة والشاطىء او بالعكس ، وبدت جزيرة المحرق الجميلـة الى

يميننا بقصورها الرائعة (كما بدت تلك القصور من بعيد) ومقر المعتمدية البـريطانية ، وبدا الى يسارنا شاطىء البحرين الرملي الأبيض الطويل الممتد الى بعيد والذى تتناثر فوقه أشجار النخيل المحيطة بالقرى وينتهى بعيدا عند اطلال قلعة البـرتغال التـى كانـت فى الماضى تتحكم فى الخليج انطلاقا من ذلك الموقع . وقد حالفنا الحظ مرة أخرى اثناء هبوطنا على السلم الشديد الانحدار . وقد اصطحبنا مضيفنا الى مسكنه الخاص الملحق بمكتبه . فقد كان يوجد هناك فناء متوسط والى جانبه واحد من تلك السـلالم الشـديدة الخـطورة المألوفة فى نمط البناء العربى . وبعد ان صعدنا على درجات ذلك السلم وصلنا الى الـطابق الأول او الغرفة العلوية ، وبعد ان مررنا على سطح منخفض وصعدنا على بضـعة عتبـات آخرى وصلنا الى باب هو دون شك باب غرفة الطعام او مجلس القهوة او غرفة الاسـتقبال . وقد قابلنا هناك اثنين من المستخدمين العرب وبايديهما طسوت معدنية منبسطة وابـاريق شبيهة بابريق القهوة الانكليزية الا انها اكبر كثيرا فى الحجـم منـه واطـول فى الـرقبة والصنبور . وبعد ان غسلنا ايدينا وجففناها بالمناشف التى يبدو انها قد جلبت من احـد معامل بومباى ، وبعد ان خلعنا احذيتنا وتركناها فى الخارج دخلنا فى الغرفة . ويجدر القول ان مضيفنا قد ألح علينا بعدم خلع احذيتنا الا اننا فضلنا الاذعان الى عادات البلاد ، وهى عادات شديدة الحساسية . وكانت الغرفة واسعة مربعة الشكل ، بها العديد من الأبـواب والنوافذ التى تعلوها اشكال مروحية نصف دائرية من الزجاج الملون ، وتتميـز الغـرفة ببساطتها الشديدة وخلوها من الأثاث . وقد فرشت على امتداد سـطح الغـرفة سـجادة جميلة ، وعدد من الوسائد او المساند التى تم صفها وترتيبها حول جدران الغـرفة لـكى يسند الجالس ظهره عليها . وقد وضعت فى وسط هذه الغرفة حصـيرة دائـرية الشـكل مصنوعة من خوص النخيل ، ووضعت فوقها صينية معدنية ضخمة دائرية الشكل يتـكوم فيها الارز المسلوق المضمخ قليلا بالزعفران .

كما وضعت حول الارز عدد من الاطباق والصحون الكبيرة والصغيرة المليئة بـاللحوم المطبوخة ، ويتكون من اصناف اللحوم المتعددة والخضار المليئة بالتوابل وهى تسبح فى مرق غزير . وتشبه هذه الأطعمة كثيرا تلك الاطعمة التى اعتدنا علبها نحن المجوس . وقد خلت المائدة من السكاكين والشوك والمناديل الا ان الخبز العربى المـدور والمنبسـط المصنوع بدون خميرة قد لعب دورا كبيرا فى هذه المائدة اذ يغرف المرء اللحـم والمـرق بواسطة قطعة من هذا الخبز وينقلها باصابعه بخفة الى الفم . ولاينطوى هذا العمل على اية صعوبة بالنسبة للمجوسى وبامكان المرء ان يكون فكرة عن حجم حصيرة الأكل المدورة او السفرة كما يطلق عليها عادة عندما اقول بانه قد تحلق حولها قرابة عشرين شخصا ، مـن بينهم القبطان وانا ومضيفنا الكريم وعدد من الموظفين والمستخدمين التابعين اليه حيث تزاحمنا على اية حال حولها . وقد جلسنا القرفصاء حول هذه السفرة كجلسة الخياط ، ومع

* تعقيب . يتضح من الوصف انها وجبة غذاء

ترديد كلمة « بسم الله » وهى صلاة المائدة عند المسلمين ـ على الطعام الوفير الممدد امامنا ، تحركت شهيتنا بسبب الجولة الطويلة التى قمنا بها هذا الصباح فى هواء البحرين الطرى . وقد استمتعنا بالأكل وسط محيطنا الجديد . ومن نعم العناية الالهية انه تم تزويدنا انا والقبطان بطبقين منفصلين حيث حجزنا فيهما قدرا كافيا من الارز المغمور بالمرق الغزير وذلك لاستعمالنا الخاص . اما بقية رفاقنا فقد غرزوا ايديهم اليمنى وقبضات اصابعهم فى جبل الارز واعانوا انفسهم بانفسهم كما يحلو لهم ، ومزجوا الارز بالمرق وصبوا او رشوا عليه المرق ، او غرفوا المرق باصابعهم وبقطعة من الخبز ، او نقعوا الخبز المنبسط الخشن فى المرق بحيث اصبح فيما بعد لقمة لذيذة او تغميسة مستساغة . وقام مضيفنا الطيب على سبيل المجاملة والتكريم بملأ طبقينا من هذا او ذاك الطعام بيده . وقد وددنا لو انه يعفينا من هذه اللفتة الكريمة لكننا تقبلناها كرجال مجربين لهم خبرة واسعة فى الحياة بعبارات الشكر والامتنان المؤدبة . وقد تناولنا على سبيل التحلية بعد الأكل « **الفالودة** » المعطرة بماء الورد وهى نوع من المهلبية اللذيذة الطعم ، وكذلك الجبن الأبيض ، وتمور البحرين الحلوة المذاق . وقد شرح لنا مضيفنا الطريقة العربية الصحيحة لأكل التمر ، فقد أخذ قليل من التمر ووضع ابهامه فيها وانتزع منها النوى وحشى باطنها بقطع من الجبن الأبيض اللين ، وهرسه جيدا دافعا له باصابعه الكريمة إلى الداخل ، وقام بنفسه باطعامى من هذا الطعام اللذيذ . وقد نجا قبطاننا الذى كان جالسا إلى جوارى فى الجانب الآخر من هذه المحنة . وتعتبر هذه الطريقة فى معاملة الضيف ذروة التكريم فى مائدة الطعام العربية أو بالاحرى حصيرة الأكل . وهى عادة قديمة من عادات الشرق الأدنى وقد أذعنت لها ، وقد جال فى خاطرى ذلك المشهد المأسوى الكئيب الذى ورد فى قصة الانجيل عندما أطعم السيد المسيح يهوذا الأسخريوطى فى العشاء الأخير قائلا « هو ذاك الذى أغمس أنا اللقمة وأعطيه » سيكون الشخص الذى غدر به . ومن المؤكد أن التمر المحشى لذيذ فى الأكل إلا أننى لم استطع أن أمنع شعورى الباطنى من الاحتجاج على هذه الطريقة التكريمية فى معالجته . ان الافراط فى أكل التمر يخلق نزعة مهيجة إلا أن أكله مغموسا فى اللبن أو محشيا بالجبن الطازج اللين وفقا للتقاليد العربية يجعله ممتعا بالفعل ومغذيا للغاية . وبعد أن شبعنا من الأكل وغسلنا ايدينا لبثنا برهة من الوقت جالسين ، واستمتعنا بشرب فنجانين من القهوة الحارة من أجل تسخين أجوافنا قبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير لهذه الوجبة وذلك بمغادرتنا للمكان . وبعد أن قمنا بجولة أخرى فى داخل المدينة ، قام مضيفنا يأدب جم بمرافقتنا إلى المرفأ أو الرصيف البحرى وودعنا معبرا لنا بالكثير من عبارات الود عن تمنياته الحارة بلقائنا مرة أخرى وذلك عندما صعدنا على ظهر قاربه الذى أحضرنا إلى الشاطىء والذى سيعود بنا إلى الباخرة وهكذا انتهت رحلتنا القصيرة الممتعة فى ميناء البحرين . لقد استمتعنا كثيرا بالنزهة وسعدنا باستقبال وحفاوة مضيفنا الودود السيد « يوسف بن احمد كانو » ، دام

ظله وعلا شرفه ومقامه !فاستضافته لنا على الفطور الممتاز تمثل ذكرى سارة فى رحلتى إلى البصرة . ما شاء الله !

وقد استغرق إبحارنا نحو الشاطىء أكثر من نصف ساعة بقليل إلا أن العودة إلى الباخرة استغرقت ساعتين من الوقت ولم تكن بالشىء الهين إذ كانت الريح والتيار معاكسين لنا أثناء العودة ، لذا فقد تطلبت الآن نفس المسافة أكثر من ساعتين لاجتيازها إلا أنه لم يعكر صفوها شىء بغيض بل اننا استمتعنا بها للغاية . وكان القارب مرتبا وسليما ،وكان الرجل الذى ادار الدفة قديرا فى عمله .وقد غيرنا من مسارنا واتخذنا طريقا متعرجا ودرنا حول المياه الضحلة ، وبين حين وآخر كنا على وشك الارتطام بالأرض أو الاصطدام بالصخور المرجانية البيضاء التى شاهدناها تحت القارب فى الماء الصافى ، بينما كان البحر يهدر عند مقدمة القارب وتتناثر قطراته أحيانا على الرجال الذين يجدفون القارب ، تاركا القاربَ فى حالة ارتعاش ورجفة . وقد اقتربنا كثيرا فى إحدى مساراتنا الطويلة المتعرجة من قلعة البرتغال القديمة التى تقف الآن مهجورة ومجردة من عظمتها السابقة . وأخيرا وصلنا إلى الباخرة « زيانى » ،ولم تطأ أقدامنا سطح الباخرة مرة أخرى إلا بعد أن تجاوزت الساعة الثانية بعد الظهر . وفى اليوم التالى غادرنا البحرين فى الساعة الثامنة مساء . ومن المفيد أن نشير قبل أن نودعها بان الأساطير القديمة تربط بين جزر البحرين والفينيقيين الذين كانوا القاطنين الأوائل فى هذه المنطقة . وفى مكان ليس ببعيد عن المنامة توجد سلاسل من التلال البارزة يعرفها الأهالى باسم « مدافن عالى » وقد جرى مؤخرا التنقيب بعناية ودقة فى العديد من هذه التلال بواسطة السيد والسيدة « تيودور بنت » ، وورد وصف لها فى كتاب السيدة بنت « شبه الجزيرة العربية الجنوبية » .

وقد ثبت بشكل قاطع أن القبور والبيوت والآثار التى اكتشفت هناك هى بالتأكيد من أصل فينقى . كما أن الأسماء القديمة لبعض هذه الجزر تشير إلى ذلك ، فمثلا « تايلوس » و « عراد أو أرادوس » تتطابقان مع صور * وارواد اللتان اسسهما فيما بعد على الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط نفس هؤلاء البحارة المغامرين عندما هاجروا باتجاه الغرب من الخليج .

---

* تعقيب : تعرف صور بالانكليزية باسم Tyre

الفصل الحادى والثلاثون

الاقتراب من ابى شهر أو بوشير

أمضينا الليل فى البحر ، وكانت ليلة رائعة صافية وباردة . فمن المؤكد أن مقياس الضغط الجوى على سطح الباخرة المفتوح قد انخفض الى ٤٥ درجة . لذا فإن ارتداء بدلة من الملابس الداخلية ، والتغطى ببطانيتين من الصوف ، بالاضافة الى سترة ثقيلة لم تك جميعا كافية لتوفير الراحة والدفء فى سرير النوم . اننا نسير الآن على خط مستقيم تقريبا نحو الشمال على بعد ١٨٠ ميلا من ابى شهر . وقد وجدنا أنفسنا فى صباح اليوم التالى على مرأى من الساحل الفارسى المحاذى لأقليم فارس الواسع الذى تحيط به سلسلة منخفضة من الجبال الجرداء المقفرة الصفراء الضارب لونها الى الرمادى والممتدة باتجاه الشرق ، طبقا للوصف الذى اورده أحد الرحالة الانكليز عندما وصف أحد المناظر الطبيعية الفارسية فى مكان آخر قائلا « **لم يك يوجد فيه طير ولا حيوان ولا شجرة ولا نبات ولا حتى انسان يكسر من تلك الرتابة المدهشة** » . ولكن يوجد البحر ! فقد كان البحر جميلا وكان الطقس رائقا وباردا . كما كان يوما مثاليا للاستمتاع بالتنزه فوق سطح الباخرة ، وتلك الباخرة ليست سوى « زيانى » ذات الحركة الرتيبة المنتظمة .

وفى الصباح الباكر شاهدنا من بعيد على مدى عدة أميال الى الشمال قمة جبل « خرماز » التى ترتفع ٥٠٠ , ٦ قدم فوق مستوى ساحل البحر الرملى . فهذا الجبل المرتفع يقف كخفير يحرس ويراقب مدينة الشاه الجميلة بوشهر . ولم اتلق جوابا مقنعا عن جميع استفساراتى حول سبب تسمية هذا الجبل بهذا الاسم . فإذا كان لجبل « خرماز » صلة بالتمور أو النخيل فلربما أن هذا الجبل فى بداية تكوينه كان مزروعا بشىء من هذا القبيل . أما فى الوقت الحاضر فلا يوجد فى جميع جوانبه التالفة المتآكلة أى أثر للحياة النباتية قد يبرر هذه التسمية .

وعند القدوم أو الابتعاد عن أبى شهر وعلى مدى مسافة اميال على طول امتداد الساحل تبدو قمم جبل « خرماز » واضحة للعيان ، وفى جانب الجبل المواجه للبحر يسود السلام ، وان لم يك سلاما شاملا ، فالمنطقة تبدو جرداء خالية تماما من الأشجار ، ولكن خلف الجبل وفوق التلال المجاورة له تنتشر القبائل المتمردة الهائجة مثل التانغستانيين والبختياريين وغيرهم من القبائل الشرسة المحترفة للنهب التى ابتليت بها فارس نتيجة لضعف واضطراب الحكم فيها ، فهذه القبائل على اتم الاستعداد لارتكاب أشد أعمال العنف وحشية وضراوة كالسلب والنهب وسفك الدماء وقطع الطرق .

وعلى مدى أبعد فى الجانب الشمالى الشرقى تبدو للعيان قمة جبلية شامخة أخرى تمثل علامة بارزة يستدل بها كل من يركب البحر من ملاحين ومسافرين ، وتعرف هذه القمة الجبلية باسم « خدعة جيسكان » ، حيث تشاهده أحيانا وهى مكسوة بالصقيع . وقد حاولت كثيرا ان أراها بمنظار الباخرة إلا أن بصرى لم يقع عليها اطلاقا . وعندما اقتربنا أكثر من المدينة كان أول مبنى وقع عليه نظرنا هو القبة الطويلة المشابهة لشكل البطيخة أو قبة « « المأتم » وهى قبة بيضاء اللون مثل كعكة الزفاف ، وتقع فى وسط بستان من الأشجار النادرة فى هذه الأنحاء

وتبدو هذه القبة واضحة للعيان على مدى اميال لامتداد الساحل ، وتقع فى ضاحية يقال لها « شابز اباد » ، على بعد خمسة أو ستة اميال الى الجنوب من ابى شهر . ويوجد فى هذا الحى منزل المقيم السياسى البريطانى ومساكن كبار الشخصيات الانكليزية والاجنبية ويمثل « المأتم » رمزا بارزا من رموز العقيدة الشيعية ، وهى العقيدة الوطنية للفرس منذ ايام الامام على وهو الامام الأول . ولاتوجد مثل هذه الشعائر على الساحل العربى المقابل الذى يكثر فيه السنيون والوهابيون ، منافسيهم فى العقيدة الاسلامية .

وفى حوالى الساعة الخامسة مساء عندما كانت الشمس تنحدر نحو الغرب ، ودخلنا المرفأ الخارجى لابى شهر . فهنا ترسو سفينة صاحب الجلالة البارجة الحربية « جونو » ، وهى سفينة العلم فى الاسطول البحرى الذى يقوم باعمال الدورية فى مياه الخليج .

وقد رفعت الباخرة « زيانى » اعلامها الخاصة تحية لها ، فردت البارجة الكبيرة التحية دون تأخير حينما أطلقت اشارة لنا التوقف .

وكان على الباخرة « زيانى » ان تتباطأ وتدور حول البارجة « جونو » حتى جاء ضابط من البارجة المذكورة على ظهر زورق بخارى ودنا من باخرتنا وسلم الى القبطان بعض الأوامر السرية . وقد كلفتنا هذه المراسم ساعة كاملة ولكننا تمكنا من الدخول فى المرفأ الداخلى والقينا مرساتنا على بعد ميلين فى مواجهة المدينة وذلك قبل أن يتحول التيار

ضدنا . وقد شاهدنا فى الجانب الآخر من باخرتنا الاسطول البحرى الفارسى بأكملة راسيا هناك ، وهو يتكون من طراد واحد خفيف مزود بالمدافع مطليا باللون الأبيض وهو الطراد « برسبوليس » الذى سبقت الاشارة اليه .

وبسبب الاحتفال بمهرجان فارسى فقد كانت سوارى الطراد مزدانة بالرايات ، ومن بينها يبدو واضحا علم الشاه الذى يحمل شعار فارس ورمز قوتها وهما الاسد والشمس .

ولايوجد فى جميع الموانىء الأخرى التى توقفنا فيها حتى الآن مرشدين بحريين ، الا انه يتوجب هنا الآن على السفينة التى تدخل أو تغادر مرسى أبى شهر وتتجه الى الموانىء الأخرى الواقعة شمالا أن تحمل على متنها مرشدا بحريا .

ومن الواضح أنه اجراء الزامى لاضرورة له بالنسبة للربان الماهر ، فالمرشد البحرى الذى كان يجب ان يصعد على متن باخرتنا خارج المرفأ الخارجى قد تأخر فى المجىء الينا ، فانطلقت الباخرة « زيانى » بجسارة والقت مراسيها بدونه ، فربانها القدير يعرف كل بوصة مربعة فى كلا المرفأين حيث سبق له أن عبرهما داخلا وخارجا مرارا وتكرارا دون أن يحتاج الى مرشد بحرى . وبعد أن أصبحنا سالمين آمنين من الأخطار صعد المرشد على متن باخرتنا ، وقد كان هذا المرشد رجلا فارسيا طويل القامة ، ذابل الوجه ، لوحت الشمس ملامحه ، ورزين للغاية ، وهو ملامح عجوز وثرثار ذو طبع هادىء ، وقد امتدح براعة قبطاننا الملاحية ، وقدم سيلا من الاعتذارات لتأخره فى المجىء الينا فى الوقت المناسب . وبعده صعد على ظهر الباخرة « الدكتور هدسون » وهو أحد الأطباء الانجليز المقيمين هنا ، وقد قام بفحص اوراق الباخرة وجلس معنا لبعض الوقت لتبادل الأخبار .

ولقد شاهدت الآن بوضوح جبل « خرماز » الذى كان يبشرنا قبل يوم واحد بالاقتراب من أبى شهر عندما كنا نبحر بمحاذاة الساحل ، حيث يقف بعيدا على مدى بضعة أميال خلف مدينة أبى شهر مباشرة ، رافعا قمته الشامخة الجرداء كالستارة الداكنة ، وكانت المكافأة التى حصلت عليها نتيجة لنهوضى المبكر فى صباح اليوم التالى هى الاستمتاع برؤية منظر رائع بهيج . فقد بزغت الشمس تدريجيا من وراء هذا الجبل الشاهق الذى ينتصب واضحا فى مواجهة الشرق بالوانه القزحية ، ويلقى بثقل ظله الكبير على المرفأ وعلى سفح مدينة ابى شهر . وعندما ارتفعت الشمس مثل كرة نارية فوق قمة جبل « خرماز » تراءت لنا المدينة البيضاء التى ترتطم مياه البحر اللامعة المتلألئة بواجهتها حيث بدت للعيان وهى تغتسل فى اشعة شمس الصباح الساطعة .

الفصل الثانى والثلاثون

بوشهر

سميت بوشهر أو كما يطلق عليها عادة بوشير بهذا الاسم لأنها كما يقال « أبو المدن ». وقد اشتق هذا الاسم – ويبدو انه الاشتقاق المرجح – من اسمها القديم الذى يقال انها عرفت به خلال العصر الساساني وهو « بخت اردشير » اذ ان أردشير بن بابك * أو بابا خان وهو مؤسس سلالة الملوك الساسانيين الفرس كان يعتبر بطلا وطنيا كبيرا فى بلاده ، فهناك العديد من المدن والأنهار والأماكن الهامة التى اشتقت اسماؤها من اسمه . وتقع بوشهر – التى تستحق ان يطلق عليها لقب المدينة على سبيل التكريم باعتبارها مقرا للمقيم السياسى البريطانى ومركزا للحاكم الفارسى – على الساحل الغربى لفارس ، فوق لسان أرضى طويل منخفض ، وهى تقع مع مرفأيها فى مواجهة الشمال . ويقدر عدد سكانها بحوالى ٢٥,٠٠٠ نسمة وهى الآن مقر لحكومة الجانب الفارسى من الخليج الخاضعة تحت أمرة حاكم مقيم . كما انها قاعدة للاسطول البحرى البريطانى ، وقد ازدادت اهميتها بحكم كونها مقرا لاقامة بعض الشخصيات السياسية البارزة مثل المقيم السياسى البريطانى والقنصل العام . وتعتبر تجارتها البحرية مع الهند وشبه الجزيرة العربية وجاوا واليابان كبيرة جدا ، وتشمل صادراتها على وجه الخصوص السجاد ، والصمغ ، والصوف ، والأفيون ، وماء الورد . وتوجد هنا العديد من الشركات التجارية الأوربية ، كما أنشئت هنا مكاتب لشركات الملاحة البحرية الرئيسية .

ولا يبدو ان تاريخها القديم يحوى الكثير من عناصر المتعة والتشويق . وتدل الاطلال الواسعة الواقعة فى التاريخ ديشهر * (من الواضح ان للاسم صلة بالملك القديم الساسانى أردشيربن بابك) على بعد حوالى ميلين خارج بوشهر بأنها كانت أصلا مستوطنة عيلامية ، وقد اكتسبت

تعقيب · امتدت فترة حكمه من حوالى ٢٢٦م الى حوالى ٢٤١م .

* تعقيب تقع الى الجنوب من مدينة ابى شهر . عرفها العرب قديما بهذا الاسم . ويلفظها الانكليز « رشير » .

هذه المدينة أهمية كبيرة اثناء عهد الشاه عباس الكبير الذى كان يطمح فى السيطرة على الخليج فاختارها لتكون الميناء الجنوبى الغربى لفارس ، وجعلها حوضا لبناء وتجهيز اسطوله البحرى الوليد . وفى عام ١٧٥٩م قام الانكليز بنقل مصنعهم التجارى من بندر عباس الى هذه المدينة حيث كانوا موضع تفضيل الشاه الكبير . وكانت مدينة أبى شهر نقطة الانطلاق لأول بعثة دبلوماسية « للسيرجون مالكلوم » فى بلاط فارس وذلك للتصدى للمكائد الفرنسية فيعهد « فتح على شاه »* . ويشتهر هذا السفير اللامع والدبلوماسى البارع بكونه أول من ادخل البطاطس الى فارس ، ولايزال فى فارس يطلق على هذه الثمرة المفيدة للأكل فى هذه الأنحاء « آلومالكلولم » تخليدا لذكراه وذلك طبقا لما هو مذكور فى كتاب « كراسات « فارس » المسلى . ويجدر بالذكر انه أقيم فى مدينة افنيون بفرنسا تمثالا تخليدا لذكرى شخص فارسى ادخل زراعة نبات الفوة** فى فرنسا ، وعلى الفرس ان يعملوا نفس الشيء مع السيرجون . وفى هذا الصدد قد يكون من المفيد الاشارة هنا انه اثناء بعثته الدبلوماسية الثانية قد تم انشاء وسام الفروسية الفارسى خصيصا لتكريم السيرجون . فالطريقة التى انشأ فيها هذا الوسام كانت غريبة . ففى اثناء زيارتيه الى فارس كسفير فانه اصبح اثيرا لدى العاهل . الكبير أو الشاه الذى عامله خلافا لجميع السوابق وخروجا على جميع الأعراف والرسميات الصارمة للبلاط معاملة فى منتهى اللطف والصداقة والألفة . وكان الشاه قد أنشأ قبل بضع سنوات . من زيارة مالكلولم .

« وسام الشمس » تكريما « للجنرال « غاردان » الذى جاء الى فارس كسفير « لبونابرت » . وقد منح هذا الوسام « للسير هارفورد جونز » المبعوث فوق العادة لملك انكلترا ، وقد امتنع « السير هارفورد » عن القبول به حرصا منه على الشكليات والدقة فى التفاصيل آخذا بعين الاعتبار أصل هذا الوسام وسبب انشائه . وقد منح هذا الوسام لاحقا « للسير جون مالكلولم » الذى لا يقل عن « السير هارفورد » بمقدار ذرة واحدة فى حرصه على الحفاظ على كرامة حكومة شركة الهند الشرقية جون بهادور حيث احتذى مخلصا بالمثال الذى ضربه « السير هارفورد » فى الاباء والاعتزاز . إلا أن الشاه لم يقبل على أى حال بهذا الرفض وقد خرج من المأزق باعتبار الشاهات وحدهم بامكانهم ان ينشأوا أوسمة ، فقد أنشأ وساما جديدا وهو « وسام الأسد والشمس » . وقد قلد الشاه بيديه الجليلتين صدر « السيرجون مالكلولم » بالشارة المرصعة بالجواهر لهذا الوسام الذى يتمتع الآن بشهرة فائقة ، كما منح السفير اللامع فى الوقت نفسه لقب « خان »

* تعقيب : حكم فارس فى الفترة ١٧٩٧ ـ ١٨٣٤م ، واتخذ طهران عاصمة لبلاده ، وهو الحاكم الثانى من سلالة القاجار .

** تعقيب : نبات متسلق من ذوات الفلقتين ، تستخرج منه مادة العصارين وهى عبارة عن مادة تلوين حمراء اللون تستخدم للصباغة .

ومرتبة « سيباه سالار » أى القائد العام للامبراطورية الفارسية . ومما لاشك فيه ان الشمس فى هذا الوسام ترمز الى الاله « ميترا » * الذى كانت عبادته منتشرة على نطاق واسع فى الامبراطورية الفارسية القديمة ، ويرجح ان المقصود من اضافة ملك الحيوانات الى هذا الوسام هو تقديم الاطراء والتبجيل للاسد البريطانى .

وفى عام ١٨٥٧م عندما اندلعت الحرب الانكليزية الفارسية وقعت ابى شهر تحت احتلال القوات البريطانية الهندية ** بقيادة « الجنرال أوترام » واقتحمت بـ يشهر بعد أن قاومت ببسالة . وانسحب الجيش الفارسى الذى كان معسكرا فى « برازجان » على الطريق المؤدية الى « شيراز » على عجل عند اقتراب القوات البريطانية التى قامت بنسف مخزن البارود الفارسى * ولم ترغب فى المضى قدما نحو « شيراز » فتراجعت الى أبى شهر . وقد تشجع الفرس نتيجة لهذا الانسحاب السياسى وليس الاستراتيجى فتعقبوا القوات البريطانية وشنوا عليها غارة ليلية عنيفة فى موضع يقال له « خوشاب » ** ، الا انهم هزموا هناك هزيمة نكراء . وقد عجل هذا الانتصار فى « خوشاب » وبعض العمليات العسكرية الناجحة فى جوار المحمرة *** بوضع نهاية سريعة للحرب الانكليزية الفارسية . كما كان البريطانيون بدورهم تواقون لعقد الصلح *** اثر اندلاع القلاقل الناجمة عن العصيان العسكرى الكبير فى الهند . وفى أثناء الحرب الرهيبة الكبرى الجارية الآن التى تحيل أوربا الى دمار احتل البريطانيون ابى شهر باعداد كبيرة من القوات لفترة زمنية قصيرة وذلك بسبب التهديدات الناجمة عن الاضطرابات الخطيرة التى تثيرها ـ بتحريض من الدسائس الالمانية ـ القبائل الشرسة التى تقطن المناطق الجبلية الواقعة الى الشرق من ابى شهر . ولاتزال ترابط فى المدينة اثناء زيارتى لها ثلاثة افواج من القوات الهندية كاجراء وقائى ، فالأوضاع السائدة هناك لاتزال تعتبر فى حالة منذرة بالخطر ، لذا فان الجندى والمجند الهندى ممنوع كلاهما ان يبتعدا اكثر من خمسة اميال عن حدود المعسكر .

---

* تعقيب . اله النور عند الفرس الأقدمين انتشرت عبادته فى فارس ومنها الى الهند وأسيا الصغرى وحتى روما .
** تعقيب : وقعت ابى شهر تحت احتلال القوات البريطانية فى ١٠ ديسمبر ١٨٥٦م .
*** تعقيب : نسفت القوات البريطانية مستودع الذخائر التابع للجيش الفارسى الذى كان يحوى ٣٠,٠٠٠ رطل من البارود فى ١ يناير ١٨٥٧م .
* تعقيب : وقعت معركة « خوشاب » فى ٨ فبراير ١٨٥٧م .
**** تعقيب : احتلت القوات البيرطانية المحمرة بعد ضربها بالقنابل فى ٢٦ مارس ١٨٥٧م .

أما فيما يتعلق بمستقبل ابى شهر فقد توقع « السير بيرسى سايكس » الذى تتوفر لديه معلومات كاملة ودقيقة — عن الأحوال هنا بسبب اقامته الطويلة ورحلاته الواسعة فى فارس بان يفقد هذا الميناء القديم اهميته مع مرور الزمن بينما ستزداد وتتعاظم اهمية منـافسيه وهما المحمرة فى الغرب وبندر عباس فى الشرق .. ويبدو من المرجح حدوث مثل هذه الحالة خصوصا اذا تم ربط طهران بسكة حديد مع كويتا * عبر بندر عباس واصفهان .

---

* تعقيب : وقع الطرفان المتحاربان فى شهر مارس ١٨٥٧م بمدينة باريس معاهدة صلح وجرى التصديق عليها فى شهر ابريل من نفس السنة انهت الحرب بينهما ، وانسحبت القوات البريطانية عن أبى شهر فى ٢ اكتوبر ١٨٥٧م وعادت اليها مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الأولى .

* تعقيب : مدينة فى حوض السند ، عاصمة اقليم بلوشستان .

الفصل الثالث و الثلاثون

مدينة أبى شهر

ى اليوم التالى لوصولنا كان الطقس باردا ومنعشا ،وقد ذهبت مع القبطان الى الشاطىء على متن الزورق البخارى الخاص بالمرشد العجوز ،وقد قمنا مع هذا المرشد بصفته دليلنا بزيارة معالم مدينة أبى شهر .وقد استغرقت المسافة التى اجتزناها مبحرين فى المياه الضحلة للمرفأ الداخلى على متن القارب الخشبى العريض القعر ساعة واحدة تقريبا ، وبعد أن شق القارب طريقه بصعوبة بين عدد من المراكب المحلية التى كانت تحمل جميعها علامات وأرقام انكليزية ،رسونا فى فرضة أو مرسى متصدع ردىء البناء موحل وزلق ، يقع قرب مبنى الجمارك .وبعد ان تسلقنا فوق رزم البضائع المتراكمة هناك دون ترتيب أو نظام والمتناثرة فى كل مكان بانتظار قيام المسئولين فى الجمارك بترتيبها وتخليصها استطعنا أن نخرج من ذلك الموضع وان نصل الى المنتزه الرئيسى أو الشاطىء المواجه للبحر الذى شيدت المدينة على طول امتداده .فهنا توجد معظم المساكن والمكاتب الهامة فى المدينة ، ومن بينها قصر الحاكم وهو مبنى متواضع خال من مظاهر الفخامة وفى حالة سيئة تستدعى الترميم ،وعلى مدى ابعد منه قليلا يوجد المقر الرسمى للمقيم السياسى البريطانى حيث يقوم بعض الجنود الهنود بحراسة مدخله .وتمتد الواجهة البحرية قرابة خمسة أو ستة أميال باتجاه الجنوب نحو « شابز اباد » الضاحية الجميلة التى أشرت اليها آنفا ، وقد سميت بهذا الأسم لأنها تظللها عدد من الأشجار الكبيرة الوارفة الظلال وهى ليست بأشجار النخيل .

وتقع القنصليات الفرنسية والايطالية والروسية والالمانية والتركية على امتداد هذا الشارع الرائع الذى يرتطم البحر الأزرق الجميل بهدوء ورفق بواجهته .وفى الظروف الراهنة فإن القنصليتين الالمانية والتركية قد اغلقتا بالطبع واصبحتا مهجورتين ،ولم يعد يوجد فيهما نزلاؤهما السابقون .ولو كان هذا المنتزه الساحلى الكبير فى أيد فرنسية أو

ايطالية فسوف يتحول الى شيء ممتع بهيج ، كما ستتحول بوشهر الى منتجع شتوى جذاب .
ويتميز هذا الموضع كما هو عليه الآن بمظهره المقفر المهجور ، فالشارع رديء البناء ومليء بالتشققات والحفر ، وتتناثر فوق الساحل مختلف أنواع النفايات ، كما تتميز البيوت هناك بمظهرها الموحش المتصدع والمتهالك . ويبدو المكان خاليا من مظاهر الحياة . فالفرس والعرب القلائل الذين وجدناهم هناك يمشون رويدا بتمهل وتوان كما لو أنهم ليس لديهم فكرة محددة عن الوجهة التى يقصدونها وعن العمل الذى يجب عليهم ان ينجزوه . ويوجد هناك القليل من النساء اللاتى يمشين فى الطريق وهن متدثرات بالسواد كالمومياوات ويخفى وجوههن حجاب قبيح المنظر شبيه بالقناع ، وتلتف حول رسغ اقدامهن سراويل الكتان الفضفاضة الزرقاء اللون ، كما تكسى اقدامهن جواريب « البابوش » المنخفضة العقب الرديئة الصنع الشائع استعمالها فى فارس . وهن اشبه بمنظر النائحات فى أوربا عندما يرتدين ثياب الحداد السوداء وتحملهن عربة الحانوتى خلف موكب الجنازة متجهة بهن نحو المقبرة .

ويبدو أن المخرج الوحيد من تلك المظاهر الكئيبة للرتابة المملة التى يقع عليها بصر الناظر فى هذا المنتزه البحرى الجميل بابى شهر هو التمتع برؤية بعض الأطفال القلائل الذين يهرولون الى جانب آبائهم أو مرافقيهم .

ويبدو هؤلاء الأطفال فى صحة جيدة ، كما يبدو منظرهم سارا بخدودهم المتوردة ، وعيونهم السوداء اللامعة ، وأسنانهم البيضاء ، ووجوههم الضاحكة .

وقد قمنا بزيارة « الدكتور هدسون » فى عيادته الواقعة بالطابق الأول لبيت متداع البناء يقع فى مواجهة البحر ، فقد كان علينا أن نصعد الى العيادة فوق سلم يتكون من سلسلة متواصلة من الدرجات الضيقة القذرة والمنحدرة بصورة غريبة . وقد وجدنا الطبيب مشغولا بمعالجة عدد من المرضى ومن بينهم عدد كبير من النساء والأطفال . وقد بدا أن الأمراض التى غالبا ما يشتكون منها هى اوجاع العيون والحمى والسعال . وقد كان مشهدا مسليا .

وعند خروجنا مرة أخرى الى الخلاء المفتوح شاهدنا رجلا قصير القامة انيق المظهر يرتدى اللباس الكاكى بالكامل .

وقد بدا مكسوا بالعديد من الأحزمة وشارات الكتف وأنواع متنوعة من الأشرطة الجلدية والأزرة والحلق المعدنية ، كما غطست ساقيه القصيرتين فى اللفائف وفى الحذاء الثقيل العالى ، إذ كان يهمز بحذائيه فرسا كستنائى اللون كان يمتطى صهوته ، وقد بدا الفرس ضخما جدا بالنسبة اليه ، ولم يك لدينا أدنى شك بأنه عسكرى بريطانى إذ أن مظهره الأنيق كان يوحى بذلك ، وقد أنتابتنا الدهشة والغبطة عندما اكتشفنا أن هذا الفارس القصير الذى يشبه قادة الحروب ليس سوى ابن أخى « النقيب هيراجي كرستجي » الذى يعمل طبيبا فى الهيئة الطبية الهندية ويقيم مع فوجه فى « شابز اباد »

السالفة الذكر . ومنذ أن اندلعت الحرب الجارية* خدم طويلا فى منطقة قناة السويس ومن ثم فى « غلبولى »** حيث أصيب هناك بجراح بليغة كادت تودى بحياته . وبعد أن أمضى عدة شهور فى المستشفى فى مالطة ولندن ، تقرر اعادته للخدمة مرة أخرى بصفته لائقا صحيا ، وقد خدم فى جبهة دجلة ، وقد أحيل مؤخرا الى أبى شهر مع فوجه الذى يقوم الآن بالاشتراك مع فوجين هنديين آخرين بكبح جماح الدشتيين والتانغستانيين وغيرهم من القبائل الايرانية الذين « شغلهم الشاغل هو زيادة اسلابهم » من خلال النهب والاغارة فى الأراضى الفارسية وعند الحدود التركية المتاخمة . وقد خدم « النقيب هيراجيى » مرة أخرى فى جبهة بغداد وما ورائها .

وقد ابلغته عبر الهاتف عن وصولنا وحددنا موضع لقائنا فى مبنى الجمارك . وقد اخفقنا فى اللقاء به هناك ولكننا مررنا به بالصدفة عند الواجهة البحرية . وقد أخذنا فى جولة حول المقر الواسع للمعتمدية البريطانية وبعد أن عقل فرسه هناك تجول بنا عبر أسواق ابى شهر .. وكما سبق أن ذكرت من قبل فإن كل واحدة من هذه الأسواق الغريبة أو المتاهة المعقدة من الأزقة المسقوفة باكشاكها ومنصاتها المفتوحة الخاصة بعرض السلع وحوانيتها ومستودعاتها تشبه كثيرا أية سوق أخرى فى مدن الخليج ، لذا فإن سوق أبى شهر ليست بحاجة الى المزيد من الوصف كما قال شوسر*** « وعن اوصافها فلن أطيل حديثى » . وقد تجولنا فى الأسواق بطريقة متئدة متروية ، ودخلنا وخرجنا من العديد من الممرات والمسالك والمجازات ، وعاينا السجاد والأسلحة القديمة والنحاس الأصفر والأوانى النحاسية معروضة هناك للبيع ، ويتمتع « النقيب هيراجى » بحكم اقامته الحالية فى فارس بخبرة ودراية واسعتين فى جميع هذه المقتنيات الثمينة . وهو يتكلم اللهجة المحلية بدرجة مقبولة ، وهذا بدوره يترك دون شك أثرا كبيرا لدى الأهالى ، إلا أننا لم نعقد أية مساومة حول الأسعار حيث كان المغولى الماكر مصمما على الايقاع بنا .

---

* تعقيب : أى الحرب العالمية الأولى .

** شبه جزيرة تقع فى الشطر الأوروبى من تركيا وتشرف على مضيق الدردنيل .

*** تعقيب : جيفرى شوسر (نحو ١٣٤٠ ـ ١٤٠٠م) شاعر انكليزى يعتبر أبرز الشعراء الانكليز قبل شكسبير .

الفصل الرابع والثلاثون

وكيل شركة الخليج للملاحة فى أبى شهر

وبعدها قمنا بزيارة « الحاج عبد الرسول »وكيل شركة الخليج للملاحة ورئيس التجار فى أبى شهر حيث يقع هذا المنزل فى الحى التجارى من المدينة . وهو منزل رحب واسع صمم وفقا للطراز السائد فى البناء الفارسى ، ويتكون من فناء داخلى وطابق علوى . فهنـا يعيش رئيس التجار ويدير أعماله التجارية الواسعة . فهو رجل ذو ثروة طائلة ويتمتـع بمكانة اجتماعية مرموقة فى مدينة أبى شهر . وكان متكلفا نسبيا وبذل عناء كبيرا فى الترحيب بنا . وكانت ملامحه دون شك داكنة بالنسبة لرجل فارسى ، وهى ملامح ليست جذابة على أية حال بالرغم انها تتسم بدلائل الذكاء والدهاء ، وتفصح عن مهارة تجارية حاذقة ودراية واسعة بالعمل التجارى . وبالكاد تكرم بالنهوض لمصافحتنا . وكان مشغولا فى مكتبه الذى أعـد بطريقة مماثلة لأى مكتب حديث فى بومباى ، حيث توجد فيه طاولة كبيرة للـكتابة ، وكرسى دوار ، وارائك للجلوس ، ورفوف للكتب ، وهاتف ومقاعد اضافية . ويشـاهد فى الغـرفة المجاورة عدد من الموظفين والعديد من المستخدمين وقد لاحظت من خلال ذلك أن رجال الأعمال الفرس أصحاب المكاتب التجارية لم يستحدثوا فى مكاتبهم بعد نظام الحمـالين والسعاة . وعندما كان القبطان يتحدث مع رئيس التجار ومع « ميرزا » أحد رجـاله عـن المعاملات التجارية جلست مع « الدكتور هيراجى » نقرض اظافرنا حتى استبشرنا بقرب مغادرتنا للمكان عندما احضروا لنا الشاى . وقد جرت العادة فى المنازل العربية على تقـديم القهوة فى فناجين صغيرة ، اما فى البيوت الفارسية فقد جرت العادة على تقـديم الشـاى بالسكر بدون حليب فى أكواب صغيرة أو تقديم الشربات . وكان من الأفضل لو قـدم لنـا الشربات الفارسى اللذيذ الطعم ، حتى الشاى الأسود الطيب المذاق يبدو مستساغا عنـد الشرب ، الا ان الشئ المؤكد ان « **وضعا قديما قد ولى وحل محله وضع جديد** » ، فقد دخل الساحل الفارسى من الخليج مؤخرا الشراب المنعش المجوسى الصنع ، اضـافة الى بعض

المشروبات المشبعة بالغازات والمستخلصة من الأعشاب العطرة عن طريق الغلى . وقد اعتاد الفرس والعرب على تقبل مذاقها بالرغم من رداءة طعمها وذلك حرصا منهم على تعاطى أحدث أنواع المشروبات . وقد قدم لنا رئيس التجار كؤوس الشراب المنعش الذى كان علينا ان نرتشفه أو نبتلعه حيث شعر كل واحد منا بالحاجة الى ذلك بعد جولتنا الطويلة فى المدينة . اما ما تبقى من هذا الشراب فى قيعان الكؤوس فقد شاهدت خدم الرئيس فى الغرفة المجاورة وهم يتجرعونه بشراهة شديدة تدل عليها الأصوات المسموعة الصادرة من حركة الشفاه النشطة . وبعدها انصرفنا عن هذا الرجل البوشهرى الثرى المتكبر الذى تكرم علينا بمصافحتنا بيده دون ان ينهض من فوق كرسى مكتبه الذى يحتله كالمسند الملكى حيث مد يده الينا محدقا فينا بنظره كأنه يتوقع ان ننحنى امامه لتقبيلها . وبعد ان تبادلنا عبارات التوديع المألوفة مثل « خدا حافظ » ودعنا « الدكتور هيراجى » وعدنا ادراجنا الى رصيف مبنى الجمارك القذر واستقلينا قاربا عائدين الى الباخرة « زيانى » ولقد لفت نظرى فى مبنى الجمارك وجود اعلانات كثيرة مكتوبة باللغتين الفارسية والفرنسية ومن بينها العبارة المألوفة « ممنوع التدخين » المكتوبة بالفرنسية . ففى فارس كما هو عليه الحال فى مصر فان الطبقة المتعلمة المثقفة تستخدم الفرنسية عموما أكثر من استخدامها لأية لغة أجنبية أخرى حيث ان الفرنسية كانت ومازالت تعتبر اللغة الدبلوماسية.وبما ان الريح كانت معاكسة لنا فى إبحارنا نحو الباخرة فقد كان علينا أن نطوف كثيرا ، وبعد ان قمنا بالتفافة طويلة وصلنا الى الباخرة حيث مازالت عملية تفريغ الحمولة جارية فيها على قدم وساق وذلك فى حوالى الساعة ٣٠ , ٤ بعد الظهر . ومن أجل الحصول على التيار الملائم للابحار قمنا برفع المرساة فى الحال وانطلقنا لاتخاذ موقع لنا فى المرفأ الخارجى ، مصطحبين معنا على جانبى الباخرة حشدا من مراكب الصنادل بعضها محمل جزئيا وبعضها الآخر لا يزال فارغا ، فقد كانت عملية معقدة الا انها تمت بسلام . وطبقا للقاعدة الواجب اتباعها الآن فقد اصطحبنا معنا على متن الباخرة من هنا مرشدا بحريا لنا حيث رافقنا فى رحلتنا الى البصرة وبالعكس ، وكما سبق ان ذكرت فقد اصبح الارشاد البحرى الآن الزاميا فيما وراء عائق جرف البصرة وفى أعالى مياه شط العرب . كما كان علينا ان نحمل معنا على ظهر الباخرة . من هنا مجموعة كبيرة من العمال من أجل المساعدة على تفريغ وشحن الحمولة فى الكويت والمحمرة والبصرة ، نظرا لوجود صعوبة كبيرة فى الحصول على الأيدى العاملة المناسبة فى هذه المرافىء وأخيرا تم تفريغ كامل الحمولة المخصصة لأبى شهر فى الساعة ــ , ٨ مساء ورفعت المرساة وابحرنا باتجاه الكويت .

الفصل الخامس والثلاثون

الكويت

أمضينا حوالى ست عشرة ساعة فى الابحار من أبى شهر الى الكويت محطة توقفنا القادمة . وقد استمر الطقس صحوا وباردا على نحو منعش ولطيف ، وهبت علينا طوال الليل ريح قوية باردة وهى ريح الشمال الشديدة المألوفة فى الخليج حيث جعلت البحر نشطا وامواجه مضطربة متلاحقة . وفى الصباح الباكر من يوم ٢١ ديسمبر ١٩١٦ مررنا بالقرب من جزيرة « كبر »* الصخرية التى يوجد فيها منار لهداية السفن . وقد تراءى لنا الآن بالكامل الى جانبنا الأيسر ساحل نجد او الاحساء بقفاره المترامية الأطراف التى تغطيها كثبان الرمال الجرداء ، وعلى مدى أبعد الى جانبنا الايمن تقع فى الطرف الشمالى الشرقى منطقة خوزستان الجبلية المقفرة او عربستان الفارسية حيث تطل من بعيد قمة جبل « بهبهان » الشامخة التى بالامكان مشاهدتها بسهولة من بعيد اذ غالبا ما يغطيها الصقيع طيلة الشطر الأكبر من السنة وفى الساعة ٣٠ , ١١ صباحا تراءت لنا الكويت وأول ما يلفت النظر من معالمها البارزة هو المقر الجديد لاستراحة صاحب الشأن والسلطان شيخ المحمرة ، وهو مبنى كبير واسع مطلى باللون الأبيض الناصع ، اذ غالبا ما يأتى حاكم المحمرة الى هنا فى زورقه البخارى لتمضية نهاية الأسبوع . وبعد ان اجتزنا عوامتين طافيتين فى البحر لا يمكن الوثوق بهما كعلائم للاستدلال طبقا لما هو مشار اليه فى الخريطة التوضيحية للباخرة ، وبعد ان قمنا بالدوران حول « رأس العجوزة » دخلنا فى المرفأ

* تعقيب تبعد جزيرة « كبر » بحوالى ٢٠ ميلا عن ساحل الكويت .

الجميل المتمتع بحماية طبيعية حصينة ، والقينا مرساتنا هناك بعد الظهر بقليل ، قبالة مدينة الكويت حيث يظهر حصن الشيخ واضحا ضمن الصف الطويل للمباني الممتدة بمحاذاة الشاطىء الرملي .

ويرجع تاريخ تأسيس الكويت الى الأزمنة القديمة الغابرة ،وهي كالبحرين تستمد انتماءها الأصلي من المستوطنين او المهاجرين الفينقيين والأغريق الأوائل . ويقال أنها كانت أرض « تيريدوس » القديمة ، وبالرغم من ان أسماء المدن والمواقع المجاورة قد تم تحريفها الآن كثيرا او استبدالها الا انها تبرهن جميعا على صحة هذا الأصل القديم وقد اشار « اندروستين » رفيق القائد البحري المقدوني الشهير « نيارخوس »* بعد رجوعهما من فتوحات الاسكندر الأكبر في الهند وابحارهما على طول امتداد مياه الخليج الى جزيرة « إيكاروس » (. فيلكه الآن) الواقعة قبالة الكويت حيث قال أنه شاهد فيها معبد « ابولو » ، كما شاهد على الساحل الأدنى مستوطنه « جيراه » الأغريقية ، وهي أقدم سوق واقعة بين آسيا وأوربا . وفي قبالتها وجد مواقع أسماها « تايلوس » و « ارادوس » حيث كتب عنها قائلا بأنه شاهد فيها « معابد مماثلة لمعابد الفينيقيين » . كما أشار القائد الاغريقي « نيارخوس » الى اسم مدينة تقع في هذا الجزء من الخليج تسمى « صيدوندونا » والى جزيرة قام بزيارتها تسمى « تيرين » التي قال عنها أنه شاهد فيها قبر الملك الاسطوري « اديتراس » الذي يفترض أن الخليج اشتق اسمه القديم منه وهو البحر الاريتري .

ولم يبق من هذه المستوطنات القديمة أي أثر الآن سوى تلك الآثار التي تم استكشافها بالقرب من المنامة أكبر جزر البحرين والتي تقدم ذكرها مسبقا . وقد أكد الكتاب الأغريق القدماء أمثال « هيرودوت » * و « سترابو »* * و « بطليموس » * * *

---

* تعقيب : « نيارخوس » قائد وبحار مقدوني ، تولى قيادة اسطول الاسكندر الاكبر المقدوني من مصب نهر السند الى مصب دجلة والفرات (٣٢٥ - ٣٢٤ ق . م) استغرقت هذه المغامرة البحرية (١٣٠) يوما متواصلة ابحر خلالها على طول امتداد الخليج كتب وصفا دقيقا عن هذه الرحله يعتبر وثيقة جغرافية هامة . اما « انوروستين » فقد أرسله الاسكندر الاكبر كما ارسل « ارخياس » من قبله و « هيرون الصولي » من بعده لاستطلاع سواحل شبه الجزيرة العربية ولم يمض « أندورستين » الى أبعد من جزر « تايلوس » (البحرين) ، وكذلك « ارخياس » . اما « هيرون الصولي » فقد طاف حول سواحل الجزيرة العربية ووصل كما يبدو الى اعالي البحر الأحمر .

تعقيب : هيرودوت : ٤٨٤ - حوالي ٤٢٠ ق . م . مؤرخ ورحالة اغريقي كبير يعرف باسم « أبي التاريخ » . ويعتبر تاريخه من أهم المراجع لمعرفة أخبار الامم القديمة .

* تعقيب : سترابو أو سترابون ٦٤٠ ق . م - نحو ٢٣ م جغرافي ومؤرخ اغريقي ، تعد أثاره مرجعا معتمدا في دراسة التاريخ الجغرافي القديم .

* تعقيب بطليموس : (القرن الثاني الميلادي) رياضي وجغرافي وعالم فلك اغريقي ، قال بنظرية الأرض ثابتة وسط الكون وان الكواكب تدور حولها وهي نظرية كانت سائدة حتى نهاية القرون الوسطى .

و« بلينيوس الأكبر » * * هذه الروايات . وقد عـرفت هـذه الأرض قـديما بـاسم « بونت » كما عرف سكانها باسم « بونيين » (بونيقيين) وهو اصطلاح جاء منه دون شك اسم « فنيقى » وكلمة « بونى » * * عند وصف هؤلاء القوم الغـابرين وحـروبهم وخداعهم .

* تعقيب : بلينيوس الاكبر : ٢٣ ــ ٧٩ م .
عالم رومانى صاحب الموسوعة العلمية « التاريخ الطبيعى » المكونة من ٣٧ جزءا .

* تعقيب : يبدو ان المؤلف يشير هنا الى الفنيقيين باختلاف مواطنهم . فالفنيقيون شعب سام قديم سكن فنيقيا أى الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط وذلك حوالى العام ٣٠٠٠ ق . م ولا يعرف المؤرخون على وجه الدقة موطن الفنيقيين الاصلى إلا أن كثيرا منهم يذهب الى أنهم وفدوا الى فنيقيا من منطقة الخليج العربى . وقد انشأ الفنيقيون فى موطنهم الجديد دويلات مزدهرة على هيئة مدن احتفظت دائما بقدر من الاستقلال المحلى منها بيبلـوس (جبيـل) وصور وصيدا وبيروت وعكا و أوغاريت (راس شمرا ـ شمالى اللاذقية) .

وقد اتجه الفنيقيون الى التجارة والملاحة . فكانت مراكبهم تجوب البحر الأبيض المتوسط حاملة الى بلدانه خشب الارز والصبغ الارجوانى والزجاج والمنسوجات . وقد اسسوا مستعمرات أو محطات تجارية وراء البحار أعـظمها قرطاجة فى شمال افريقيا (فى عام ٨١٤ ق . م) ووصلوا الى شواطىء انكلترا وسواحل غرب أوربا وابحروا حول القارة الافريقية . ويعتبر استنباطهم الابجدية الفنيقية ونشرها فى العالم أعظم ماثرهم الحضـارية على الاطـلاق وقـد انتشرت اللغة الفنيقية فى المستعمرات التى انشاها الفنيقيون فيما وراء البحار وبخاصة فى قرطاجة حيـث سـادت « اللغة البونية » وهى شكل متاخر من اشكال اللغة الفنيقية . و أصبحت لغة الامبراطورية القرطاجية وقـد ظلـت « اللغة البونية » حية على ألسنة الفلاحين فى شمال افريقيا حتى القرن السادس الميلادى . أما قرطاجة التى قـامت حولها حضارة كبيرة و ازدهرت فيها الصناعات والفنون فقد احتدم الصراع بينها وبين . روما حول السيادة على الجزء الغربى من البحر الابيض المتوسط وقد ادى هذا الصراع الى نشوب « الحروب البونية » (البونيقية) الثلاث بين الحاضرتين والتى امتدت بين منصف القرن الثالث الى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد (٢٦٤ ـ ١٤٦ ق . م) والتى انتهت بتدمير قرطاجة واحراقها فى عام ١٤٦ ق . م .

الفصل السادس و الثلاثون

مدينة الكويت

تقع مدينة الكويت في الزاوية الشمالية الغربية لرأس الخليج على الشاطىء الجنوبي لمرفأها الذي تحيط به اليابسة من ثلاث جهات . ويقع البحر من جهة وتقع الصحراء الرملية المترامية الأطراف من جهة أخرى . فاسم الكويت في اللغة العربية هو نفس اسم الكوت الذي اكتسب الآن شهرة واسعة في جميع أنحاء العالم لارتباطه بالمكاسب العسكرية البريطانية * ، ويعني هذا الاسم المدينة المحصنة * . وهناك دلائل تبشر بان هذا الموقع الذي يتمتع بأهمية تجارية كبيرة سوف يكتسب المزيد من الأهمية والشهرة في ظل الظروف الحالية المتغيرة والسريعة التغيير وسوف يبرز في المستقبل كمركز تجاري كبير في هذه الأنحاء .

ويبلغ تعداد السكان هنا ما بين خمسة عشر إلى عشرين ألف نسمة . وتستغرق الرحلة البحرية بالباخرة بين الكويت والبصرة في الوقت الحاضر ما بين ٣٠ إلى ٤٠ ساعة . ولكن بحكم وقوعها مباشرة إلى الجنوب من ميناء التمور الشهير فان المسافة الفاصلة بينهما برا على خط مستقيم تعتبر قصيرة جدا ، كما أن مستوى سطح الأرض المنبسط لا يشكل أي عائق أمام مد سكة حديد تربط بينهما والتي يجب أن تقام عاجلا غير اجلاً بحيث تصبح الكويت نهاية الخط الجنوبي الشرقي لسكة الحديد هذه .

تعقيب : من المرجح أن المؤلف يقصد هنا المعركتين الشهيرتين اللتين نشبتا حول مدينة الكوت العراقية الواقعة على نهر دجلة شمالي مدينة البصرة ابان الحرب العالمية الأولى حيث نشبت معركة الكوت الأولي في سبتمبر ١٩١٥ م بين البريطانيين من جهة والأتراك من جهة أخرى استولى خلالها البريطانيون علي المدينة ثم فقدوها . وجرت معركة الكوت الثانية من ديسمبر ١٩١٦ حتى فبراير ١٩١٧ م وأدت إلى وقوع المدينة مرة أخرى في أيدي البريطانيين ، وهذه المعركة كانت مصيرية بالنسبة للحكم التركي في العراق .

* تعقيب : كلمة الكويت تصغير كوت (بضم الكاف) وتعني القلعة الصغيرة أو الحصن الصغيرة وقد سميت الكويت بهذا الاسم نسبة إلى حصن صغير كان موجودا فيها بناه في القرن الثامن عشر الميلادي « محمد بن عريعر » زعيم بني خالد وجعله مستودعا للزاد والذخيرة .

لذا فان توقعاتها المستقبلية تبدو واعدة للغاية وتدعو للتفاؤل ، وستضيع فرصة ثمينة من أيدى رجال الأعمال الطموحين في بومباى إذا هم توانوا أو ترددوا في الحصول على امتيازات متنوعة داخل وحول حدود الكويت . وكانت تركيا التى أحكمت سيطرتها على البصرة تطمع منذ فترة طويلة في مد سيطرتها على الكويت ، وقد بذلت محاولة جدية . في عام ١٨٩٨ م للسيطرة عليها بأية وسيلة . وبما أن انكلترا مدركة جدا للعواقب الوخيمة التي تترتب على نجاح الأتراك في محاولتهم هذه فقد تدخلت وأحبطت تلك المحاولة ، ومنذ ذلك الحين وضعت الكويت وشيخها تحت الحماية البريطانية التي تعني « ارفعوا أيديكم » لكل من تسول له نفسه بالتدخل هناك . ويجب الآن بأكثر من أي وقت مضى المحافظة على هذا الوضع دون ترك أى ثغرة دبلوماسية أو غيرها يتسلل منها التدخل أو التطفل الأجنبى . وقد تغيرت الخريطة بالفعل . فكل بلاد الرافدين التي كانت ترفرف عليها راية الهلال الأبيض المشئومة نزولا الى الكويت والى مدى أبعد منها وصولا الى البحرين يجب أن توسم الآن بالختم الملكى البريطانى باعتبارها ممتلكات خاضعة للسيادة البريطانية . فجميعها يجب أن تصطبغ باللون البريطانى ، ودعنا نأمل الا يعيق تحقيق هذه الغاية هوى ، أو هوس اشتراكى ، أو مس من الجنون ، أو وهن فى القيادة السياسية ، أو حيلة دبلوماسية ، أو خداع تكتيكى من أية دولة أجنبية . فالمصالح البريطانية والهندية فى الخليج والشط ونهر كارون تزداد عاما بعد عام ، لذا يجب الآن وفى المستقبل المحافظة على السيطرة البريطانية فى هذه الأنحاء سليمة لاتمس فى مواجهة كل تدخل خارجي .

ومرفأ الكويت هو عبارة عن حوض مائى فسيح ، يتفاوت عمقه مابين أربعة الى تسعة باع * أو أكثر ، وقد رسونا بأقرب مايمكن للباخرة أن تقترب من الشاطىء بسلام وذلك على بعد ثلاثة أميال تقريبا من المدينة ، التى بدت من بعيد بمظهر خلاب بواجهتها البحرية الطويلة التى يقع فيها الحصن ، وقصور الشيخ ، ومسكن المعتمد السياسى البريطانى** ، ومبنى الجمارك ، والصفوف المتراصة للبيوت المتميزة بأسطحها المنبسطة المألوفة الطابع ، ومكاتب التجار الميسورين وغيرها من المبانى . ويرسو هناك زورقان بخاريان يملكهما الشيخ ، وكان المرفأ مفعم بالحياة ونابض بالحركة نتيجة للتنوع الكبير من القوارب المحلية والصنادل والمراكب الساحلية المصنعة محليا الممتدة هناك .

وتشتهر الكويت فى كافة أنحاء الخليج بصناعة السفن الممتازة ، فقد كان الشاطىء مزدحما بعدد كبير من السفن التى يجرى تصنيعها أو المراكب الجديدة الجاهزة للانزال فى البحر . وبمجرد أن استقرت باخرتنا فى رسوها صعد على متنها « السيد عبد اللطيف »

---

* تعقيب . الباع قياس بحرى يختلف طوله باختلاف البلدان ولكنه يتراوح بين متر ونصف المتر ومترين .

* تعقيب : تم تعيين أول معتمد سياسى بريطانى وكيلا عن الحكومة البريطانية فى الكويت فى عام ١٩٠٤ م وذلك فى أعقاب الزيارة الرسمية التى قام بها للكويت الحاكم البريطاني للهند « اللورد كيرزون » فى نوفمبر ١٩٠٣ م وأسفرت عن هذا التعيين . وأول من شغل هذا المنصب هو (الكابتن سى ج نوكس) .

مندوب الشيخ المفوض بشئون الجمارك ، و « ميرزا حبيب » مستخدم وكيل الشركة المكلف باداء العديد من المهام ، والطبيب الانجليزى « الدكتور كيلى » حيث أمضوا العصر معنا . وبعدهم بقليل جاء التجار المرسل اليهم البضائع أو رجالهم وبصحبتهم عدد من مراكب الصنادل البطيئة المطلية باللون الأسود التى ربطت بكلا جانبى الباخرة كأنها أشبه بقطيع من الدرافيل وهى تهاجم وحشا بحريا هائلا . وعلى أثر ذلك شرع العمال القادمون من أبى شهر وبدون أن يضيعوا أى وقت فى تفريغ الحمولة ونقلها الى هذه الصنادل وسط ضجة كبيرة من بلبلة الألسن ، وقعقعة المحركات ، وصرير الروافع المتواصل ، وصلصلة السلاسل وهى تمر عبر البكرات الحديدية فى أعلى قوائم الروافع . فهذا المشهد يمثل اعادة للمشاهد التى رأيتها فى الموانىء السابقة ، وجميعها تتسم بالعجلة والضوضاء وحركة العمل الدءوب . وقد استمرت عملية التفريغ حتى قاربت الساعة منتصف الليل .

الفصل السابع والثلاثون

النزول فى الكويت

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى جاء السيد « عبد اللطيف » ودعانا لتمضية النهار فى المدينة وتناول طعام الافطار معه . فهو شخصية لطيفة للغاية ومفخرة للشعب العربى . وهو رجل متوسط العمر ، مكين البنية ، طويل القامة ، وسيم الملامح ، اخلاقه كريمة ودية وجذابة ، وبسبب وداعته وصراحته وبساطته شعرت بالارتياح معه سريعا . وهو يتكلم الانكليزية الى حد ما كما يتكلم الهندية بطلاقة مثل العديد من العرب الذين هم على صلة مع بومباى ، لذا فقد انسجمنا معا بصورة حسنة . فالى جانب كونه مسئولا عن جمارك المرفأ فهو ايضا عضو فى مجلس الشيخ الذى يضم عددا كبيرا من المشايخ والأعيان ، وقد اكتسب سمعة عالية وتقديرا كبيرا لكفاءته واستقامته . وقد قمنا انا والقبطان برحلة بحرية ممتعة الى الشاطىء فى قاربه الفسيح مستلقين على السجاد والوسائد الوثيرة . وقد رسونا دون أن تبتل أقدامنا على رصيف الجمارك وهو عبارة عن كاسر للأمواج صغير الحجم ، ردىء البناء ، تحيط به الكتل الصخرية المتفاوتة التى يتخللها الوحل اثناء الجزر باكثر مما يتخللها الماء . وكما هو عليه الحال فى معظم الانشاءات القائمة فى هذه الأرض القديمة باعتبار ذلك صفة مميزة للشرق الجامد الذى لا يطرأ عليه تغيير فان عتبات المرفأ وجدران كاسر الأمواج كانت متصدعة ومتهالكة البناء . وقد اخبرنا السيد « عبد اللطيف » بانه سيتم قريبا توسيع كاسر الأمواج وترميمه بالكامل . ان شاء الله ! على أمل ان يتحقق ذلك . وقد قمنا أولا مع صاحبنا الوجيه المفوض المسئول عن الجمارك باعتباره دليلنا بزيارة مكتبه الكائن فى مبنى الجمارك حيث قدمت لنا هناك كالعادة القهوة التى لا مفر منها . وبعدها قمنا بالتجول فى أرجاء مبنى الجمارك ، وهو بناء واسع قائم بغير انتظام حيث كان بمقدورى ان أرى الرزم والأكياس والسلال والعلب والصناديق بمختلف انواعها واحجامها وهى مكدسة ومتناثرة هنا وهناك فى حالة شديدة من الفوضى يتعذر اصلاحها . فقد كان

المبنى ردىء التهوية والاضاءة ، أرضيته غير مبلطة وهى عبارة عن رمال رخوة وكتل من الصخور الصلبة .

وقمنا بعد ذلك بجولة استطلاعية فى اسواق الكويت وخارجها وما حولها حيث تشبه هذه الاسواق من حيث التصميم ونمط البناء نظيراتها فى الأماكن الاخرى التى سبق لى ان وصفتها من قبل . وفى كل مكان يذهب اليه مرشدنا المفوض وعضو مجلس الدولة كان يقابل بالترحاب والتحيات الدالة على الاحترام التى كان يرد عليها بحرارة ومودة اخوية ، وقد زرنا سوق الجزارين التى كانت مشاهدتها مثيرة للمتعة وان لم تك تبعث على السرور حيث تعرض فيها قطع اللحم الكبيرة التى بامكان المرء أن يتصور انها لحوم الأبل حيث تقدم تلك الوسيلة النافعة للنقل فى الصحراء خدمة إضافية هنا . فأى شىء يتعلق بالصحة هنا كما هو عليه الحال فى بقية أنحاء الخليج ليس له محل فى التفكير ، كما أن الروائح النتنة المنبعثة من مخلفات البهائم ، واللحوم المذبوحة لتوها ، والقذارة المنتشرة لا تسمح لنا بالتريث هنا لفترة أطول . وبعد خروجنا من الأسواق وجدنا أنفسنا فجأة أمام ساحة واسعة جدا أو خلاء مفتوح فى الزاوية الجنوبية الغربية من السوق ، ومن بين الأشياء التى شاهدناها هناك عدد من الصرافين العرب ، كل منهم جالس أمام مجموعة من الصناديق مختلفة الأحجام ضعيفة الصنع مليئة بالعملات النقدية ، ولها اقفال ومفاصل حديدية من طراز بدائى جدا إلى درجة أن أقل المحترفين خبرة فى مهنة النشل والسرقة بامكانه أن ينتشلهم باسهل ما يمكن . وقد أدهشنا السيد « عبد اللطيف » عندما أكد لنا ان أمانة القاطنين فى الكويت عالية جدا إلى درجة أن هؤلاء الصرافين المحليين عندما يذهبون إلى بيوتهم فى المساء فانهم يتركون هذه الخزائن فى مكانها كما هى عليه فى الخلاء المفتوح ولم تحدث أية حالة للسرقة إطلاقا ! ولا أرغب اطلاقا القول بان ذلك غير قابل للتصديق لكننى أثق ان هؤلاء الصرافين الكويتيين السعداء الطالع يجرون معاملاتهم التجارية مع هؤلاء الناس الطيبين بصراحة ووضوح على نحو متبادل .

وفى مكان ليس ببعيد من هنا يوجد مبنيان متواضعان يتكونان من طابق واحد ويتميزان بالبساطة والخلو من الزخرفة ، ويقع كل منهما فى جانب من هذه الساحة ، ويجلس حاكم الكويت فيهما يوميا لاقامة العدل حيث يجلس فى المبنى الأول صباحا ويجلس فى المبنى الآخر عصرا . وعلى مسافة أبعد فى داخل المدينة توجد مدرسة واسعة حسنة البناء قمنا بزيارتها والاطلاع عليها * ، وهى عبارة عن مبنى مربع الشكل به فناء واسع ، وفصول عديدة تقع فى الطابق الأرضى مجهزة بطاولات صغيرة الحجم منخفضة ، وقطع من البساط أو السجاد ، وكتابات عربية ملصقة على الحائط ، بينما يشغل المدرسون الغرف العلوية . ويوجد فى هذه المدرسة حوالى اربعمائة من الأولاد العرب الصغار حيث يجلسون القرفصاء

* تعقيب : من المرجح أن المؤلف يقصد هنا المدرسة المباركية التى تاسست سنة ١٩١١م .

على الأرض ، ويتلقون دروسا فى القواعد والنحو العربى والقرآن والحديث والسنة . ولا يجوز تعليم شيء آخر غير ذلك . فالقاعدة الذهبية التى وضعها « عمر » بالرغم من انها تعتبر من اللآلىء الزائفة فى التاريخ إلا انها لا تزال دون شك متبعة هنا : ان كلام الله أو القرآن يفى بكافة احتياجات البشر ، وما عداه يجب أن يلقى به فى النيران المحرقة

وعندما استفسرت أخبرونى انه لا يتم تشجيع أى نوع من الألعاب الخارجية أو الرياضية هنا ، وقد أوصيت بادخال لعبتى الكركيت والتنس الأرضى إلا أن مرشدنا العربى الذى كان يرافقنا شخصيا هز رأسه المتشكك وهو يبتسم وبامكان المرء أن يتصور انه عندما يحصل الصبى العربى على الكرة الطائرة أو الطيارة الورقية أو الطوق المدور فسوف يكون فى حالة أفضل من الناحيتين المعنوية والجسمانية . ولكن من الواضح أن العرب الكبار فى السن

يعتبرون مثل هذا التغيير ضربا من البدع والهرطقة . وأتصور على أية حال إنه إذا كان للكويت أن تسير مع الزمن فان الكثير من هذه الأساليب الجامدة والطرق البالية للتفكير الذهنى يجب أن تخضع إلى تغيير جذرى شامل فى المستقبل القريب . وعلى مدير المدرسة أن يسافر كثيرا خارج بلدان أحفاد إسماعيل التى تعرضت لتجفيف الشمس ردحا طويلا من الزمن وتركت مهملة لقرون عديدة .

---

* تعقيب : هذه القاعدة لا أساس لها من الصحة ، ولم ترد على لسان الخليفة الثانى « عمر » رضى الله عنه أو غيره من الصحابة .

الفصل الثامن و الثلاثون

زيارة فى بيت مضيفنا

بعد اجتيازنا لشبكة معقدة من الممرات الضيقة والأزقة المركبة المحصورة من الجانبين بين البيوت ذات الأسطح المنبسطة المنخفضة ، والأبواب المتزعزعة ، والجدران البيضاء الشاحبة المجردة من الزينة والزخرفة والخالية من النوافذ المطلة على الطرقات ، وصلنا الى منزل « الدكتور كيلى » واصطحبناه معنا ، وذهبنا جميعا للسلام على المعتمد السياسى البريطانى لكننا وجدناه غائبا ، مرة اخرى واصلنا سيرنا على الاقدام عبر الطرقات الملتوية التى يبدو انها تمتد الى مالا نهاية ، وسعدنا بوصولنا الى مسكن السيد « عبد اللطيف » الذى يقع دون شك فى أحد الأحياء الراقية بالكويت حيث يقطن فى ذلك الحى الكويتيون الميسورو الحال .

وهذا البيت مثله مثل معظم البيوت العربية لا يوجد فيه شىء يستحق المشاهدة من الخارج لكنه متماسك ومريح من الداخل . وهو بناء مربع الشكل يتوسطه فناء داخلى . ويتميز مضيفنا بكونه راقيا فى اسلوب حياته ويفضل العيش بطريقة عصرية . وتوجد فى بيته حجرة للاستقبال مؤثثة وفقا للطراز الانكليزى تحوى ارائك وثيرة ومقاعد مريحة وطاولات والبومات صور ومناظر عادية وبعض معدات الزينة الرخيصة .

ويوجد هنا ايضا جهاز حديث للحاكى ، وقد دهشنا من ضخامة حجمه ، وانتابتنا غبطة عارمة عندما انسابت منه بعض الألحان العربية الرنانة . وتوجد هنا بعض قطع السجاد الصغيرة كالتى تستعمل فوق ظهور الدواب وتسمى « خُرْج » ولكنها تستعمل هنا كأغطية جميلة جدا لمساند المقاعد اشبه بالأغطية التى يسند عليها الجالس رأسه . وهذه القطع مصنوعة من صنف فاخر جميل ، ومطرزة فى كل بوصة مربعة منها بأعداد لا تحصى من النقوش البديعة . فكلما كانت هذه التطريزات اكثر كانت صناعتها افضل ، ومن هنا تعرف جودتها .

وبعد ان امضينا استراحة قصيرة وغسلنا ايدينا انتقلنا الى الحجرة المجاورة لتناول طعام الافطار . فقد كانت وجبة غذاء على الطريقة الأوربية استعملت فيها الشوك والسكاكين . وقد كانت المائدة كاملة تتألف من طاولة ومقاعد ومناديل وصحون واطباق وكؤوس وسكاكين وشوك وملاعق . وكل شيء فيها جديد تماما . ومن الواضح ان معظم هذه الأدوات جديدة وتستعمل للمرة الأولى حيث وضعت لاستعمالنا الخاص وذلك اكراما لنا . ويبدو واضحا ان مضيفنا كان فخورا بهذا العرض الأنيق للمائدة . أما الطعام فبالرغم من كونه وفيرا إلا انه كان محاولة غير موفقة فى مجال المطبخ الانكليزى . فسكاكين برمنغهام كانت جديدة للغاية ، لذا فانها لم تقطع « الروتى » الذى كان يتألف من زوج من لحم الدجاج المشوى الكبير الحجم ، ومن حسن الطالع انه لم تضف اليه صلصة المرق وإلا فان ذلك سوف يكون مصدر ازعاج لنا . اذ قد تنزلق علينا بعض قطرات المرق اثناء عملية تشريح الدجاج . أما ابن مضيفنا وهو غلام صغير ، وسيم الملامح ، متوقد الذهن ، مفعم بالأمل الواعد ، وكان جالسا الى جوار ابيه وهو يرتدى الزى العربى الكامل ويضع العقال والكوفية على رأسه فقد تجنب هذا الغلام بفطنته وذكائه استعمال الأدوات الأوربية ، واستخدم عوضا عن ذلك اصابعه طوعا واختيارا فالتقط حصته كاملة من الدجاج ، واتصور انه أشبع نفسه من الطعام باكثر منا . بعدها تم تقديم الشاى لنا وهو عبارة عن مزيج غريب من الشاى والتوابل والحليب ومقدار وافر من السكر حيث تم تقديمه لنا جاهزا فى أكواب كبيرة مع الصحون . وقد ارتشفناه دون ان يظهر على وجوهنا اى أثر للتقطيب والتغضن ، وهى عملية صعبة من المجاملة والتأدب . واكتملت بذلك وجبة الصباح .

ومن الواضح ان استعمال الأثاث الأوربى بجميع اصنافه قد بدا يشيع بسرعة فى هذه المشيخات الصغيرة المطلة على الخليج . وحينما ينتهز رجل من منطقة « شكلا بازار » التجارية فى بومباى الفرصة ويبادر باقامة مشروع تجارى هنا وفى البلدان المجاورة فسوف تلقى تجارته حتما رواجا كبيرا ولكن يجب عليه ان يركب التيار فى ساعة المد وان ينتهز الفرصة فى اللحظة المواتية قبل ان يسبقه الآخرون .

الفصل التاسـع والثلاثـون

زيارتنا لشيخ الكـويت

بعد أن أرسلنا مقدما إشعارا بقدومنا ، سرنا على أقدامنا مرة أخرى في طريقنا نحو قصر الحاكم ، وهو عبارة عن مبنى ملتوى يتكون من عدة وحدات إنشائية ويمتد فـوق مسـاحة واسعة من الأرض . وإذا كان هذا المبنى لا يتميز بطابع مهيب فهو يتميز بالتأكيد بمنـظر رائع ولربما يتميز أيضا بكونه رحبا فسيحا ومريحا ، كما يبدو جميلا من خـلال شرفـاته العديدة ، وسطوحه المنبسطة والمنظر العام الشامل الممتد إلى بعيد الذى يحيط به من كل جانب . وبعد أن صعدنا فوق سلم خشبى خال من الزخرفة ومتخلخل إلى حد ما لا يتـلاءم إطلاقا مع وجوده فى قصر ، دخلنا فى غرفة واسعة للانتظار مجاورة لقاعة مجلس الشـيخ ولغرف المعيشة . وكانت الغرفة مزدحمة بثلة متنوعة من اتباع الشيخ وحرسه الشخصى ، كما يقف خارجها الحراس والعساكر الذين كانوا ينظرون إليناشزرا بعيون مرعبة تـواقة للقتال ، كما كانوا مدججين بتشيكلة متنوعة من الأسلحة ، كالبنادق بأنواعها الحـديثة والقديمة ، والمسدسات بمختلف أنواعها ، والسيوف الطويلة ، والصوارم المعقـوفة ، والسكاكين القاطعة ، والنصال الحادة ، والخناجر ، والحراب ، والرماح ، وجميع هـذه الأسلحة كافية لملء ترسانة صغيرة أو لتمثيل مسرحية حربية شرقية . ويـرتدى هـؤلاء الرجال « البرنس »* والعباءات الطويلة المتهدلة البيضاء والسوداء والبنية والمخططة أو المتعددة الألوان ، ويضعون على رءوسهم الكوفيات المتدلية فـوق أكتـافهم ، ويلتف حولها حبال بيضاء أو عقال صنع من شعر الجمال ، فهذه النخبة من العساكر تبدو مـرعبة ومنفرة وملائمة تماما لاداء الخدع الحربية والقيام بأعمال السلب والنهب وارتكاب أعمال القتل . وبعض هؤلاء الرجال يقفون فى هيئة عسكرية ، وبعضـهم الآخـر يجلسـون أو

* تعقيب : رداء غطاء الرأس جزءا منه متصلا به .

يستلقون على الأرض ، يثرثرون ويدخنون ، ويغفون كما يحلو لهم . وبإمكان المرء أن يتصور أن هؤلاء العساكر يشبهون أولئك الفرسان الضوارى اتباع «الأمير صلاح الدين» الذين دحروا وصدوا الموجات المتعاقبة للصليبيين أو يشبهون رسل القتل وفرق الاغتيال التابعين « لحسن الصباح» * الذى كان اسمه يثير الرعب فى جميع أنحاء فارس وسوريا وفلسطين . وبعد أن مررنا عبر هذه النماذج من العساكر العرب الذين كانوا يتفرسون فينا مليا ، تم إرشادنا نحو غرفة المجلس حيث قام صديقنا السيد « عبد اللطيف » بتقديمنا إلى حاكم الكويت . فالغرفة التى يتداول فيها الشيخ الرأى حول شئون الدولة مع أعضاء مجلسه عبارة عن قاعة كبيرة واسعة رحبة ذات سقف مرتفع مزخرف على نحو غريب بنقوش بسيطة ملونة من الأشكال الجمالية الشهيرة المصقولة والمحفورة داخل أطر صغيرة مذهبة مربعة الشكل . وقد أقيمت فى صدر الغرفة التى تطل على المرفأ منصة وضع عليها كرسى كبير مذهب ، ويصطف على جانبى القاعة عدد من الأرائك والمقاعد ، كما فرشت أرضية الغرفة بالسجاد الفاخر . وعلقت على الجدار عند المدخل صورة ملونة مزينة لصاحب الجلالة الملك الامبراطور «جورج الخامس» .

وكان الشيخ أو حاكم الكويت الذى يحمل وسام فارس امبراطورية الهند من الدرجة الأولى جالسا على كرسى الحكم فوق المنصة ، وقد استقبلنا بحفاوة بالغة ووقف مصافحا لنا بيده واجلسنا إلى جانبه الأيسر على مقربة دانية من المنصة . وهو رجل فى الخمسين من عمره تقريبا أو أكثر من ذلك بقليل إلا انه يبدو دون سنه الحقيقية إذ يتمتع بمظهر حسن ،

وتبدو سيماؤه كئيبة إلا انها تفصح عن ذكاء خارق . وهو لا يتحدث الانكليزية أو الهندية لذا فقد كانت وسيلة التخاطب بيننا معطلة . وكانت القاعة غاصة باعضاء مجلس الدولة ومعظمهم من الكهول « الوقورين المبجلين ذوى النفوذ » ، احدهم سبق له ان زار بومباى وهو يتحدث الهندية تقريبا وبمساعدته ومساعدة ترجماننا « السيد عبد اللطيف » تبادلنا مع سموه محادثة قصيرة عادية دارت حول سفرنا ، وصحتنا ، وحول الطقس ، وحول بعض المواضيع الأخرى العابرة . وقد قال لنا الشيخ انه يعتزم زيارة بومباى عما قريب وقد تطوعنا بالطبع بتقديم خدماتنا اليه لكى نجعله يشعر بالراحة أثناء زيارته لها . وبعد تقديم القهوة ، استاذنا بالانصراف** .

ويتوقع من الكويت التى تعتزم فعلا مواكبة الزمن واللحاق به باسرع ما يمكن أن تعيد

* تعقيب : حسن الصباح (توفى ١١٢٤ م) اسس فرقة سرية عرفت عامة باسم (الحشاشين) وكان زعيما لها ، اتخذت من قلعة (الموت) الواقعة بجبال البرز فى بلاد فارس قاعدة لها ، عمدت إلى اغتيال المناوئين لها .

**تعقيب : توفى الشيخ الذى قابلناه بعد فترة قصيرة من زيارتنا له ، والشيخ الحالى هو شقيق الحاكم المتوفى (المؤلف) .

النظر فى الأعراف والعادات والتقاليد والقناعات المتعصبة المتوارثة من قرون عديدة . وقد مدت خطوط الكهرباء إلى القصر ومبنى الجمارك . فكيف فغر العرب أفواههم من الذهول عندما وقعت أبصارهم عليها للوهلة الأولى ، لاشك أنهم نسبوها إلى الشيطان . ويوجد بالمدينة جهاز لتكثيف الماء وتقطيره ، ومن المرجح أن يتوافر فى المستقبل المزيد من مثل هذه الأجهزة النافعة ، نظرا للنواقص والعيوب التى تشوب النظام الحالى لتموين المياه ، حيث تستورد مياه الشرب يوميا من البصرة فى قوارب مزودة بصهاريج وتوزع فى المدينة فى صفائح معدنية أو فى قرب جلدية تكلف الصفيحة أو القربة الواحدة آنة واحدة او ما يعادلها . وتفتخر المدينة بوجود معمل للثلج وآلة وآلتين لانتاج المياه الغازية فيها ، ويستمتع العرب بتناول هذه المرطبات كما يستمتع البط بالعوم فى الماء . وإلى جانب امتلاك الشيخ لزورقين بخاريين فانه يمتلك أيضا سيارة جميلة التى لا يزال يعتبرها رعاياه لغزا غامضا يتعذر تفسيره أو سليلة بعض الجن أو العفاريت الأقوياء وذلك عندما يشاهدونها تنطلق باقصى سرعة وهى تطلق صفيرا عاليا وتتحرك صعودا ونزولا على الأرض الوعرة . ويقال أن الشيخ أرسل أحد أتباعه العرب إلى بومباى للتدرب هناك خصيصا كسائق . وقد عاد هذا الرجل كسائق بارع إلا أنه عاد طبقا لجميع الأقاويل مدمنا على معاقرة الخمر ، وعندما يحتسى هذا السائق الكؤوس يضطر الشيخ لركوب فرسه أو حماره لمدة يومين أو ثلاثة أو انه سيخاطر بحياته فى حادث تصادم مروع . فهذا السائق القدير الذى لا منافس له فى مجال عمله هنا أثناء زيارتنا كان دون ريب سيد الموقف . ولا تشاهد فى الكويت عربات ذات عجلات ، وإذا ما تم إدخالها الآن فاتوقع انها لن تحرز نجاحا ، مالم يتوافر فى المدينة شىء آخر يختلف عن دروب الجمال والحمير المتوافرة فى الوقت الحاضر . ومن المرجح جدا أنه قبل أن تجد العربات التى تقودها الجياد طريقها إلى الكويت فسوف تدخل هناك حتما وسيلة المواصلات الأكثر تمدنا وهى سكة الحديد وقاطراتها والتى ستضفى على هذا الميناء الهام الواقع عند مصب الممر المائى الكبير « شط العرب » العظمة والروعة وتحقق له الرخاء والازدهار .

وبعد ان أعربنا بحرارة عن جزيل شكرنا إلى مضيفنا الودود « السيد عبد اللطيف » للحفاوة واللطف اللذين غمرنا بهما عدنا آخر العصر إلى الباخرة « زيانى » ونحن « مسرورون إلى أبعد حد » – كما يقول بيبيس – من نزهتنا فى ذلك النهار .

تعقيب : من المرجح ان الشيخ الذى قابله المؤلف اثناء زيارته له فى ديسمبر ١٩١٦ م هو الشيخ جابر بن مبارك الصباح الذي حكم الكويت من عام ١٩١٥ م حتى وفاته فى فبراير ١٩١٧ م عن عمر يناهز الاربعا والأربعين عاما وخلفه فى الحكم اخوه الشيخ سالم بن مبارك الصباح .

* تعقيب . صمويل بيبيس (١٦٣٣ – ١٧٠٣ م) كاتب يوميات انكليزى ، تعتبر يومياته صورة معبرة عن الحياة الاجتماعية والعادات فى عصره ، كتب وصفا عن الحياة فى لندن فى الفترة ١٦٦٠ – ١٦٦٩ .

الفصل الأربعون

عائق جرف البصرة

غادرنا مرفأ الكويت في الساعة الثامنة مساء . وقطعنا حوالى ثلاثين ميلا في البحر مرورا ما بين جزيرة بوبيان الكبيرة الرملية القاحلة الواقعة ألى يسارنا وجزيرة فيلكة الصغيرة الواقعة إلى يميننا . وفي الساعة الرابعة صباحا رسونا عند مدخل جرف البصرة الموحل الحرج بانتظار المد العالى .

ويمثل هذا المستنقع الضحل من مياه البحر الواقع عند رأس الخليج عقبة كأداء في طريق البواخر التي يزيد غاطسها على غاطس الباخرة « زيانى » . ويتشكل هذا المستنقع بفعل المصب النهري الكبير أو دلتا الأخوار والروافد المشتركة مثل شط العرب ، بهمنشير ، قبان ، خور موسى، خور عبد الله ، خور قناقة ، وجميع هذه الروافد من بينها الرافد الأكبر وهو الشط تتدفق أو تمر عبر عربستان الفارسية وسوسانة * وتصب فى الخليج . ويشكل الشط الحدود الغربية لهذه البلدان . وعلى مدى عصور عديدة لا تعد ولا تحصى جرفت مياه هذه الروافد كافة أنواع الطمى وفتات الصخور وشتى أصناف الرواسب النهرية فتراكمت هذه المقذوفات على بعضها الآخر وشكلت قاع البحر في هذا الموضع محدثة بذلك عائقا كبيرا أمام المراكب المسافرة بحرا حتى بالنسبة للمراكب المتوسطة الوزن خصوصا ان هذا العائق يتعاظم ويزداد اتساعا ، ونتيجة لذلك تضطر البواخر التي يزيد ثقلها على ٣,٠٠٠ طن والمليئة بالحمولة أن تتباطأ وتتأنى أثناء اجتيازها لهذا العائق سواء عند الدخول فيه أو الخروج منه دون أن تلامس القاع أو أنها تتعرض لخطر الجنوح فى الوحل المتراكم القادم من بلاد الرافدين والأقاليم المجاورة لها والذى يغمر قاع البحر هنا .

---

* **تعقيب** : خوزستان قديما . وتسمى أيضا « سوسيانا » و « شوشانة » .

وتحين اللحظة المحددة والمواتية لعبور الجرف الرملى عند ارتفاع منسوب التيار أثناء النهار .كما يتطلب العبور عند مصب الشط فى تلك اللحظة الحاسمة الحرجة حسابا دقيقا ومتأنيا من جانب ربان الباخرة .وفى الصباح الباكر من يوم ٢٣ ديسمبر ١٩١٦ م عندما :

« بدأ الصباح المتشح بالسواد يصبح ورديا
كجراد البحر حين يصبح مطهيا » .

رفعت ، الباخرة « زياني » مراسيها ووجدت نفسها برفقة سبع بواخر أخرى عند نهاية الخط البحرى للجرف الرملى .وكان بامكاننا أن نسبق اقراننا ونتقدم الموكب لو لم تضع منا الفرصة بسبب افتقار مرشدنا وهو شاب إلى الخبرة والممارسة .فقد ارتطمت الباخرة بالقاع وبدت كأنها على وشك أن تلتصق هناك لمدة اثنى عشرة ساعة أخرى ،ولكن رباننا قد تمكن من تخليصها بمهارة من تلك المحنة فى الوقت المناسب ،وحينما كان التيار المائى لايزال يتدفق بغزارة كنا قادرين على عبور عائق الجرف فى أثر البواخر السبع الأخرى .

وكنت طوال الوقت أرقب عن كثب من فوق منصة الربان مشهد البواخر الثمان وهى تعبر بالتتابع فوق الماء العكر المغمور بالوحل ،حيث كان مشهدها ممتعا للغاية وهى تتبع كل واحدة منها الأخرى فى رتل منتظم .فقد كان المشهد شيئا شبيها بالاستعراض البحرى ولكن على نطاق ضيق .فالدلتا الواقعة فوق الجرف عريضة بما فيه الكفاية ،وبها العديد من المتسعات المائية المأمونة لكن الدخول إلى مصب الشط يتم عبر قناة ضيقة معالمها محددة بخطوط طويلة من العوامات الطافية السوداء ،وتوجد بينها فسحة من الماء تسمح بمرور باخرة واحدة فقط بسرعة منخفضة وعلى فترات متباعدة .وعلى مدى أبعد قليلا كان علينا أن نعبر فوق شطر آخر من قاع البحر المغمور بالطمى مما يشكل جرفا ثانيا وهو جرف الفاو ،وهو أهون على أية حال من العائق السابق الذى اجتزناه لتونا .

وقد قامت الحكومة البريطانية التى تسيطر الآن على البصرة وكافة أراضيها بحيويتها المعهودة بالنشاط والرأفة بالبدء فى عمليات كسح الوحل الرامية إلى التخفيف من أعباء الصعوبات الناجمة عن مثل هذه العقبات الخطيرة والمعيقة ولكن المسألة تتطلب تهدئة الأمور إذ يجرى العمل الآن طبقا لجميع الروايات بطريقة متهاونة مما يشير بان العلاج اسوء من الداء .ويشتكى العارفون المطلعون على خفايا الأمور بان هذا الكسح يؤدى فقط إلى نقل جسيمات الطمى ــ التى تتسبب فى خلق جميع هذه الصعوبات ــ من مكان إلى آخر ومن ثم توسيعها بدرجة متفاوتة وجعلها متكتلة كالروابى والأكمات .أما سطح الطمى الذى يتعرض للكسح فبدلا من القائه بعيدا فى البحر عند مسافة تقدر بحوالى عشرين ميلا أو أكثر فانه يلقى به عند مسافة قصيرة حيث يتكور مرة أخرى بفعل المد المتدفق ويسبب إضرارا أكثر جسامة من السابق .

الفصل الحادى والأربعون

شط العرب

وبمجرد أن عبرنا عائق الجرف دخلنا شط العرب الكبير الواسع المتدفق ، أو نهر العرب اذ ان كلمة الشط تعنى بالعربية نهرا فعلى سبيل المثال يوجد شط الحلة ، وشط ديالى ، وشط العظيم ، انما شط العرب فهو نهر بكل ما فى الكلمة من معنى ، فهو الأوسع والأهم من بين عدة أنهار تقوم بتصريف مياه بلاد الرافدين وتشكل بذلك الدلتا الكبيرة الواقعة فوق رأس الخليج العربى . وهو يجرى متدفقا نحو الجنوب ويصب فى البحر ، ويبدأ مجراه الطويل عند « القرنة » حيث تلتقى هناك على شكل حربة أو سهم مياه الفرات والذى يعنى « المجرى البعيد » ومياه دجلة والذى يعنى « المجرى السريع » . وينبع هذان النهران فى المناطق البعيدة الواقعة إلى الشمال وذلك من وسط الثلوج المتساقطة طوال العام التى تغطى جبال أرمينيا ، ويكبران باندماجهما مع روافدهما المتعددة ثم يتحدان فيشكلان بذلك شط العرب الكبير الذى يربط بين الأرض القديمة لبلاد الرافدين ـ « تلك الكلمة المباركة » (أو العكس ؟) التى تتردد الآن كثيرا على السنة الناس ـ وبين الخليج العربى . فعلى هذه الأرض سادت وازدهرت فى الأزمنة الغابرة الامبراطوريات القوية للآشوريين ، والبابليين ، والميديين ، والفرس ، والباعثين . فهذه البلاد الشهيرة الواقعة ما بين النهرين التوأمين التى ازدهرت فيها قديما هذه الامبراطوريات الخمس العظيمة قد تركت« **مهلة لأكثر من الفين سنة** » وبالأخص بعد النكبات المروعة التى حلت بها على أيدى اليهود الشرقيين والمغول الذين قوضوا الخلافة الأولى العظيمة وحضارتها الزاهرة المتألقة ، مخلفين وراءهم المجاعة والدمار . اما الأتراك الذين جاءوا إلى هذه البلاد فلم يعملوا سوى القليل لاحياء مجدها التليد واعادة الازدهار اليها . ومما يدعو للاستبشار انها أصبحت الآن بريطانية عن طريق القوة العسكرية وعبر الحماقات الرعناء التى ارتكبها مالكوها السابقون . ويسود اعتقاد عام بانها ستكون حماقة لا نظير لها ولا مبرر لها إذا تخلت بريطانيا العظمى عنها ، وفى الواقع ان :

« **الذين بيدهم الحكم الصالح يرسمون لهم خطة فى منتهى البساطة ليحل من هو قادر محل من بيده السلطة** » .

ويجب ألا تحرم « بلاد الرافدين » من الفرصة السانحة لها الآن ، وهى الفرصة التى اتاحها لها « السلم البريطانى » ، اذ كانت هذه الأرض فى الماضى تفيض بالخيرات وتنعم بالرخاء والحرية .

ويؤكد الخبراء ان امكاناتها المتوافرة تتيح لها أن تتحول إلى موطن حقيقى للثروة والغنى وتصل إلى حد التعويض عن أكثر من نصف تكاليف هذه الحرب الدائرة الآن . ففى ظل ادارة رشيدة ، نزيهة ، قادرة ، وجريئة كالادارة القائمة حاليا تحت الحكم البريطانى - الهندى فان البلاد ستزدهر وتنتعش حتما إلى حد كبير وفى مجالات متنوعة وبالأخص كبلد منتج للقمح (الحنطة) والقطن . ففى اثناء الحكم الرومانى الذى ساد انحاء واسعة من العالم كانت « بلاد الرافدين » تعد واحدة من كبار مخازن الغلال بالنسبة لاوروبا . وبامكانها أن تعود بسهولة مرة أخرى إلى سابق عهدها إذا توافر لها رى مناسب ومواصلات سهلة فى البر والنهر ، وتبدو هذه المرافق الضرورية سهلة المنال مع وقوع السكك الحديدية ونهرى الفرات ودجلة وتابعهما الكبير شط العرب فى القبضة البريطانية فهذه المزايا ومن ورائها عزم ونشاط ومهارة وإقدام البريطانيين والهنود توعد بضمان مستقبل باهر لبلاد الرافدين العريقة . فهى لا تنتظر كما ذكر السيد « هوبارد » فى كتابه الذى صدر مؤخرا بعنوان « من الخليج إلى *ارارات* » سوى اشارة البدء أو قول « افتح يا سمسم » من مهندس الرى الحديث لكى تفتح ابوابها وتزود نصف سكان القارة بالغذاء . وتقع المدن ذات الأهمية الكبيرة فى تركيا الأسيوية الشرقية مثل الموصل ،وديار بكر ، وسامراء ، وبغداد على ضفاف نهر دجلة . وغالبا ما يتردد ذكر هذه الروافد الثلاثة العظيمة التى كانت تمثل فى العصور القديمة الممرات المائية التاريخية للتجارة بين اوروبا وكافة أنحاء آسيا فى الأدبين العربى والفارسى وبالأخص التلميحات المتعلقة باحجامها ومميزات تفوقها . وقد ذكرها الشاعر الصوفى الكبير مولانا جلال الدين الرومى فى قصيدته الرائعة « المثنوى »[1] قائلا :

« فيا من مقامك عند الغدير المالح !
انى لك أن تعرف الشط وجيحون والفرات ؟» .

---

(١) تعقيب : المثنوى الأثر الادبى الشهير لشاعر الصوفية الكبير « جلال الدين الرومى » (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ / ١٢٠٧ - ١٢٧٤ م) احد الاعلام البارزين فى الأدب الفارسى ويتمتع المثنوى بشهرة عالمية كبيرة فهو يعد فى طليعة المأثورات الأدبية العالمية ، وقد كثرت حوله الشروح والتراجم فى مختلف اللغات الحية . والمثنوى مصنف موضوعه الوجود بصفة عامة والانسان والحياة بصفة خاصة ، ويشتمل على (٢٥٦٣٢) بيتا موزعة بين أجزائه الستة ، وهو مقدم في صور من القصص والحكايات او عبارة عن مجموعات من المقطوعات الغنية بالمواعظ والحكم . وللمثنوي شأن كبير في الصوفية وطرقها ومريدوها وبالاخص بين أتباع الطريقة « المولوية » التى انشأها « جلال الدين الرومي » في مدينة « قونية » بالاناضول . وتعنى كلمةمثنوي بالعربية النظم المزدوج الذي يتحد به شطرا البيت الواحد ، ويكون لكل بيت قافيته الخاصة وبذلك تتحرر المنظومة من القافية الموحدة .

فالشط الذى تلتئم عنده مياه دجلة والفرات اللذان يشكلان « بلاد الرافدين » يصبح نهرا فياضا متدفقا يبلغ اتساعه عند بدايته فى القرنة الف ياردة ، ويشق طريقه فى صهابة واجلال منحدرا نحو الجنوب ، ليصب فى الخليج فى خط مستقيم عبر مصب نهرى وحيد يبلغ عرضه ميل واحد او أكثر . وهو نهر غزير المد ، يسيل فى معظم مجراه بين الضفاف العالية ، وهو صالح لابحار البواخر المسافرة فى البحر ذات الحمولة الكبيرة على طول امتداد مجراه حتى مدينة البصرة وإلى مدى أبعد بالقوارب النهرية ، وللشط أهمية وفائدة كبيرة عند استخدامه للأغراض التجارية والاستراتيجية . ومن المدهش انه لا تقع على الشط ما بين الفاو والقرنة مدن كبيرة أخرى باستثناء المحمرة والبصرة .

ولا تساوى مدينة « القرنة » الموضع الشهير لجنة عدن الواقعة عند رأس الشط شيئا يذكر ، ولكنها لفتت انتباه « السيرجون مالكوم » باعتبارها أهم موقع فى هذه الأنحاء من الناحية العسكرية ، وقد أوصى « السير جون » ببصيرة ثاقبة « المركيز وليسلى » * الذى كان انذاك الحاكم العام للهند بان يأخذ أو يستولى ويضم هذا الموضع لأنه تصور ان الاستيلاء على هذا الموقع القيادى الذى يربط بين ثلاثة روافد وبالتالى تحصينه وجعله منيعا سيكبح جماح العشائر العربية والقبائل الأخرى المتمردة والسكان الذين يقطنون أو يجوبون هذه الأنحاء ، كما سيمارس نفوذا مؤثرا على جميع البلدان المشاكسة المحاذية لهذه الروافد من بغداد إلى البصرة . ولم يتوقع الحاكم العام والمحارب الكبير انذاك سوى الشىء القليل من هذا القبيل ، وبعده بمائة عام ، وعندما كانت القوات البريطانية الهندية تزحف ظافرة شاقة طريقها ميل بعد آخر وسط احراش واهوار نهر دجلة ذات الطبيعة القاسية احتلت القرنة واحتفظت بها كواحدة من أهم مواقعها العسكرية .

وتتناثر على ضفتى شط العرب القرى بالعربية الصغيرة أو مستوطنات البدو ، مؤلفة بذلك سلسلة متواصلة من الأكواخ المصنوعة من أعواد القصب الطويلة والواقعة بمحاذاة ضفة النهر .

وقد صنعت هذه الأكواخ على نحو بسيط من جذوع النخل وذلك كدعائم وكسيت سقوفها بالقش والقصب . وأحيانا حينما يرتحل البدو إلى أماكن أخرى يتم تحويل هذه الأكواخ إلى أطواف** . وتعتبر العديد من هذه المستوطنات مجرد مزارع صغيرة تربى فيها الأغنام والمواشي والدواجن ، وقد شاهدت أسرابا عديدة من البط البري والاوز والدجاج تسرح حول

---

* تعقيب : المركيز ريتشارد كولى وليسلى (١٧٦٠ - ١٨٤٢) شغل منصب الحاكم العام البريطانى فى الهند فى الفترة (١٧٩٨ - ١٨٠٥) ثم وزيرا لخارجية بريطانيا ١٨٠٩ - ١٨١٢ ثم مسئولا عسكريا فى ايرلندا ١٨٢١ - ١٨٢٨ و ١٨٣٣ - ١٨٣٤ م .

** تعقيب : أطواف مفردها طوف وهو قصب أو خشب يشد بعضه إلى بعض ويستعمل للركوب فى مياه الأنهار .

الجداول التي يتم عبرها الوصول إلى هذه الأماكن . وتزخر هذه المناطق بأصناف متنوعة من البط البري وطيور الشناقب والقطاة وغيرها من الطيور المائية والطيور الصالحة للصيد مما يتيح فرصة نادرة لصيد ثمين في هذه الأنحاء ، إذ توافر أعواد القصب والأعشاب المائية بالاهوار لهذه الطيور مكانا ملائما للمأوى والغذاء . ولقد شاهدت عدة أسراب من البط البري تسبح طافية فوق سطح الماء آمنة مطمئنة على مقربة دانية من باخرتنا المتحركة . كما شاهدت هنا أيضا ولأول مرة منذ أن غادرت بومباى الجاموس الضخم المترهل الجسم . ومن الملاحظ أن الجاموس الفارسي لا يختلف عن نظيره الجاموس الهندي .

ولقد شاهدت في هذا الفصل من السنة عددا قليلا جدا من الأبقار أو العجول ، كما بدت الخيول نادرة في هذه الأنحاء . كما شاهدت في الشط لأول مرة بعد مضي عدة أيام أعدادا من الحداء والنسور كانت تحوم فوق البواخر الراسية ، باحثة عن حطام سفينة طافية فوق الماء قد تقع بالصدفة في طريقها ، وكانت تنقض من حين إلى آخر وسط طيور النورس المتصايحة فتثير الهلع فيما بينها . وقد لاحظت أن هذه المناطق الواقعة حول شط العرب الكبير تبدو خالية من ذلك الفزع الأسود المثير للقلق الذي نعاني منه في بومباى والمتمثل بذلك الوباء المجنح الذي دأبه السرقة والنهب وهو الغراب الأسود ذو الرقبة الرمادية . وبدلا منه يوجد في البصرة طائر جميل خاص بها بل هو دون شك ابن عمه ، بالرغم من قلة عدده ، وهو الغراب الأبيض الجميل الكبير الحجم ، رأسه وجسمه لونهما أبيض شاحب ، وجناحيه لونهما أسود . ولم أشاهد وسط النخيل سوى القليل من هذه الغربان البيضاء وقد بدت من مظهرها الخارجى بانها تتمتع بالاحترام الكامل بين أفراد فصيلتها . أما الطرائد الكبيرة فلا توجد في أي مكان قريب من الشط ولكن قد تشكل الثعالب وبنات آوى والخنازير البرية صيدا وفيرا لصياد جسور .

الفصل الثانى والأربعون

أرض التمور

لقد اطلقت على هذا الكتاب اسم « أرض التمور » . ولقد سبق لي أن قدمت وصفا عن الأماكن التي زرتها في الخليج وقد حان الوقت الآن مع دخولنا ولاية البصرة أن أقدم بعض الوصف عن هذه المناطق الشاسعة المنتجة للتمور والواقعة بمحاذاة ضفتي شط العرب الكبير ، إضافة إلى وصف الثمرة التي تشتهر بإنتاجها هذه البلاد . فنحن الآن في الموطن الأصلي للتمور إذ تنتشر هنا زراعته على ضفاف الشط . وبالرغم من أن النخلة تنمو بكثرة على طول امتداد ساحل الخليج وتنتشر زراعتها من البحرين ادناه حتى الكويت عند رأس الخليج إلا أنه هنا في هذه البقعة الخصبة حينما ندخل في هذا النهر الواسع العريض نكون قد دخلنا إلى الموطن الأصلي للنخلة . فالنخلة هنا شجرة أصيلة تنمو وتترعرع في تربة بلدها الحقيقى . ويمكنني القول إن جودة ثمرتها تعود بدرجة كبيرة إلى عذوبة مياه الشط وخصوبتها . وتشاهد الغابات الكثيفة لهذه الشجرة الرائعة وهي تغطي كلتا ضفتي الشط على مدى أميال عديدة إلى الداخل ممتدة من الشرق إلى الغرب . ولكلمة « تمرة » بالانكليزية اشتقاق لفظي مفيد ، إذ هي مشتقة من كلمة اغريقية تعني « اصبع » لأن شكل التمرة يشبه مظهر الأصبع البشري ، لذا فإن الأسم العلمي النباتي الذي تعرف به هذه الشجرة هو « حاملة **الأصابع الفينيقية** » وتعود بنا هذه التسمية إلى العصور القديمة الغابرة حينما رحل المستوطنون الفينيقيون الأوائل من الخليج وحملوا معهم النخلة إلى الشواطىء الشرقية وربما أيضا إلى الشواطىء الجنوبية أو الافريقية للبحر الأبيض المتوسط . ولا يقع بصرك في سهول البصرة حيث ينشطر الشط إلى قسمين على تل أو ربوة قط ، فإينما أجلت بصرك وأينما اتجهت سترى الأرض مكسوة والأفق محجوبا بأشجار النخيل ، لا شيء هناك سوى النخيل الخضراء ، الرشيقة المظهر ، الجميلة المنظر . ويبذل العرب القاطنين في هذه المناطق جل اهتمامهم ورعايتهم في زراعة النخيل . ونظرا لعدم وجود النخل في هذه الاسماء فإن عملية اثمار هذه الأشجار الشديد الاخصاب تتم عن طريق قطع الأكمام (الطلع) الحاملة لحبوب اللقاح (غبار الطلع) من النخلة الذكر وذلك خلال فصول معينة من السنة ،

ونثر الأزهار الأنثوية عليها بواسطة كيس خشن فيتم الاخصاب . وفى نفس الوقت تغذى هذه الاشجار بسماد يؤخذ من سمكة الكوسج* التى تسمى « أوال » وذلك بعد تحللها

نتيجة نقعها فى الماء ، وهى عملية منشطة ومنبهة للغاية . وبالرغم من ان نباتات الشط تشمل التوت والتين والكروم التى تزرع غالبا فى المزارع الخاصة فانها تشمل أيضا أشجار التمر الهندى وذلك طبقا للأسم الذى يطلقه العرب والفرس على أحد توابلنا الشائعة الاستعمال فى الطهى ، كما تشمل بعض الشجيرات القصيرة الضئيلة الحجم (كشجرة العناب الهندية) المألوفة فى بومباى وفى مناطق أخرى من الهند ، الا ان النخلة هى الشجرة الأولى والمسيطرة دون منازع على هذه الانحاء وفقا لتقدير الناس . وحينما تقف على ظهر الباخرة اثناء إبحارها صعودا أو نزولا فى الشط فانك لا ترى سوى مساحات شاسعة لا نهاية لها من الأراضى التى تزدحم فوقها أشجار النخيل الدائمة الخضرة ، بسعفها الشوكى ، ومنظرها البهيج . وبالكاد يزرع صنف آخر من النخيل فى الموضع الذى تزرع فيه نخلة التمر .

ومن الغريب ـ وفقا لملاحظاتى ـ انه لا يشاهد فوق هذه الأراضى التى تنمو فيها نخلة التمر بكثافة وبهذا القدر من النضج والكمال أية أصناف أخرى من فصيلة النخليات ، اذ لم أشاهد على امتداد الخليج أو فى انحاء الشط أى أثر لنخلة النارجيل ، أو نخلة الأريقة (نخلة النوفل) ، أو نخلة الطاليب ، أو نخلة « كندالا » ، أو نخلة القنانى ، أو نخلة المسافر المروحية ، أو نخلة النشئ أو ايا من أصناف النخل الأخرى المنتشرة عامة فى الهند وجزر البحار الهندية . ويتضح من ذلك ان أشجار نخيل التمر تفى بكافة الاحتياجات العربية ، كما تقوم بساتين النخيل بدور مخازن المؤونة ومصادر الطعام وموارد الغذاء بالنسبة لجميع السكان القاطنين فى هذه الانحاء من بلاد العرب . وقد وصف أحد الرحالة الأوائل التمر بانه « **خبز البلاد ومادة الحياة وعماد التجارة** » بالنسبة للعرب القاطنين فى كافة ارجاء الخليج والشط . فقد كان ولا يزال يمثل المصدر الرئيسى لرزق الفقراء ولثراء الأغنياء فى هذه البلاد . وقد أوصى نبى المسلمين بحق ـ على غرار الوصية الخامسة لموسى الكليم ـ قائلا : « **أكرموا عمتكم النخلة** » .

ويعتبر أكل التمر أو الرطب عند تناول وجبة الفطور فى الصباح كأول عمل تقوم به فى يومك عمل من أعمال التقوى أو حسنة تؤتيها وذلك على رأى المثل الشائع فى هذه الانحاء« **هو تمر وهو ثواب** » أى ان أكل التمر حسنة لها نفس جزاء العمل الصالح .

---

* تعقيب : تعرف عامة باسم « اللخمة » أو اللخم ».

الفصل الثالث والأربعون

زراعة التمور

تماما كما تعتبر زهرة اللوتس شعارا للهند ، وشجرة الزيتون شعارا لسوريا ، وشجرة الورد شعارا لانكلترا ، فان النخل أيضا تعتبر شعارا لبلاد العرب خصوصا فى هذا الجزء الذى يجرى فيه الشط بجلال ومهابة . وتحظى النخلة باحترام شديد وعناية كبيرة من قبل اصحاب المزارع العرب ، والأجراء العاملين فى مزارعهم أو خدمهم ، والقروبين الفقراء ، وهم ماهرون فى زراعتها رغم اتباعهم لاساليب بدائية فى الزراعة . وتقسم أراضى البساتين الى عدة أحواض على هيئة مربعات أو مستطيلات تفصلها حواجز ترابية وذلك اشبه بحال حقول الأرز عندنا فى الهند . وفى داخل هذه الاحواض تغرس أشجار النخيل فى صفوف منتظمة متناسقة .

ويتفرع من الشط على طول امتداد ضفافه العديد من الجداول المائية التى تتوغل نحو الداخل الى مسافات بعيدة وهى صالحة لابحار القوارب الصغيرة وتقع على ضفافها قرى الأهالى القاطنين فى هذه الانحاء . وتستخدم هذه الممرات النهرية على حد سواء « كمواضع لغسل الثياب ، ومسابح ، ومجارى للصرف الصحى ». وفى اثناء الجزر تقذف فيها الأوساخ ذات الروائح الكريهة التى تزكم الأنوف ولكنها تمتلىء اثناء المد بمياه الشط التى يتم تحويلها حينئذ نحو المزارع عبر قنوات يتم التحكم فيها عند الضرورة من خلال فتح أو ردم منافذها بالتراب فتسقى النخيل بهذه الطريقة بصورة منتظمة وتنمو وتترعرع وتظل قوية ومثمرة . وتنقسم هذه النخيل غالبا الى نوعين ، قصيرة وطويلة ، الا انها جميعا أعرض وأقوى فى محيط الجذع من اصناف النخيل المتوافرة لدينا فى انحاء عديدة من الهند والتى لا تصل ثمرتها اطلاقا الى هذا الحد من النضج والكمال . وتمثل زراعة النخيل المهنة الزراعية الأولى والعمل الرئيسى فى حياة العرب القاطنين فى هذه الانحاء . وتتميز نخلة الشط بخصوبتها الفريدة من نوعها ويعود سبب جودة ثمرتها الشهيرة فى جميع انحاء العالم ـ حسبما اتصور ـ الى الحرارة المشبعة بالرطوبة السائدة فى منطقة الشط أو ناحية البصرة خلال شهر ابريل (نيسان) ، ومايو (ايار) ، ويونيو (حزيران) ، ويوليو (تموز) واغسطس (آب) .

ففى هذه الشهور ترتفع درجة الحرارة الى حد توصف بانها شواظ من الجحيم الا انها ضرورية وملائمة تماما لنضوج الثمرة ونموها نموا كاملا ، حيث يكتمل نضوجها فى شهرى

اغسطس (اب) وسبتمبر (ايلول). وعندما يحين موسم جنى الرطب وهو موسم الحصاد عند العرب يخرج الناس الى بساتين النخيل على هيئة مجموعات للتنزه ويقضون وقتا طيبا هناك ويستمتعون بأكل الرطب الطازج اللذيذ وسط تلك البيئة القروية الممتعة والمسلية . وحالما يكتمل نضوج الثمرة تؤكل طازجة ، وهى الذ طعما وأوفر عصارة وأكثر تغذية من أفضل أنواع العنب الانكليزى المستنبت فى الدفيئة* واصناف الرطب متنوعة وعديدة الا ان صنف الرطب الأحمر الداكن هو أفضلها جميعا بينما يخلو صنف الرطب الطويل الأصفر أو الذهبى على ما يبدو من النوى ، وله نكهة حلوة وهو طعام شهى لذيذ الطعم وطيب المذاق . ومن المعروف ان ربة البيت العربية ماهرة فى تحضير اطباق الطعام الشهى المعمول بالبلح والمطهى بطرق مختلفة سواء كان نيئا اخضر ، أو جافا ، أو مسحوقا ، أو مغليا ، أو ممزوجا باللحم أو بالسمك أو اللبن ، حيث تؤكل هذه الاطباق فى مواسم مختلفة .

ويستخرج من التمر شرابا يسمى « تامير » غالبا ما يستخدم فى الأكل لاغراض التحلية بعد الأكل . وترتفع النخلة ارتفاعا شاهقا يبلغ خمسين قدما أو أكثر ، تعلوها مظلة من السعف المتموج المنتصب ، ويمتلىء طلعها بآلاف الأزهار ، ويتدلى ثمرها فى عناقيد ذهبية ، فتنافس بذلك اشجار التفاحات الذهبية الوارد ذكرها فى الأساطير الاغريقية القديمة ، ومنظرها بديع خلاب يسر الناظرين .

والى جانب عطاء النخلة الغزير من الثمر الوفير الصالح للغذاء البشرى فانها توفر ايضا الكثير من المواد الصالحة للاستخدامات المنزلية . لذا فهى تعتبر قطعا المنتوج الأكثر نفعا فى عالم النبات . فهى فى الحقيقة والواقع نعمة وبركة فى هذه الأراضى الصحراوية المنتجة للبلح .

وهناك الكثير من البلح الذى لا ينضج ويسمى « سالنغ » وهو يعجن مع الأسماك الجافة ، ويأكله عادة الفقراء . ويخلط « السالنغ » مع النوى ـ الذى يستفاد منها أيضا بهذه الطريقة ـ ومع عظام الأسماك فيصبح علفا مغذيا للماشية والأبل والحمير ، بل حتى الخيول تتلذذ كثيرا بأكله . أما لب الطلع الأخضر فيؤكل طعاما لذيذا طيب المذاق ، وحينما يقطر يستخرج منه سائلا حلوا يطلق عليه العرب اسم « قارا » غالبا ما يستخدم في صناعة الشربات ، وبالامكان تحويله الى سكر في حالة توافر المهارة اللازمة لذلك .

لا شك فى أنه من هذه الكلمة أخذنا كلمتنا الهندية « تادي » وجاءت التسمية الانكليزية لعصارة النخيل الطازجة وهي « تودي » ، ومنها اشتقت كلمتي « قطران » ، و « غلام » في الانكليزية .

---

* تعقيب : بناء زجاجى عالى الحرارة تستنبت فيه النباتات الاستوائية التي لا تحتمل البرد .

كما جاء منها اسم نخلة الطاليب الهندية ومنها اشتق اسم مدينة تدمر أو مدينة النخيل التي اعلت الملكة النبيلة « زنوبيا » شأنها وجعلتها ذائعة الصيت في زمانها والتي تقف اطلالها الآن مقفرة مهجورة وسط بادية الشام.فتصيب السائح بالذهول والانبهار . وللنخلة فائدة أخرى تتمثل في الاستفادة من الألياف الخضراء المستخرجة من جذعها في صنع الحبال النافعة جدا ، بينما يأتي معظم الوقود المستخدم في هذه المناطق التي تفتقر الى الخشب من الكرنيف (الكرب) الجاف . ويستفاد من الخوص وهي وريقات النخل الريشية الشكل في صنع المراوح والحصر والسلال والأسرة فتوفر بذلك للناس مصدرا للرزق وكسب المعيشة . كما يستفاد من سعف النخل كظلال تغطي بها الممرات الضيقة في الأسواق فتوفر بذلك الفيء والبرودة . وتستعمل جذوع النخل اليابسة التى كانت تحمل الثمر من قبل عموما كدعامات لحماية ضفاف الأنهار والجداول من التآكل والتفتت .

وتستعمل هذه الجذوع أيضا كجسور اعدت بصورة مرتجلة دون أي استعداد من أجل العبور عليها فوق الجداول الموحلة وكأرصفة للنزول في المراسي الواقعة على ضفة النهر . ويستفاد منها أيضا كدعامات للأبواب ، كما تستعمل عند قطعها الى شرائح كعوارض لسقوف الأكواخ أو كظلة يستظل بها الفقراء من الناس . وحينما تقطع هذه الجذوع الى أشكال دائرية فإنها تصبح فورا صالحة للاستعمال كمقاعد وكراسي من الصنف الخشن بدون مساند وأذرع ، وحينما تقطع أيضا هذه الجذوع بالمنشار الى النصف يجري تفريغها من الداخل فتصبح مجوفة ويستفاد منها في هذه الحالة كانابيب لنقل المياه من بستان الى آخر .

ولا يفوتني في هذا الصدد أن اشير الى فائدة أخرى للنخلة ذات الخير العميم وهو صنع صنف غريب من الأسرة عبارة عن سرير خفيف نقال أو سرير قابل للطي له أربعة قوائم يشبه قن الدجاج الى حد بعيد ، وقد يستعمل أحيانا لهذا الغرض في المناسبات . وتصنع هذه الأسرة من الخوص وهي نافعة جدا وقوية الى حد كاف وسهلة عند الحمل . كما تتيح أي خميلة أو أي بستان من اشجار النخيل الجميلة هذه للناس فرصة ملائمة للتنزه والاستراحة تحت ظلها الظليل ، إذ منذ بزوغ فجر تاريخ الشرق كان الأمير أو القاضي يعقد مجلسه أو ينصب كرسي قضائه تحت الظلال الوارفة لسعفها الجميل الرشيق . وقد قيل ان البطلة والكاهنة « دبورة » كانت تقيم القضاء في بني اسرائيل « وهى جالسة تحت نخلة » . * ولا

* تعقيب : طبقا لرواية وردت في الاصحاح الرابع من سفر القضاة بالعهد القديم من الكتاب المقدس استشهد بها المؤلف هنا ، وقد جاء فيها . « ودبورة امراة نبية زوجة لفيدوت هي قاضية اسرائيل في ذلك الوقت ، وهى جالسة تحت نخلة دبورة بين الراحة وبيت إيل في جبل أفرايم . وكان بنو اسرائيل يصعدون اليها للقضاء » .

يبدو ان النخلة التي دعاها النبي « عمة العرب » * يستخرج منها في هذه الأراضي المنتجة للتمور الواقعة قرب الشط وما فوقه وما دونه ذلك السائل الذي من أجله فقط زرعت هذه الشجرة على سواحل بومباى ، إذ لم يتعلم العربي حتى الآن كيف يستخلص هذا المنتوج النافع من شجرته المفضلة ويستعمله أما كشراب منعش سائغ أو يحيله الى سكر كما يفعل به في بعض أنحاء الهند . إلا اننا نعيش ونتعلم أشياء كثيرة في حياتنا وبالأمكان الافتراض أن هذه الفوائد للنخلة سوف تسخر على الأرجح في خدمة مهنة أو صنعة بريطانية على سبيل التحسين الاجتماعى أو ستقام لها صناعة جديدة من أجل استغلالها على الوجه الأكمل . وإذا كانت الوصايا القرآنية تصون الناس ـ دعنا نأمل ذلك ـ من مخاطر لغواية في الأدمان على تعاطي هذا السائل السكري سواء كان طازجا أو مخمرا أو مقطرا وهو السائل الذي يرقص له قلب الكاهن المجوسي طربا ومنفرج له اساريره فرحا وابتهاجا إلا انه لا يوجد شيء يمنع دون تحويل عصارة النخيل الى مادة ذات فائدة**كبيرة عن طريق تصنيعه واحالته الى سكر وبالتالي اضافة سلعة جديدة مربحة في تجارة الشط وبلدان الخليج .

وعند معاينة هذه المساحات الشاسعة من الأراضي الممتدة بعيدا عن الشط ، وعند معاينة المياه الوفيرة المتدفقة على الدوام بغزارة من هذه الروافد الكبيرة ، فقد خطر ببالي انه في حالة توافر أيدي ماهرة وبصيرة ثاقبة وجهد متميز بالنشاط والحيوية فإنه يوجد متسع كاف في هذه الأراضي لزراعة الغلال النافعة مثل الأرز وأنواع الحبوب الأخرى وقصب السكر وذلك في الموضع الذي تسيطر عليه النخلة لوحدها سيطرة كاملة .

فالتربة هنا ملائمة وصالحة للزراعة ، وعند ادخال أساليب الري العلمي في زراعتها فإن خصوبتها مضمونة ومؤكدة على وجه اليقين .

تعقيب : أشارة الى قوله (صلى الله عليه وسلم) . « اكرموا عمتكم النخلة » .

الفصل الرابع والأربعون

الاقتراب من المحمرة

على بعد حوالى ١٨ ميلا الى الشمال من العوامة الخارجية الطافية فوق سطح الماء وهو الموضع الذي دخلنا فيه عائق جرف البصرة مررنا بالمدينة الصغيرة أو بالقرية الصغيرة المسماة الفاو ، وهى بقعة مقفرة جرداء ، مليئة بالرمال والمستنقعات ، واقعة على الضفة اليمنى للشط ، وتعود أهميتها في الوقت الحاضر على وجه الخصوص الى كونها مقرا لمحطات البرق واللاسلكى التى تربط بين الخطوط البريطانية ـ الهندية ـ والتركية أو أنظمة البرق عبر أبي شهر . وقد جرت في هذه البقعة بعض الاشتباكات العسكرية مع الاتراك قبل سقوط البصرة . كما تستخدم الفاو كمخفر أمامي ومركز متقدم للتفتيش والرقابة على السفن الداخلة الى الشط من هذا الموضع . فهي بوابة بلاد الرافدين الأمامية ومدخلها المطل على البحر . وقد بنى الاتراك في هذا المكان قبل سنوات قليلة ـ مضت قلعة حصينة احدثت هياجا شديدا ولغطا كبيرا في الأوساط السياسية إلا أنه لم تنصب فيها أية مدافع وربما ان ذلك يعود الى الاحتياجات الفورية للمسئولين الاتراك إذ جرى تحويل الأموال المخصصة للذخائر والأسلحة الى جيوبهم الخاصة ولم يثر حولها أي سؤال . وقد أصبحت هذه القلعة عمليا مهجورة . ويتوجب على البواخر الأجنبية المتوجهة نحو اعالي الشط ان تنتظر هنا قبل التصريح لها بالصعود في الشط . وبناء عليه فإن العديد من البواخر التي اجتازت عائق الجرف قبلنا قد تم احتجازها هنا وكان باستطاعة الباخرة « زيانى » ان تزيد من سرعتها وتسبقهم في الابحار .

وحينما تضع الحرب اوزارها مكللة بالنصر المؤزر ، وتحكم القوات البريطانية ـ الهندية قبضتها بحزم على كامل امتداد شط العرب وجداوله النهرية فإن الفاو التي تعد الآن واحدة من أكثر البرارى الموحشة الهاجعة قفرا وجذبا قد تتحول الى منتجع مائى صحي مزدهر قريب من البحر يرتاده أهالي البصرة وعبادان والمحمرة والقرنة ومن أنحاء بغداد ويترددون عليه عن طريق القطار أو النهر من أجل الظفر بتغيير صحي وقضاء أجازة ممتعة وتمضية نهاية الأسبوع ، كما يمثل بالنسبة للوجهاء والأعيان المحليين فرصة طيبة هم في أمس الحاجة اليها من أجل الاستحمام والاغتسال بصورة دورية في أمواج البحر المالحة .

ومن المتوقع ان يتحول هذا الموضع (شريطة ألا تتراخى القبضة السالفة الذكر) الى بقعة ملائمة للراحة والاستجمام خلال موسم البرد ، ومع ذلك إذا كان الناس متيقظين عليهم تجنب الاستثمار في الأراضى إذ ليس هناك أسوأ من الاستثمار في الأراضي الآن بسبب وفرة العرض وتدنى الأسعار ، في هذه الأنحاء .

وفي الفاو يتم الدخول الحقيقى الى المجري الرئيسي للشط . وعلى الجانب المقابل أو الجانب الفارسي توجد جزيرة عبادان الكبيرة البديعة الشكل التى تشكلت نتيجة مرور الشط بها من جهة ومرور المجرى المتعرج لنهر « بهمنشير » من جهة أخرى ، وتمتد بعيدا حتى تصل الى المحمرة ، على بعد أربعين ميلا الى الشمال . وتبدأ هنا أيضا طلائع البساتين الخضراء أو بالأحرى غابات النخيل المزدحمة والمتراصة والمنتشرة على كلتا ضفتي الشط والممتدة بعيدا الى ما وراء البصرة .

وعلى بعد بضعة أميال من الأبحار البطيء صعودا في الشط ، مررنا بمدينة عبادان الواقعة على الضفة اليسرى للشط . وهي مدينة حديثة بالكامل ، وتدين بنهضتها الحالية الى شركة النفط الانكليزية ـ الفارسية التي اتخذتها مقرا لها . فهذه الزاوية الجديدة من الامبراطورية البريطانية المترامية الأطراف تفصح عن وجودها من بعيد عبر النسيم الذي يهب حاملا معه رائحة« **الزيت الكريهة المقرفة** »كما وصفها العجوز « جوزيف باربارو » عند الاشارة الى نفط « باكو » . * وتقع آبار النفط أو المناجم في الأهواز الواقعة على نهر كارون على بعد حوالي ١٥٠ ميلا الى الشمال الشرقي من عبادان ، ومنها ينقل السائل النفطي الثمين عبر انابيب في خط مستقيم الى عبادان ويشحن من هناك في ناقلات صنعت خصيصا لأغراض النقل في المياه النهرية الضحلة حيث ينقل الى البصرة وما فوقها من جهة من أجل تلبية الاحتياجات العسكرية الحالية ، كما ينقل من جهة أخرى لأغراض التصدير الى البلدان الأخرى فيما وراء عائق الجرف حيث يعاد شحنه في ناقلات كبيرة يتعذر عليها اجتياز عائق الجرف .

ولقد ساد في بداية الحملة العسكرية الحالية في بلاد الرافدين قلق وخوف شديدين على سلامة هذه الآبار النفطية خشية ان تتعرض لمخاطر جسيمة ، إذ جرى التخطيط للاستيلاء عليها أو تدميرها ، وتهديدها مباشرة من قبل المتآمرون الألمان في فارس يساندهم العديد من رجال الفرس في السلطة ، الذين تملقهم أو هددهم أو رشاهم الألمان في سبيل كسبهم . وقد تم انقاذ هذه الآبار الثمينة في الوقت المناسب عبر اجراء فوري اتخذته الحكومة البريطانية

تمثل بارسال حملة الجنرال « غورنغ » العسكرية الى أعالي نهر كارون ، فأصبحت هذه الآبار محمية الآن بالفعل عن طريق إخماد كافة القلاقل القبلية في المناطق المجاورة وعن طريق

---

* تعقيب مرفأ نفطي هام يطل على بحر قزوين ، عاصمة اذربيجان السوفيتية .

وجود قوة عسكرية ميدانية كافية في الأهواز . وهكذا أصبحت الأهواز مخفرا بريطانيا متقدما في الأراضي الفارسية تؤدي خدمات نافعة في المرحلة الراهنة . ويبدو منظر عبادان ممتعا على نحو استثنائي ، بصفوف صهاريجها النفطية الواسعة العديدة ، ومصانعها ذات المداخن الطويلة التي تنفث دخان أسود ، وورشاتها العديدة المليئة بالحركة التي تنبعث منها الأصوات المدوية ، ومساكنها الحسنة التنظيم ، وأرصفة واحواض مرفأها النابضة بالنشاط والحركة والمحاذية للواجهة النهرية ، وهو الموضع الذي مدت فيه بعض من خطوط الترام الضيقة المتصلة بصهاريج النفط والتي تتحرك عليها باستمرار ذهابا وإيابا العربات الصغيرة تجرها قاطرات صغيرة تنفث دخانا متقطعا . لذا فإن مدينة عبادان كما تبدو صورتها في مخيلة المرء عبارة عن مدينة صناعية ، متناهية ، مليئة بالحياة والحركة ، وملوثة بالسخام والأوساخ النتنة التي تقذفها ، وهي متناقضة على نحو مدهش وملفت للنظر مع وسطها المحيط بها . وتقع على مقربة من اطلال قصور برسبوليس فيها ملوك الملوك أمثال « داريوس » و « احشورس » و « أرتحششتا » وبلغوا قمة المجد والعظمة والتي دخلها ظافرا الأسكندر الأكبر المقدوني وأقام فيها حفلاته الصاخبة .

فقد برزت بسرعة خلال سنوات قليلة ، على نحو مثير للدهشة من أرض تركت مهملة ، قاحلة ، فاقدة للحياة ، كما كانت عليه لأكبر من ثلاثين قرنا ، ومن أرض شهدت صعود وتألق وسقوط وانهيار الأمبراطوريات العظيمة التي سادت ثم بادت ولم تترك وراءها سوى التلال الرملية والمنحوتات المثيرة للتعجب المهشمة والملقاة وسط « **الخرائب الهائلة** » كنقوش تذكارية تشهد على القوة والأبهة والمجد والعظمة التى بادت ، واندثرت ، وضاعت ، وطواها النسيان وعفا عليها الزمن . لقد زال المجد منذ زمن بعيد عن هذه البلاد العريقة في القدم وخيم فيها الصمت والسكون كما جاء في وصف هذه الحالة على لسان الشاعر الحكيم عمر الخيام حينما قال :

« **طبولك ساكتة وانذاراتك تدق أجراس الهدنة** »

إلا أن العالم من حولنا بدأ يصحو من جديد على حياة مشرقة ناضرة حيث تعكس عبادان على نحو بهيج هذا التغيير الجديد . فقد تحولت بالفعل الى خلية نحل تنبض بالحياة والحركة ، تزدحم بالرجال العاملين ، الذين ملأوا رمال الصحراء . واعتقد انها أول مدينة صناعية حديثة تنشأ في جميع أنحاء هذه المناطق الأسيوية ، وهي توعد بأن تتحول الى قاعدة كبيرة للصناعة ، بحيث تصبح « باكو » أخرى ، وبحكم كونها واقعة على مقربة من الهند ، فهي مهمة ومفيدة لنا جميعا .

الفصل الخامس والأربعون

المحمرة ونهر كارون

بعد اثنا عشر ميلا من الابحار صعودا فى الشط وصلنا مدينة المحمرة ، عاصمة عربستان الفارسية ورسونا هناك فى الساعة الثانية بعد الظهر . وقد وصل مركب « دامرا » التابع لشركة الهند البريطانية للبواخر والمحمل بالبريد القادم من بومباى قبل وصولنا بقليل وكان راسيا قبالتنا مباشرة ، وبما انه لبث هناك من أجل تفريغ حمولة البريد فقط ثم انصرف فور وصولنا ، فقد قامت الباخرة « زيانى » بتغيير موضع رسوها إلى موضع آخر أكثر ملاءمة منه وهو الموضع الذى أخلاه « دامرا » نظرا لكونه أقرب إلى المدينة من الموضع السابق . وصعد على متن باخرتنا الدكتور « لنكولن » المسئول الصحى بالقنصلية يرافقه السيد « ميرزا محمد حسين » سكرتير وكيل شركة الخليج للملاحة ، وقد وجدتهما شخصان فى غاية اللطف والكياسة وأمضينا شطرا طيبا من العصر معهما نتناول الشاى والكعك ونتبادل الأحاديث والأخبار . وبعد مضى زهاء ١٨ يوما فى البحر لم نكن نرى خلالها سوى التلال الجرداء والسواحل الصحراوية جاء مشهد الشط بنخيله الخضراء المتموج الممتد على مدى أميال والسفن والبواخر والمراكب المحلية القديمة من مختلف الأصناف والأحجام العابرة صعودا ونزولا على نحو متواصل فى مياه الشط الخضراء العقيقية اللون بمثابة تغيير حسن فى طبيعة المشاهد التى كنا نراها طوال هذه المدة . وبعد الغروب مباشرة انتشر ضباب أبيض كثيف وحجب كلتا الضفتين عن الرؤية . وتقع المحمرة فى نفس الموضع الذى كانت تقوم فيه سابقا مدينة « بهمنشير » أو « بهمن ـ أردشير » القديمة التى لايزال اسمها وذكراها باقيين مع بقاء نهر « بهمنشير » الكبير الذى يمر مجراه البطىء والمتعرج إلى الشرق من جزيرة عبادان ويسيل متدفقا نحو الجنوب ليصب فى الخليج العربى . وتقع المدينة الحديثة التى يبلغ عدد سكانها حوالي ١٠,٠٠٠ نسمة على الضفة اليمنى « للحفار » وذلك في الموضع الذي تنحرف عنده مياه نهر كارون من قناتها الطبيعية وتتدفق متجهة نحو الغرب لتصب في الشط ، بالقرب من الموضع الذي رست فيه الباخرة « زياني » وهي بقعة جميلة للغاية .

وينبع نهر كارون أو « كوه دنك » (الجبل الملون) من سلسلة جبال « زاده كوه »* الواقعة إلى الشمال من مدينة الأهواز ، وبعد جريانه في مجرى مضطرب ومتعرج تعترضه المنحدرات النهرية وغالبا الشلالات ينحدر عبر موطن البختياريين المضطرب مارا بمدينتي « شوشتر » و « الأهواز » ، وتنحرف معظم مياهه قبل أن يصل إلى نهر « بهمنشير » الذي يشكل قناته الطبيعية نحو « الحفار » ليصب بعدها في الشط . وكان يعرف هذا النهر قديما باسم « باسي دجلة » أو دجلة الصغير . وقد أبقى عبره الاسكندر الأكبر في طريق عودته من الهند إلى سوسة جسرا من المراكب للعبور فيه . « والحفار » عبارة عن ممر مائي عريض يبلغ طوله حوالي ثلاثة أو أربعة أميال ، وهو يربط بين نهر كارون والشط . وتعني كلمة « حفار » في العربية القناة ، أو الحفر ، أو الخندق ، مشيرة بذلك إلى بنائه الصناعي . وقد حفر في حوالي عام ٩٨٠م من أجل تحقيق اتصال أوثق ومباشر بين الأهواز والمدن الفارسية الداخلية الأخرى وبين البصرة ، جاعلا من المحمرة المرفأ النهري لبلاد فارس .

ومنذ عام ١٨٨٩ زادت أهمية المحمرة الواقعة عند ملتقى « الحفار » بالشط نتيجة توسيع الملاحة الدولية حتى منحدرات نهر كارون قرب الأهواز على بعد حوالي مائة وسبعة عشر ميلا من المحمرة . كما زادت أهمية الأهواز نظرا لوجود آبار النفط فيها ولكونها المركز التجاري داخل هذا الجزء من فارس . أما مشروع مد خط للسكة الحديدية من الأهواز إلى الداخل الذي علق بسبب الحرب الجارية فسوف يضفي علي المدينة عند اكتماله أهمية أكبر وفقا لأقوال اللورد كيرزون « سوف يقع السكان في شبكة صانعي القطن في لانكشاير والصناع الحرفيون في الهند » . ويقال إن مناخها لطيف وصحي . ان الطريق النهري بالرغم من كونه أطول من الطريق البري إلا أنه أسلم وأفضل لأغراض شحن البضائع ونقل الركاب نظرا لتوافر خدمة حسنة التنظيم من البواخر النهرية العاملة بين الأهواز والمحمرة ، ولأغراض الاتصال بطرق القوافل المؤدية إلى الداخل فيما وراء مدينة « شوشتر » ، فاتحا بذلك أقصر طريق بري إلى مدينة اصفهان العاصمة القديمة للشاه عباس الصفوي التي يطلق عليها أهلها باعتزاز وصف « **اصفهان نصفي جيهان** »، أى نصف الدنيا ، ومن هناك يتم الاتصال بالمقاطعات ذات الأهمية التجارية البالغة في بلاد فارس .

* تعقيب « زرده كوه » أعلى قمة في سلسلة جبال زاجروس بفارس ويبلغ ارتفاعها ٤,٥٤٧ متر

الفصل السادس والأربعون

مدينة المحمرة

أمضينا عيد الميلاد في المحمرة وشاهدنا ما تحويه المدينة من مناظر وفي الصباح الباكر بعد تناول وجبة الافطار المعتادة مع القبطان وجميع افراد طاقم الملاحين التابعين إليه المجتمعين في صالة الطعام التي كانت مزينة على نحو ظريف بهذه المناسبة ، قمت مع القبطان ورئيس المهندسين بجولة نهرية ممتعة حيث استقلينا قارب « بلم » وقمنا بالتجديف والدوران حول المنعطف الذي يلتقي عنده كارون ـ و ـ الحفار بالشط وهو الموضع الذي تقع في الجانب الأيسر من مجرى الماء فيه مدينة المحمرة وسط بيئة طبيعية خلابة ، وتمتد إلى بعيد نحو أعلى الحفار . ويقع في هذه الزاوية مباشرة مبنى الجمارك وهو موضع كثير الحركة بأكثر ما يمكن أن يوصف به مكان أو شخص بمثل هذا الوصف في فارس . ويقع إلى جانبه مبنى النيابة القنصلية البريطانية الذي يمكن تمييزه بسهولة من خلال السارية التي يعلوها العلم البريطاني المألوف . وعلى الضفاف المقابلة مباشرة يقع منزل الطبيب ، والمستشفى ، والمحجر الصحى الكئيب المنظر ، والقليل من البيوت الأخرى ، وبعض أحواض بناء السفن المليئة بالوحل . وتوجد في الصف الذي تقع فيه القنصلية مكاتب متعددة ومن بينها يوجد منزل كبير ذو طابق علوي تحيط به حديقة مليئة باشجار الورد وكروم العنب وهو مكتب وكيل شركة الخليج للملاحة . وقد نزلنا هنا على الأرض الفارسية مرة أخرى ، وخطونا فوق لوح خشبي مرتعش ، كان يمتد فوق الشاطىء الموحل من القارب إلى سلم النزول . وكان « الحاج محمد مشيري » رئيس التجار والوزير الرئيسى للشيخ وهو رجل فارسي وقور جالسا القرفصاء على كرسيه المنخفض ، وقد استقبلنا بحفاوة بالغة وبالاستفسارات المعهودة في مثل هذه الحالة . وبما أن الرجل العجوز كان مصابا بداء الربو ويشتكى من مرض العناج (القطان)* فقد كانت غرفة المكتب مغلقة بأحكام وبالرغم من سعتها إلا أنها كانت خانقة

* تعقيب : وجع في أسفل الظهر .

نتيجة انحباس الهواء فيها . وكانت مفروشة بالسجاد الفاخر ، ومؤثثة ببعض الأدوات الجميلة مثل الطاولات والمقاعد والرفوف المزخرفة الهندية والصينية الصنع ، وبعض الأواني الخزفية البديعة ، والمرايا ، وبعض النقوش المزركشة والمناظر والصور العادية الباهتة . وقد كانت مفاجأة لنا ان نشاهد من بين هذه التحف الفنية جهاز أورغن كنسي صغير الحجم يحوي العديد من الأنابيب والمفاتيح الموسيقية . وإني أتساءل متعجبا ما الذي يمكن لمالكه أو لهذه الفئة المتنوعة من البحارة والملاحين العرب والفرس الذين كانوا داخل وخارج المكتب ان يستفيد من مثل هذا الجهاز . وبينما كنا جالسين هناك جاء إلى المكتب ابن شيخ المحمرة ووريثه وقام رئيس التجار بتقديمنا إليه للسلام عليه . وقد انتهت زيارتنا رسميا مع تقديم الشاي الساخن بدون حليب في فناجين صغيرة ـ « صنعت في ألمانيا » ـ لكنه كان محلى بملعقة كبيرة من السكر وبعد أن شرب كل واحد منا فنجانا مليئا بهذا الشراب الفارسي المميز ، دون ان نستمتع بجرعة اخرى منه ، غادرنا مكتب الوكيل .

وكان سكرتير الوكيل « ميرزا محمد حسين » موجودا هناك وقد عاملنا معاملة ودية للغاية . فقد تلقى هذا الشاب تعليمه في بومباي وهو يتحدث الانكليزية بطلاقة وينطقها بلهجة سليمة . وهو رجل مجرب واسع الخبرة في الحياة ، حسن الاطلاع على تاريخ وشئون فارس وجيرانها إلى حد الألمام بأدق التفاصيل عن هذه الأمور ، وهو شاب وسيم ، دمث الأخلاق ، وقد راعني باعتباره واحدا من ذلك لأن يكون رفيقا مثاليا في السفر والترحال إذا ما رغب المرء القيام بجولة متروية على الأقدام في بلاد فارس . وبينما لبث القبطان هناك لاجراء المعاملات ،

قمت مع المهندس والدليل الذي كلفه « ميرزا » بمرافقتنا بجولة مطولة حول أسواق هذه المدينة ، الممتدة إلى مسافة بعيدة بمحاذاة واجهة القناة ، وتتقاطع مع بعض الجداول الموحلة ، ويصل عمقها إلى أكثر من نصف ميل . ولا تختلف هذه الأسواق عن غيرها من الأسواق التي وصفتها آنفا ، إذ توجد نفس الدروب والأزقة المتقاطعة الواحد مع الأخر ، ونفس أنواع الحوانيت ومنصات البيع المكشوفة ، ونفس الزحام المتنوع مع نفس التركيبة من بلبلة الألسن ، ونفس أصناف البضائع والسلع التي تخلو من اي شيء من صنع محلي قد يجذب إليه نظر الزائر الغريب ، ونفس الأرصفة ، ونفس القذارة وغياب التدابير الصحية ،

ونفس الروائح الحادة النتنة الطاغية التي يشمها الأنف الحساس بسهولة كما فعل كولريدج* في مدينة كولون** ، حيث تسهم الجداول الرديئة الصرف إلى حد كبير في

---

* تعقيب : صمويل تايلور كولريدج (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) شاعر رومانسي انكليزي

** تعقيب · كولون او كولونيا مدينة المانيا تقع على نهر الراين إلى الشمال من بون ·

انبعاثها . وقد أضيف إلى هذه الروائح المتأصلة التي تزكم الأنوف صنف جديد من الروائح منذ أن بدأت أعمال صناعة النفط في عبادان ، فقد شعرنا طوال الليلتين اللتين رسونا خلالهما بالشط إلى جانب المحمرة بنفحة خفيفة من رائحة النفط تتسلل عبر النسيم الخفيف الذي يهب من جهة الجنوب الدافيء . وهي حالة تختلف تماما عن الحالة التي تغنى بها الشاعر قائلا :

« **الجنوب الجميل الذي يتنفس على ضفاف البنفسج يختلس ويبعث نفحة** » وبالرغم مما يقال عن هذا النسيم المشبع برائحة النفط من أنه صحي باعتباره مطهر إلا انه مقرف جدا ، لذا فان زجاجتي الحاوية لملح النشادر المخلوط بقليل من زيت « الأوكالبتوس » العطر كانت مفيدة للغاية في هذا المكان . وبسبب الطقس الشتوي المنعش البهيج فقد استمتعنا بقضاء اجازة طيبة من بضعة أيام ، إذ أن المحمرة موضع ظريف يستحق البقاء فيه عدة أيام ، والقيام برحلات إلى « الأهواز » و « شوشتر » ، وهي بقعة قديمة زاخرة بالآثار التاريخية المثيرة للمتعة ، ولكن من الأفضل الابتعاد عنها طيلة الشطر الأكبر من السنة .

عدنا إلى مكتب الوكيل واستقلينا القارب مرة أخرى وقمنا بالتجديف بعض الوقت في أعلى « الحفار » أو القناة المحاذية للمدينة ومن ثم في أدنى « الحفار » قرب الضفة المقابلة الكثيفة التي لا نهاية لها ، وقد بدت لنا المدينة عبر الماء ببيوتها البيضاء الواقعة فى وسط الحدائق ومن خلفها النخيل ، وبواجهتها المزدحمة بالقوارب الراسية أو المبحرة صعودا ونزولا في الشط جذابة وجميلة للغاية .

والشيء المدهش الجدير بالملاحظة هنا هو الاختلاف في درجة الحرارة المسجلة طوال العالم بين مياه الشط ومياه كارون والحفار إلى الموضع الذى يندمجان عنده ، إذ من الواضح أن مياه الاخير دائما أبرد ، وقد عدنا أدراجنا إلى الباخرة «زياني» بعد قضاء زيارة ممتعة على الشاطىء وذلك لتناول الشاي في وقت متأخر ولأخذ قسط من الراحة .

وفي السابق كانت المحمرة ـ التي يحكمها اسميا شيخ عربى ـ تقع بالتناوب في أيدى الأتراك أو الفرس نتيجة المنازعات المتواصلة حول الحدود التي يرسمها كل من الطرفين وفقا لمصالحه ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى عام ١٨٤٧ حينما قامت لجنة مكونة من ضباط ومسئولين بريطانيين وروس وأتراك وفرس ـ بعد سنوات من القلق والتحضيرات المكلفة ـ بتسوية النزاع وتعيين الحدود بصورة نهائية ، وقررت الحاق المحمرة بفارس* . ومنذ ذلك الحين أصبحت مقرا للحاكم الفارسي ، الذي يشغله حاليا الشيخ خزعل . وهو

* تعقيب بمقتضى معاهدة ارضروم لعام ١٨٤٧ .

يحمل « وسام فارس امبراطورية الهند من الدرجة الأولى » كما يحمل « وسام نجمة الهند الرفيع برتبة فارس » ، وهو زعيم عرب بني كعب الأشداء الذين هاجروا إلى هذه الأنحاء قبل حوالي ٢٥٠ سنة مضت ، تاركين حكم السلطان العثماني ومفضلين عليه حكم الشاه . ويعتبر الشيخ عمليا الحاكم المستقل لاقليم عربستان ، ويخضع تقريبا للسيطرة الاسمية للوكيل المقيم للشاه « كرجوزار » .

ومن بين التشريفات الأخرى التي يحظى بها الشيخ ، تأدية التحية إليه من قبل جميع البواخر العابرة في الشط صعودا نحو البصرة ، وذلك عرفانا بالمساعدة القيمة التي قدمها هو أو والده ـ لست متأكدا أيهما ـ إلى سفينة انكليزية هاجمها القراصنة في هذه الأنحاء قبل بضع سنوات حينما كانت القرصنة سائدة في الشط . وفي أثناء الحرب البريطانية ـ الفارسية القصيرة الأمد لعام ١٨٥٧ استولت القوات البريطانية على المحمرة واحتفظت بها حتى توقيع معاهدة السلام بين الطرفين .

الفصل السابع والخمسون

الاقتراب من البصرة

تقع البصرة على بعد ستة وعشرين ميلا من المحمرة . وقد دفعنا مرساتنا في الساعة التاسعة صباحا وغادرنا المحمرة متوجهين نحو آخر وأجمل محطة في هذه الرحلة . فنحن الآن في أرض التمور وهنا يضيق الشط إلى حد كبير وينشطر إلى قسمين بواسطة جزيرة « دبا » الواقعة إلى يسارنا والمكسوة بأشجار النخيل ويبدو أن هذا الانشطار ناتج عن تراكم الطمي عبر العصور . وقد مررنا إلى يميننا « بالفيلية » ، وهي قرية كبيرة أقيم فيها بمحاذاة ضفة الشط قصر شيخ المحمرة . وقد أطلقنا هنا التحية المعتادة عن طريق تفجير فتيل مفرقعة نارية ، وقد رد علينا التحية بدقة متناهية مدفعين قديمين يعلوهما الصدأ ، تركا على ضفة النهر ، نصفهما مغمور في الوحل . ويقف متراخيا هناك ثلة من العساكر الذين يرتدون بدلات عسكرية رثة وهم بالتأكيد الحرس الشخصي للحاكم حيث كانوا يرقبون هذا العرض التشريفي الذي لا يخلو من الخطورة . وتعتبر هذه التحية ضربا من المجاملة والتكريم ويتوجب عدم إغفالها بأي حال من الأطوال إذ أن اغفالها يعني الاساءة إلى كرامة الشيخ ، ان لم تكن مدعاة لنشوب الحرب . ويرافق هذا الحرس الشخصي ـ المكون من الزنوج ـ الشيخ في جميع المناسبات وفي حله وترحاله ، ويؤدى واجبه كحرس ضروري لحماية الشيخ والمحافظة على سلامته الشخصية في هذا الجزء من العالم الذي يعتبر الأقدام على القتل تنفيذا للأوامر مسألة تخص السياسة العليا أو سياسة حميدة تستحق المدح والثناء . وقصر الشيخ عبارة عن مبنى واسع واقع إلى اليمين من البواخر المتوجهة نحو أعلى الشط ، وله بوابة فخمة أو ذات مظهر فاخر ، يقف في كل جانب منها تمثال لأسد يرحب بالزوار القادمين . وهو مسكن الشيخ المفضل ، وملحق به في جانب منه مسرح كبير غالبا ما يتردد عليه الشيخ لكسر رتابة الحياة في هذه البلاد الموحشة عن طريق مشاهدة العروض المسلية لفرق الغجريات والراقصات الآخريات اللاتي يجبن الأقطار دوريا ويأتين إلى هذه البلاد قادمات من رومانيا ويقضين وقتا طيبا فيها . وتذكر جميع الروايات أن الذي يجري هنا يعد ضربا من العربدة ، حيث يكون اللهو وقتها سريعا وصاخبا ، وعاليا ومنخفضا ، وبسيطا ومعقدا ، وتنتاب القوم نوبة طويلة من القصف ، تتعطل عندها المحرمات القرآنية إذا صدقت الأقاويل

والشائعات . ويقع إلى جوار قصر الشيخ مساكن مستشاريه . ويحدد القصر خط الحدود الفاصل بين الأراضي الفارسية والتركية . وعلى مسافة أبعد قليلا إلى الأعلى وصلنا في جانبنا الأيمن قبالة جزيرة طويلة تحف بها الشجيرات القصيرة المنخفضة أعواد القصب تسمي جزيرة المحجر الصحى . وينحنى الشط انحناءة ضيقة جدا بين نهاية الطرف الجنوبي لهذه الجزيرة ونهاية الطرف الشمالي لجزيرة « دبا » إلى درجة انه يصعب اجتيازه في هذا الموضع وبالأخص إذا انحدرت منه فجأة في الجهة المعاكسة باخرة أخرى . ومع ذلك فانه في هذه القناة الضيقة بالذات من الشط قام الألمان الماكرون الذين كانوا يسيطرون آنذاك بمجرد أن

أعلنت تركيا الحرب ـ أو جرت إليها ـ ضد الحلفاء ، باغراق أربع بواخر في خط واحد عبر القناة ، ومن بينها الباخرة الكبيرة « اقباطنة » ، وباخرة أخرى استأجرها الأتراك واستخدموها كفنار عائم . وكانوا يعتزمون بالطبع من وراء ذلك أن يغلقوا ممر العبور النهرى المؤدى إلى البصرة . ومن حسن التوفيق أن هذا المخطط الرهيب قد فشل فشلا ذريعا ، إذ أن اندفاع مياه الشط قد جرف بمعونة التيار أثناء انحسار الباخرة « اقباطنة » إلى جانب حيث لامست تقريبا شاطيء جزيرة « دبا » ، تاركة فسحة كافية تتسلل عبرها باخرة واحدة فقط في كل مرة . وحينما عبرنا ذلك الموضع ، كانت مدخنة الباخرة الأمامية وصاريتاها لاتزال جميعا بادية للعيان من فوق سطح الماء ، كما لايزال قباطنة البواخر الذاهبة والقادمة من وإلى البصرة يواجهون وقتا عصيبا أثناء العبور فيه .

إذ يتطلب العبور المناورة بالباخرة بعناية فائقة ، على أن يتم ذلك دوما خلال النهار .

وبعد الدوران حول هذه الزاوية الحرجة للغاية ، وقع بصرنا على أول منظر لمدينة البصرة ومرفأها العشار ، التى بدت فى صورة المدينة الشرقية الرائعة ، كما رأيناها من فوق منصة ربان الباخرة ، وهى تنبثق من وسط الماء المحدق بها من كل جانب أشبه بمدينة البندقية (فينيسيا) ، وتحيط بها بساتين النخيل المتراصة باغصانها الشوكية المتموجة . ويمتد صف طويل من المنازل على امتداد الضفة اليمنى للشط الذى تزدحم مياهه على مدى مسافة أميال بمختلف أنواع المراكب والسفن ، وبالعديد من الصوارى والمداخن والاعلام التى تضفى على مشهد المدينة الاثارة والجاذبية .

وأول بيت وقع عليه نظرنا هو « بيت نعمة » ، ويقع وسط حديقة كبيرة مليئة بنبات الدفلى* وأشجار البرتقال وكروم العنب المتسلقة ، وكان يملكه فى السابق أحد الأثرياء العرب أو الأتراك إلا أنه تمت مصادرته وتحويله إلى مستشفى للضباط وتهيئته لهذا الغرض وجعله مريحا عن طريق إدخال الاضاءة الكهربائية والمراوح والماء الساخن والبارد فيه ، اذ أن

تعقيب : نبته عطرة الزهر تستعمل للزينة .

الجندى الحديث باهظ النفقات ويتطلب عناية كبيرة . وبعد الظهر مباشرة انسللنا إلى موضع رسونا فى اثر طابور طويل من البواخر الراسية فى أعلى المرفأ . وقد اعتبرنا أنفسنا موفقين لاننا لم نبتعد باكثر من ميلين ونصف الميل عن جدول العشار ، وهو الموضع الرئيسى للرسو فى البصرة .

وفصل الشتاء هو موسم الأمطار فى كافة أنحاء هذه المناطق من الشط ورافديه دجلة والفرات ، وقد هبت قبل أن ندخل إلى المرفأ عاصفة من الغبار إلا أنها انقشعت من حسن التوفيق مع هطول وابل من المطر . وكان الطقس باردا على نحو يدعو للارتياح ، ويبعث فى النفس السرور والبهجة حينما تهطل فى بعض الأحيان زخات متقطعة من المطر .

الفصل الثامن والأربعون

مدينة البصرة

تقع البصرة على منتصف ضفة الشط اليمنى وقد ذكرها الشاعر الانكليزى الشهير « ملتون » فى قوله :

« **من سوسانة إلى جنة البصرة** »فهذه المدينة التى تاقت فيها روح السندباد من حين إلى آخر شوقا « للابحار ومشاهدة البلدان الأجنبية ومصاحبة التجار وسماع الأخبار الجديدة » تقع الآن فى قبضة البريطانيين . وهى عاصمة ولاية البصرة المهمة (لم تعد تركية) التى تضم مدن لقرنة ، العمارة ، كوت العمارة ، الناصرية ، سوق الشيوخ ، وغيرها من المدن ، وقد وصل ذكرها إلى مسامع العالم لأول مرة عبر الانتصارات التى حققتها القوات البريطانية شأنها مع ضعف قوة الخلفاء العباسيين ، حينما اهملت القنوات وقطعت الاتصالات مع الخليج . بعدها ظهرت مدينة البصرة الحالية على ضفاف شط العرب ، وبسبب موقعها الملائم اشتهرت سريعا باعتبارها واحدة من أكبر وأهم المدن فى بلاد العرب . وقد شيدت على الضفة الغربية للشط على بعد سبعين ميلا من مصب النهر . ومن المؤكد أن مدينة البصرة كانت فى الماضى باسوارها القديمة التى يصل محيطها إلى سبعة أميال ، وتضم فى داخلها العديد من الحدائق وبساتين النخيل ، وببواباتها الخمس ، ونزلها (خاناتها) المزدحمة بالساكنين والنزلاء ، ومقاهيها المليئة بالحياة ، وحماماتها العمومية ، وجوامعها ، ومدارسها الشهيرة ، وواجهتها النهرية النابضة بالنشاط والحركة والتى لاشك أن السندباد البحرى ملاح الشرق قد انطلق منها فى رحلاته البحرية العجيبة ، لابد انها كانت مدينة عامرة مزدهرة فى ذلك الزمن القديم الذى بلغت فيه أوج مجدها . ويعود أول اتصال لها مع بومباى إلى عام ١٦٣٩ م حينما أرسلت شركة الهند الشرقية الحاكمة فى مدينة « سورت » الهندية وكيلين لتأسيس محطة تجارية لها هناك . ولم يكن التبادل التجارى معها على أية حال نشطا أو واعدا بالنماء فى تلك الفترة حتى عام ١٦٦١ م حينما تم التوقيع على اتفاق بين الباب العالى « وشارل الثانى » ملك انكلترا الذى تم وصفه فى وثيقة رسمية تبودلت بينهما (من الممتع ذكرها) بانه « **الأمجد من بين امراء عيسى ، والأجل من بين ابناء شعب** المسيح ...... والسيد الحائز على أعلى مراتب الشرف والاحتشام الخ .. الخ » . وقد ضمنت هذه الاتفاقية للشركة الكثير من الحقوق والامتيازات باعتبارها « الدولة الأكثر رعاية » ، ولايزال هناك الكثير من الأعمال التجارية الواجب اجرائها مع بغداد والمدن السورية . وتأسست هنا فى عام ١٧٦٣ م أول قنصلية بريطانية وعين السيد « جاردن » قنصلا لها .

ولم يدر بخلد أى إنسان انذاك أدنى قدر من التفكير بان البصرة ستكون فى عام ١٩١٦ من الممتلكات البريطانية ـ الهندية وتصبح المقر العام لأقوى الجيوش التى غادرت شواطىء الهند من أجل الفتوحات الخارجية . وقد احتل الأتراك المدينة فى عام ١٦٦٨ م وأصبحت مسرحا للعديد من الثورات ، وفى عام ١٧٧٧ استولى عليها الفرس بعد حصار طويل دام تسعة شهور . وفى عام ١٧٨٧ م استعادها الأتراك ، وبعد سنوات طويلة من الخضوع للحكم التركى الفاسد المدمر وقعت المدينة فريسة سهلة فى أيدى القوات البريطانية فى مرحلة مبكرة من هذه الحرب العالمية التى لاتزال تدور رحاها حتى الآن وذلك عندما ألقت تركيا بقدرها ومصيرها فى اتون العار والدمار إلى جانب الألمان ضد بريطانيا العظمى وحلفائها .

وفى بداية شهر أكتوبر عام ١٩١٤ م استشعرت حكومتنا وجود مشاكل وصعوبات مع تركيا ، وأرسلت بحنكة وبصيرة نافذة لواء من القوات البريطانية ـ الهندية لاستعراض القوة العسكرية عند رأس الخليج العربى ، واستعدت لاحتلال جزيرة عبادان ، إضافة إلى ميناء البصرة . وفى ٥ نوفمبر ١٩١٤ م اعلنت الحرب ضد تركيا . وفى ٢٢ نوفمبر ١٩١٤ م وقعت البصرة دون أية صعوبة تذكر تحت احتلال قواتنا بقيادة اللواء « السيد أرثر بريت » الذى أهدى ـ من الممتع أن اشير إلى ذلك ـ « اللورد ولندون »* تخليدا لهذا الانجاز التاريخى نصبا تذكاريا عسكريا تركيا عبارة عن بلاطة من الحجر الأبيض نحت عليها على نحو رائع شعار السلطان ودرع امبراطورى حيث يشاهد هذا النصب الآن مثبتا فى أعلى مدخل دار الحكومة بمنطقة « مالبار بونيت » فى بومباى . أما والى البصرة الذى قام بتسليم المدينة فقد نفى إلى الخارج حيث قضى نحبه مؤخرا فى مكان ما من بورما . وقد أصبحت البصرة وولايتها الآن خاضعة للسيادة البريطانية ، باعتبارها مقاطعة تابعة للهند البريطانية ، وطرد منها التركى وحكمه الجائر العقيم .

* تعقيب . اللورد ولندون فريمان (١٨٦٦ ـ ١٩٤١) حاكم بومباى فى الفترة (١٣ ـ ١٩١٨) ثم حاكم مدارس (١٩ ـ ١٩٢٤) ثم حاكم عام كندا (٢٦ ـ ١٩٣١) ، ثم نائب للملك فى الهند (٣١ ـ ١٩٣٦) .

الفصل التاسع والأربعون

وصف البصرة

لا توجد فى البصرة فنادق تتلاءم مع نمط الحياة الأوروبية ، حتى تم مؤخرا تحويل واحدة من البواخر الأسيرة وهى الباخرة « فرانز جوزيف » التابعة لشركة لويد بالنمسا إلى فندق للضباط . لذا فقد مكثنا على متن الباخرة « زيانى » طيلة مدة رسوها فى مرفأ البصرة . ولقد ذهبت إلى الشاطىء عدة مرات فى قارب « بلم » وشاهدت كلا من مدينة البصرة القديمة ومرفأها العشار . وقد وصف « كينير » أحد كبار الرحالة فى بلدان الشرق مدينة البصرة فى كتابه المتعلق بجغرافية فارس* (وهو كتاب ممتع للغاية) بانها « **بدون جدال أقذر مدينة شاهدها على الاطلاق** » فحالتها ـ كما شاهدها ـ لا تتناقض اطلاقا مع هذا الوصف .

ويمكن القول بان البصرة كما هى عليه اليوم تتكون من ثلاثة أو بالأحرى أربعة قطاعات متميزة ، منفصلة عن ضواحيها ، منها قطاع المدينة ذاتها ، والقطاعين المحلى والبريطانى من العشار وهو مرفأ البصرة ، وقطاع الاحتلال العسكرى الحالى أو المعسكرات الكبيرة الواقعة على امتداد ضفة الشط ، على مدى حوالى ثمانية أميال من « بيت نعمة » إلى « مرجيل » . وتقع المدينة ذاتها أو مدينة البصرة على مدى ثلاثة أميال إلى الداخل ، غربى الشط ، باتجاه نهاية جدول العشار الكبير ، الصالح لايجار قوارب « الابلام » والزوارق الصغيرة الأخرى . وتتم حركة النقل من والى المدينة عبر الجدول ، أو عبر طريق عريض للمركبات ردىء الترصيف ، يمتد فى الطرف الجنوبى من المدينة يسمى « طريق الساحل » وذلك وفقا للاسم الذى يطلق على الشاطىء أو جانب النهر . وقد زرنا المدينة فى عربة جرها حصان بالأجرة . ويوجد إقبال شديد على عربات الخيول وقد وجدنا بعض الصعوبة فى الحصول على واحدة منها ، وبالرغم من كونها شديدة الاهتزاز فى سيرها إلا انها تؤدى عملها على أحسن وجه . ويقف حشد غفير من الناس عند رأس الجسر على الطريق الساحلى ينتظرون بفارغ الصبر وصول عربة فارغة ، وبمجرد أن تخلو من ركابها يستولى عليها ويظفر بها من ينجح فى مدافعة منافسيه بمنكبيه ويشق طريقه وسط الزحام إلى الصدارة ويصل

---

* تعقيب . يعرف كتاب الرحالة « كينير » باسم « مذكرات جغرافية عن الامبراطورية الفارسية » ، صدر عام ١٨١٣ م .

اليها أولا . وتتعالى من الحشد الصرخات وصيحات الشجب والتوبيخ . ويتم الدخول إلى المدينة القديمة عبر واحدة من بواباتها المتداعية البناء ، وهى واسعة العمران ، بها العديد من البيوت الكبيرة المهيبة الطابع ، الرديئة البناء ، والمتهدمة جزئيا ، ومعظم شوارعها ودروبها ضيقة ، وبها شيء جميل وظريف ، إلا انهما ليسا كذلك فى الوقت الحاضر ، اذ هما الآن عبارة عن خلاء مفتوح تقام فيه سوق شعبية فى العراء تباع فيها الماشية والحمير والدواجن وذلك فى يوم الخميس من كل اسبوع وهو يوم الأسواق فى جميع أنحاء العالم العربى .

وهو دون ريب نفس الموضع الذى كانت تقام فيه منذ « العهد الذهبى لهارون الرشيد » وما قبله سوق النخاسة . بعدها مررنا بخان كبير من الطراز الشائع الذى غالبا ما وصفه الرحالة فى الشرق إلا أنه يستخدم الآن كسجن مدنى ، وهو يرمز بذلك إلى الاحتلال البريطانى . وفى مكان ليس ببعيد عن هذا الموضع يوجد جزء باق من حصون قديمة يحرسها الآن بعض « الرجال باللباس الكاكى » وهم ثلة من العساكر البنجابيين الأشداء « سيوف الهند القاطعة » . وبالقرب من هناك يوجد مسرح كبير متناسق ومتداع إلى حد كبير كما هو شائع عادة فى جميع المبانى القائمة فى هذه الأنحاء . فهنا يؤدى المشعوذون ، والدجالون ، والراقصون من مختلف الأصناف والأنواع ، وكذلك المهرجون ، والممثلون المتجولون ، والموسيقيون أدوارهم وعروضهم التى تلقى من الرعاية والدعم ـ كما تقول جميع الروايات ـ من وجهاء واشراف البصرة . وقد تحقق اية جوقة غنائية وموسيقية أو أية فرقة أخرى من ممثلى المسرح المتجول كسبا طيبا أثناء فترة تقديم هذه العروض الفنية . واعتقد أن مشاهدة أدوار الممثلات الفاتنات ، وسماع الغناء والموسيقى وقبل كل شيء رؤية فن الرقص على أطراف الأصابع مع عرض كامل « للجسم البشرى الرائع » كما هو متبع الآن حتى على خشبة المسرح الانكليزى الرصين سوف تستحوذ على اعجاب العربى وتغمره بفرحة عارمة ، وسيحقق القائمون على هذه العروض سريعا ثروة طائلة .

وأتصور أنه توجد الآن واحدة أو اثنتين من دور السينما فى مدينة البصرة والعشار وذلك لتعليم الفتى العربى كيف ينطلق نحو اتجاهات جديدة متعددة . ان مدينة السندباد القديمة قد أصبحت تمر بتحولات مدهشة . تابعنا سيرنا حتى وصلنا أسواق البصرة الكبيرة ، وهذه الأسواق واسعة فى مساحتها إلا أنها تختلف اختلافا ضئيلا جدا عن بقية الأسواق التى تراها فى المدن العربية والفارسية والتى لا تتمتع بأية أهمية تذكر ، ومع ذلك فانى أجدها دائما ممتعة للغاية وأهوى التجول دخولا وخروجا عبر ممراتها المعقدة المتشابكة وبين حوانيتها واكشاكها المكشوفة المتنوعة التى تضفى حياة وصبغة وطابع مميز على المكان والناس . ومن بين جميع أنواع البضائع والمهن المختلفة التى تزدحم بها هذه الأسواق المعتمة الباردة التى تفى باحتياجات السكان فان الشيء الممتع الذى لا أمل اطلاقا من

مشاهدته هو منظر حوانيت الطهى الجاهز الشهى الرائحة والدكات الصغيرة التى يعرض عليها الباعة المتجولون ما لذ وطاب من الأطعمة المطبوخة . وهنا يتجمع أشبه بالذباب حول صينية الحلوى لفيف من الرجال والأولاد الجائعين الذين يبدو انهم لا يطبخون مثل هذه المأكولات فى بيوتهم لذا فانهم يشترونها من الخارج . ويتكون الطعام من اللحم المشوى ، والبيض المسلوق ، والمخللات ، واللبن الرائب ، والجبن الذى يباع بالصحن أو يقدم بطريقة مغرية على هيئة كومة توضع فوق الخبز البلدى الذى يقوم مقام الطبق حيث يأكله هؤلاء الناس وهم واقفون ، يثرثرون ويتبادلون الأحاديث الاجتماعية ، ويهزون رؤوسهم ويومئون بايديهم وكفوفهم .

الفصل الخمسون

العشار

يعتبر العشار أو بالاحرى جدول العشار الواسع مرفأ البصرة وهو الآن أكثر قطاع يعج بالنشاط والحركة فى مدينة السندباد . ويبدو أن هذه الكلمة أو التسمية مشتقة ـ إذا لم أكن مخطئا ـ من كلمة « معشر » أو « محشر » التى تعنى فى العربية الجمارك أو دار الضرائب . ويقع عند مصب الجدول على الجهة اليمنى من دخولك فيه قادما من الشط مبنى ومكاتب ومستودعات الجمارك الملىء بالحركة ، وتوجد على امتداد كلتا ضفتى الجدول إلى الحد الذى يوجد فيه الجسر الأول عتبات من السلالم تتخللها بعض الفواصل القصيرة نصفها غارق فى المستنقع الموحل وفى حالة تداع مزمن . فهذا هو الموضع الرئيسى للرسو والاقلاع لجميع القادمين عن طريق النهر أو من لديهم أعمال يقضونها فى أعلى وأدنى الشط . ويخضع الجدول لحركة المد والجزر ويجرى بين الضفاف العالية . ويمتد فوق الجدول جسران خشبيان منظرهما ضعيف واهن وشكلهما غريب متنافر إلا انهما نافعان ويفيان بغرضهما تماما ، وينفتح هذان الجسران من وسطهما لعبور السفن الشراعية والمراكب الأخرى ذات الصوارى الطويلة وذلك أثناء مرورها فى كلا الاتجاهين . وعلى مسافة قصيرة وراء الجسر الأول يوجد موضع مفتوح فى كلا الجانبين تكسوه بساتين النخيل التى زرعت بعناية فائقة ، والتى تقف منتصبة داخل أحواض ترابية منخفضة شقت فيها القنوات من أجل دخول الماء اليها أثناء المد العالى من الجدول . وفى الجهة اليمنى يوجد مبنى كبير كان يستخدم حينما شاهدته كدار للمحكمة الصغرى التى انشئت مؤخرا ، ويرأسها ضابط عسكرى ، وهى تعمل بالتأكيد دون ضوابط أو أنظمة وذلك وفقا للحالة التى يؤثرها العقل والذوق البيروقراطيين البريطانيين . وستباشر عما قريب عملها هنا محكمة للوصاية على القاصرين ومحكمة محلية تختص بالنظر فى قضايا الافلاس والديون وسيقف امامها حتما طابورا من المحامين والوكلاء التجاريين . وبمجرد أن تتعقد حياة العربى البسيط وهو أمر لابد منه فى ظل الأوضاع الجديدة فسوف يثنى دون شك على فوائد القضاء المختص بالافلاس والديون حيث « سيتيح له التخلص من دائنيه بالطرق القانونية دون الحاجة إلى سفك الدماء أو اللجوء إلى المنفى الاختيارى . وفى مكان ليس ببعيد عن المحكمة يوجد مبنى قذر كريه المظهر ، يصعب الاقتراب منه أثناء الجزر ، اشاروا اليه قائلين لى بانه أفضل حمام من بين العديد من الحمامات أو المسابح العمومية التى تفخر بها البصرة حيث تتردد عليه الشخصيات المرموقة فى المدينة حينما ترغب فى الاستحمام . أما المساكن العادية فى مدن الخليج فقد اعتادت على

الحياة دون الحاجة للاستحمام أو لمرافق الزينة والاغتسال الأخرى ، اذ من الواضح أن السكان العرب لا يميلون إلى الاستحمام ولا يألفونه . وعندما تترك هذا الحمام ستصل إلى مقر الارسالية الأمريكية بمدارسها ، ومستشفاها ، وعياداتها ، وورشها ، ومساكنها ذات الطابق الواحد . وقد تأسست فى هذا الجزء من العالم وفى أنحاء عديدة من بلاد فارس الأرساليات البروتستانتية الأمريكية منذ أمد طويل . ان الحس العملى وحسن التصرف والتسامح العفوى الذى تؤدى به هذه الأرساليات عملها يجعلها تلقى ترحيبا كبيرا وشعبية واسعة لدى الأهالى ، وجميع الذين اتصلوا بها وجربوا أنشطتها الخيرية يثنون عليها غاية الثناء ويقدرونها تقديرا عاليا .

وقد انشأت « جمعية الشبان المسيحيين » فرعا لها فى البصرة مؤخرا وذلك ـ كما قيل ـ من أجل تلبية المطالب الروحية للغربيين الذين بدأوا يستوطنون بسرعة ضفاف الشط ومن أجل تعليم المسلم السامى العرق كيف يتبع طريقا أكثر وثوقا نحو السماء تجعله يحيد عن دينه وعقيدته . ويمثل رأس جدول العشار طوال النهار أجمل المشاهد المليئة بالحياة المتعددة الألوان والنابضة بالحركة الدائبة . وبالامكان مقارنته ـ مع الفارق الكبير بالطبع ـ بالقناة الكبرى فى مدينة البندقية (فينسيا) الايطالية وقد اكسب هذا الجدول مدينة البصرة لقب فينسيا الشرق . ان ازدحام حشود القوارب ، ومراكب الصنادل الخشبية ، والسفن الناقلة للحمولة ، وبالاخص زوارق « الابلام » الجميلة التى تشبه كثيرا زورق الجندول الفينسى من حيث الشكل والحركة الانسيابية ، والناس الذين يرتدون ملابس غريبة وهم يصعدون وينزلون على العتبات النهرية ، وصرخات البحارة ، والسماء الزرقاء الصافية فى أعلى ، والهواء المنعش البارد ، تضفى جميعا بعض التشابه على هذا الوصف للبصرة . إلا أن أية معرفة ضئيلة بحقائق الأمور سرعان ما تبدد هذا الوهم المضلل ، اذ من المستبعد أن تنافس مدينة السندباد القديمة تلك المدينة التى يطلق عليها « وليدة البحار » وملكة الادرياتيك . ومع ذلك فان الحياة النابضة بالحركة والمشاهد المتغيرة التى يزخر بها جدول العشار الواسع تعتبر ممتعة ومسلية بل هى من خصوصيات ذلك المكان حيث تجذب اليها نظر الزائر الغريب .

دعنا نتحدث الآن عن « البلم » ، فهو يستحق وصفا موجزا . وهو قارب الركاب فى البصرة وشط العرب من المحمرة إلى القرنة . وقد وصفه « السير بيرسى سايكس » خطأ فى مكان ما من مجلدات رحلاته الضخمة بانه « طوف » من حيث انه يشبه الأطواف الجلدية المنفوخة التى تشاهد فى نهر السند ، أو يشبه « القفه » وهو قارب صغير دائرى الشكل مغطى بالجلد ومطلى بطبقة من القار ، يستعمل فى أعالى نهر دجلة لأغراض نقل الركاب أو للصيد النهرى . ومن المؤكد ان « البلم » ليس بطوف وليس شيئا شبيها بالطوف ، بل على العكس من ذلك انه أجمل مركب مائى صغير قد يراه المرء فى أى مكان سواء عند التنقل

داخل المرفأ أو عند الابحار فى النهر . ويبدو لى أن لكلمة « بلم » صدى فى كلمة « فلم » وهو اسم قارب صغير يستخدم فى المياه الداخلية عبارة عن قارب مسطح القعر يصل طوله إلى عشرين قدما أو أكثر وقطره من قدمين إلى ثلاثة أقدام ، له طرفان مستدقان ينحنيان ويتقوسان إلى الداخل أشبه بقرون الكبش ، وهما ملونان أو مطليان . وقد صبغ بدنه الرمادى وقعره الأحمر القانى على نحو جميل بألوان خفيفة متناسقة منها الأزرق ، والأخضر الفاتح ، والأبيض ، والأخضر الداكن ، وله مقاعد وثيرة مريحة فى الوسط صالحة لجلوس شخصين أو ثلاثة عليها تعلوها مظلة أو غطاء واق من أشعة الشمس . وعند الابحار عكس التيار نحو أعلى الشط قرب الشاطىء يقوم اثنان من البحارة يقفان فى أول وآخر « البلم » بتسيير أو دفع القارب بواسطة العصا الطويلة ، وعند الابحار فى اتجاه مجرى النهر نزولا من الشط فانهما يقومان بتجديفه أو توجيهه أو تركه ينساب لوحده مع التيار . وهو أجمل من قارب الجندول الداكن اللون ، ان لم يكن أسهل منه فى التسيير والتجديف ، وهو أكثر شبها بقارب « القايق » الاسطنبولى . ويوجد أكثر من الفين من قوارب « الابلام » هذه تجوب مياه العشار ، وعلى امتداد مجرى الشط وفى أعلى وأدنى الجداول وذلك لأغراض النقل بالاجرة . ولدى كل رجل ميسور الحال فى البصرة والمحمرة قارب أو قاربين من « الابلام » وذلك لأغراض المتعة والترفيه . ومن الممتع أن تكون راكبا على متن قارب « بلم » في الشط صباحا أو مساء خلال فصل الشتاء الجميل بالبصرة ، فحركته هادئة ورشيقة ووديعة . أما « الابلام » الأكبر حجما الى حد ما والتي بامكانها أن تحمل من عشرة إلى عشرين راكبا فتستعمل عموما لأغراض نقل الركاب بين الموانىء الرئيسية في الشط .

الفصل الحادى والخمسون

مدينة العشار

تنقسم مدينة العشار الواقعة عند رأس الجدول نتيجة اختراق هذا الممر المائى لها إلى قطاعين هما القطاع العربى المحلى أو الشطر التركى الواقع إلى اليمين والحى التجارى الأوروبى الواقع إلى اليسار والمحاذى لطريق الساحل . وتشاهد فى القطاع الأخير العديد من المبانى الكبيرة التى تصطف على طول امتداد الطريق وتحتلها المكاتب والمؤسسات التجارية المتنوعة ومن بينها مكاتب مصلحة البريد والهاتف البريطانية ، والمكاتب العسكرية ووكالات البواخر ، وفرع للبنك الشرقى الهندى لديه أعمال تجارية رائجة ، ومخفر للشرطة ، ومكاتب جريدة « بصرة تايمز » ، ونسختها العربية « الأوقاف البصرية » . وبالمناسبة هذه صحيفة جريئة جدا تتكون من نشرة مزدوجة واحدة ذات أربع صفحات من قطع الربع ، وتتضمن موجزا عن الحرب ومقالة افتتاحية حتى توفر حيزا لذلك والبقية عبارة عن اعلانات تجارية والتى أتصور انها ضرورية جدا . ويبدو انها تنتهج سياسة انتهازية لا أقل ولا أكثر إلا اننى أتمنى لها على أية حال النجاح فى عملها الصحفى . ولعل إصدار صحيفة قوية مستقلة كما هو مطلوب الآن فى بلاد الرافدين لن تكون مربحة . ويوجد فى هذا القطاع أيضا ، وإلى مسافة أبعد إلى الداخل على امتداد الشارع المتقاطع العديد من المتاجر الأوربية الكبيرة التى تحمل اسماء مألوفة لدى معظم الناس فى بومباى مثل « ايفانز فرايزر » ، « ليج وويبورنى » ، « د . ماكروبولو » ، « مخازن الجيش والبحرية » ، « ريتشارد سون وكريداس » ، وآخرون غيرهم من الذين قبضوا على الزمن من ناصيته والذين ستنتعش أعمالهم التجارية حتما فى ظل الأحوال السائدة حاليا فى « بلاد الرافدين » (من عادة الجندى البريطانى أن يلفظ هذه « الكلمة المباركة » بطريقة رخيمة تنم عن عدم التوقير) ، وتلقى جميع أنواع البضائع التى يتعاملوا بها رواجا كبيرا وتحظى بطلب عاجلا ومتواصلا ، كما أن ظروف الحرب تتحكم فى الأسعار وتجعلها غير قابلة للنقاش ومتعذر السيطرة عليها ، فيجنون من وراء ذلك أرباحا طائلة فى الوقت الذى يلتهب فيه سعير الحرب .

وتماثل الواجهات الخارجية لهذه المؤسسات تلك الواجهات الفخمة فى مدينة بومباى بالرغم من وجود بعض الكتابات العريضة أو الحروف المختصرة المنقوش عليها . وتوجد على امتداد ضفة النهر فى هذه الجهة من العشار إدارة المواصلات الحكومية ، والادارة

العسكرية المختصة بلوازم الجيش ، المستودعات الأخرى التى تعج بالجنود المنهمكين فى عملهم وهم منتظمون فى نسق عسكرى .

وتعتبر العشار مع مرفأها الحافل بالنشاط والحركة مدينة فى حد ذاتها ، مساحتها شاسعة وسكانها « يتزايدون على نحو واضح » ، وقد توسعت تدريجيا حول مبنى الجمارك ومواضع الرسو ، وامتدت بعيدا نحو الشمال حيث تقع مزارع النخيل إلى الغرب ويقع الشط الواسع إلى الشرق منها . ومعظم سكانها من العرب سواء من الحضر أو البدو . ويقع على الضفة اليمنى من أعلى الجدول ويشرف عليه مقهيان كبيران مفتوحان للهواء الطلق مؤثثان بمقاعد خشبية خشنة طويلة مربعة الشكل ذات مساند مستقيمة ، كما يحويان بعض المناضد أو الطاولات وهذان المقهيان مزدحمان بمرتاديهما طوال اليوم من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل حيث يتم تحويلهما بصورة مؤقتة إلى مقاهى غنائية . وبامكان كل من لديه رغبة فى معرفة الحياة فى البصرة ان يشاهد الكثير من اطوارها فى هذه المقاهى العربية التى يتردد عليها الأهالى ويجتمعون فيها باعداد كبيرة من أجل الترويح عن النفس ، وتبادل الأحاديث ، واجراء المعاملات التجارية ، والراحة والأنس وقضاء أوقات الفراغ . فهى تقوم مقام النادى أو تفى بغرضه دون الحاجة إلى دفع أية رسوم للعضوية أو اجرة للدخول .

أما الشارع ، الطويل ، الواسع ، المستقيم ، الممتد من الجسر الأول الواقع فوق الجدول فيقسم هذا القطاع من المدينة إلى نصفين متساويين تقريبا . فهو الشارع الرئيسى العام فى العشار ويجد الزائر متعة كبيرة أثناء التجول فيه .

وتقع على كلا جانبيه ـ اللذان يخلوان من أرصفة المشاة ـ صفوف متصلة من البيوت المتواضعة المظهر التى تحتل الحوانيت الشعبية ومنصات البيع المكشوفة طوابقها الأرضية ، وتتداخل مع ما يعرف اليوم فى الهند باسم « المتاجر الأوروبية » ، وهى المؤسسات التجارية الجديدة . وقد بدا ان هذا الموضع يحتله العديد من صغار التجار القادمين من بومباى ، منهم البهرة ، والخوجة* ، وبعض التجار الهندوس ، وقليل من المجوس الذين يطلقون على أنفسهم « تجار عموميون » حيث فتحوا متاجرا لهم هنا تعرض فيها تشكيلة متنوعة من البضايع الهندية واليابانية والأوروبية مثل الحرير ، والملابس ، والخردوات المعدنية ، والأوانى الخزفية ، ولوازم الخياطة ، والأحذية ، والزيوت ، والخمور والمشروبات الروحية ، والساعات الجدارية وساعات الأيدى حيث تباع جميع هذه السلع بأسعار خيالية . ويمتلىء

تعقيب . اتباع أغاخان بالهند وهم من فرقة الاسماعيلية

هذا الشارع بمقاهى الشاى الصغيرة والمطاعم مما يحمل المرء على الاعتقاد بأن الافراط فى الاستهلاك والاسراف فى الأكل والشرب هو سبب رواج جميع هذه المحلات . أما مهنة السقاء أو بائع الماء المتجول فهى على وشك الاندثار ان لم تندثر بعد . وقد شاهدت من بين هذه المحلات واحدا يعد أفخمها جميعا وقد صمم على أساس انه « مطعم انكليزى فاخر » وهو يقدم الشاى والقهوة والمرطبات والحلوى المثلجة ، والفطائر والمعجنات والحلويات ، إلا أنه لا يبدو جذابا . وتوجد هنا أيضا عدة دكاكين لبيع التبغ ، بينما قام طبيب واحد أو طبيبان للأسنان ، وكذلك « حكيمان » أو طبيبان شعبيان لديهما عيادتان عاديتان ، إضافة إلى مصور واحد بمزاولة أعمالهم التى يبدو انها تلقى رواجا كبيرا هنا

ولا يزال يوجد متسع للمزيد من مثل هؤلاء الحرفيين ذوى المهارات المهنية ، إذ بامكان بعض أطبائنا المجوس فى بومباى الذين يحملون درجات فى الطب مثل « اجازة فى الطب والجراحة » ، و « بكالوريوس الطب والجراحة » ، و « جراحة الأسنان » بدلا من إضاعة الوقت سدى فى « قتل الذباب » (كما يقول التعبير الكوجراتى فى الهند) ان يجدوا فرصة ثمينة أمامهم إذا انتقلوا إلى العشار واستقروا فيها وفتحوا لهم عيادات مجهزة تجهيزا جيدا تحت اشراف صيادلة ماهرين يقومون بتوفير أدوية مصرح بها إضافة إلى جميع مستلزمات الاستحمام والنظافة الخ .. كما أن الاثرياء العرب الذين كانوا قانعين لفترة طويلة بالسجاد والوسائد والجدران العارية قد بدأوا يحذون الآن حذو الأجانب فى استعمال أطقم الأثاث المنزلى الحديث من طاولات ، ومقاعد ، وارائك ، واسرة وخزانات من مختلف الأصناف والأنواع ، والمناظر .. الخ حيث أصبح الأثاث الحديث الآن موضع اقبال عام ، لذا فان بامكان النجارين وتجار الأثاث فى بومباى الانتقال إلى البصرة وإقامة معاملات تجارية خاصة بهمْ هناك . لتوقع الحصول على مردود مادى كبير منه . فالبلاد باسرها خالية من الأخشاب الصالحة لأغراض البناء ، حيث يتم استيرادها الآن فى الأغلب من بومباى وبورما وحتى من اليابان ، لذا بالامكان إقامة معاملات تجارية على نطاق واسع فى البصرة وبعوائد مالية سريعة فى هذه السلعة التجارية الهامة . إلا أن المشكلة الوحيدة التى تعترض جميع الذين لم يولدوا فى هذه البلاد أو لم يألفوا الحياة فيها هو المناخ القاسى فى البصرة الذى يستمر طوال خمسة شهور على الأقل من السنة ، ما بين بداية ابريل حتى نهاية أكتوبر ، حيث ترتفع درجة الحرارة خلال هذه المدة إلى حد لا يطاق . كما عبر عن هذه الحالة فى احدى المرات ضابط بحرى « للسير بيرسى سايكس » قائلا بان « **البصرة فى الصيف موضع غير ملائم لرجل قصير الرقبة** » وأكاد اجزم قائلا بانها كذلك حتى لرجل طويل الرقبة ، استثناء من ولد وتربى على ضفاف الشط .

ومن المؤكد انه بالامكان التخفيف إلى حد بعيد من وطأة الظروف المناخية القاسية فى الصيف عن طريق تحسين الأمور والأحوال السائدة الآن وذلك بتوفير وسائل أفضل لتموين

المياه ، وبناء نمط أحسن من المساكن ، وتركيب المراوح الكهربائية ، وانشاء معامل الثلج وغرس الأشجار من أجل جعل البصرة مكانا ملائما لاقامة الهنود فى جميع الأحوال . فهذه البقعة زاخرة بالعديد من الفرص الثمينة فى العديد من المجالات ، فعلى سبيل المثال ان الرجل الذى قام بتشغيل مركبتين عموميتين ذات محركات لنقل الركاب بين العشار والبصرة القديمة قد اثرى من وراء ذلك ، بينما الرجل الآخر الذى يقوم الآن بتشغيل ستة من عربات الخيول لنقل الركاب بالأجرة قد أصبح لديه عملا تجاريا مزدهرا منها . ولا يزال هناك متسع للمزيد . ويقدم هذا القطاع الشعبى من العشار باسواقه المزدحمة ، ومقاهيه الكبيرة ، ومكاتبه الجمركية النابضة بالحركة ، وشارعه الرئيسى العام الملىء بالصخب السالف الذكر مشاهدا متغيرة الألوان حافلة بالتنوع ، أما بالنسبة لسكانه المتنوعين ومتعددى الأجناس فبالامكان القول بان هذا القطاع يمثل متحفا متحركا شاملا للأعراق الأسيوية . فكل نوع وصنف من الشعوب السامية ، من حضرموت إلى بغداد وما وراءها ، ومن الشام ومصر ، ومن الهند وكوهات وكابل لهم حضور هنا . وتمثل البصرة والعشار بنماذجها البشرية بالنسبة للطالب الدارس لعلم الانسان حقلا واسعا ومتكاملا للدراسة والبحث . فانك تشاهد هنا وتتزاحم اثناء المشى عصرا مع العرب من حضر ومن بدو ، ومع الأتراك ، واليهود ، والأرمن ، والزنوج ، والفرس القادمين من مناطق السهول والقادمين من مناطق الجبال الوعرة ، والبلوش ، والكابوليين ، والسوريين ، والهنود ، والأكراد ، والمصريين ، والغجر ، ومن بين هؤلاء جميعا يتميز الملالى ، والصوفيين ، الأرمنيين ، والحاخاميين اليهود ، والمبشرين ، المسيحيين باغطية رؤوسهم وازيائهم .

وقد أضيف الآن إلى هذا الحشد المتباين من البشر صنفا جديدا على سبيل زيادة التنوع صنفا جديدا يتمثل فى الوجود المألوف للعسكريين البريطانيين والهنود المتميزين ببذلاتهم العسكرية الكاكية من مجندين وجنود نظاميين الذين جاءوا إلى هذه البلاد ليحكموها ويتسلطوا على هؤلاء « اليهود والأتراك والكفار والوثنيين » حيث يعتزمون معاملة الأهالى معاملة حسنة ويجعلوهم يتحملون المسئولية . وغالبا ماينظر العربى فى البصرة ببال مشوش حينما يرى :

« **هؤلاء الأسياد من بنى البشر يمرون وكبرياء فى قيافتهم وتحد فى عيونهم** » .

إلا أن العربى الذى يشكل عنصر الأكثرية بين السكان القاطنين هنا وفى جميع انحاء الشط يتميز بكونه شخصا حساسا ونافذ البصيرة ، لكنه غير عملى باى حال من الأحوال ، فسرعان ما يهتف قائلا « **لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم** » تبرما من أى تغيير فى طبيعة الأمور ، وحينما يألف السلطة الجديدة الغريبة فانه سيحمد الله على هذه النعمة التى اسبغها عليه ، لأنه سيرى ويتعلم قيمة السواعد القوية والعقل المبدع الذى يوعد بتحويل « الصحراء إلى جنة خضراء » خصوصا إذا لم يتدخل أحد فى معتقداته أو يسأل من أين

يكسب ماله . فهو لم تخالطه قط أدنى قدر من المودة نحو التركى ، وبما أن العثمانى قد تمت ازاحته الآن وأصبحت عاصمة الخلافة واقعة فى أيدى البريطانيين فليس هناك ثمة سبب يحول دون أن يصبح العربى مواطنا محبوبا للامبراطورية التى تمتد فوق نصف مساحة الكرة الأرضية المأهولة بالسكان ، فقط إذا استطاع الحكم البريطانى أن يوطد أقدامه فى هذه البلاد بالفطنة واللباقة والذوق السليم والتقليل شيئا فشيئا عن عجرفة الاعتداد بالنفس وعنجهية التعالى وصلف الغطرسة التى تجلب الأذى والضرر إلى البريطانى وتجعله رغم خصاله الحميدة العديدة عرضة للكراهية والبغضاء فى الكثير من البلدان التى حبته العناية الالهية بأن عهدت بها اليه أمانة بين يديه .

الفصل الثاني والخمسون

الواجهة النهرية في البصرة

يقتصر القطاع الرابع الذي يشكل البصرة الحديثة بأكملها على حي الاحتلال العسكري فقط ويمتد على طول ثمانية أو تسعة أميال من الوجهة النهرية حيث يقع في معظمه على الضفة اليمني للشط ، وهو الموضع الذي كانت تسود فيه أثناء وجودي هناك ولاتزال سائدة فيه أنشطة حربية محمومة حيث انبثقت فيه خلال شهور قليلة مدينة جديدة كأنما مرت على هذا الموضع عصا سحرية وفتحت صناديق الثروة على مصراعيها فلم تعد تكترث إدارة الحرب الحديثة بسبر غور أعماقها . فالحرب العظمى تبدو ظاهرة للعيان على طول امتداد هذا الحي في البر والنهر . فهناك ترى مستشفى الضباط ، ومستشفى الجنود الأوروبيين ، ومستشفى القوات المحلية ، ومساكن أعضاء هيئة الأركان ، ومكاتب الادارتين البحرية والعسكرية ومنزلى مدير المرفأ ومدير الارساء ، والمنشأة العسكرية ، وصفوف متتالية من الثكنات العسكرية التى أنشأت أو تحت الانشاء ، ومكاتب البريد والبرق العسكرية ، والتوصيلات الكهربائية ، ومظلات الادارة العسكرية المختصة بلوازم الجيش ، والمخازن والبرادات ، ومستودعات المدفعية ، ونادي الضباط وقاعات الأكل ، ومطاعم الجنود ، ومساكن الممرضات والأطباء العسكريين ، ومباني السكك الحديدية بمظلاتها ، ومخازنها ، وأرصفتها ، ومكاتبها ، ومحطاتها ، ومكاتب شركة الهند البريطانية للملاحة البحرية .

وهناك الأرصفة والأحواض والمراسي المليئة بالحركة إضافة إلى بعض المباني الأخرى وذلك في المكان الذي لم يكن يوجد فيه من قبل أي رصيف أو موضع ملائم للرسو . فضجيج الحرب يدوي في كل جهة ومكان والعمل يجري على قدم وساق بمعدلات عالية . فالمشاهد التي رأيتها كانت مليئة بالحركة والعمل وأكثر نشاطا من أية خلية نحل . فقد تصادف في تلك الأثناء أن عاود البريطانيون شن هجماتهم القوية ضد الأتراك الذين كانوا بدورهم محاصرين فى « كوت العمارة »* التي اشتهرت من جراء ذلك ، وكانت الأجواء مشحونة

* تعقيب . بدات معركة « الكوت » الثانية في ١٤ ديسمبر ١٩١٦ حتي ٢٣ فبراير ١٩١٧م .

بالشائعات والحكايات عن إحراز البريطانيين لمكاسب عسكرية إلا أنه لم يعرف شيئا من هذا القبيل آنذاك بصورة قاطعة حتى في البصرة القريبة جدا من مسرح العمليات الحربية .

وكانت ضفة الشط مزدحمة بالبواخر من مختلف الأحجام والأنواع ، فهذه هي المرة الأولى على مدى تاريخها الطويل الممتد عبر قرون ترى وتحقق البصرة أشياء وأعمالا لم تخطر ببالها من قبل ، حيث كان يشاهد هناك انزال القوات ، ورحيل للقوات ، وزحف للقوات ، كما تشاهد الرافعات البخارية الضخمة الطافية فوق الماء وهي تنقل المدافع الكبيرة وعربات السكك الحديدية بكاملها والزوارق البخارية من البواخر إلى الشاطىء ، وتشاهد أيضا هناك قاطرات متحركة تجر وراءها عربات كاملة للقطارات وهي تنفث الدخان المتقطع في الهواء متنقلة بين « مرجيل » و « القرنة » ، وكذلك السيارات ، والشاحنات ، والدراجات النارية والدراجات الهوائية وهي تذرع الطريق ذهابا وإيابا أوتنطلق مسرعة في هذا أو ذاك الاتجاه ، إضافة إلى مراكب التجديف الثقيلة وبواخر التغديف* وهي تمخر عباب مياه

الشط ، وكذلك السفن المستشفيات الضخمة الراسية هناك في الوقت الذي تنحدر فيه الشمس نحو الغروب متوهجة بالأنوار الحمراء والخضراء والبيضاء ، كما تشاهد السفن البخارية العملاقة الكاسحة للطمى ، والمراكب الحديدية الضخمة ذات الفتحات الواسعة الصالحة كل واحدة منها لنقل خمسين طنا من الحمولة . وإلى جانب ذلك تشاهد على الدوام معجزة العصر وهي الطائرات التي تزيد سرعتها على سرعة طير « الرخ » الاسطوري ، حيث تناور في الجو بأجنحتها الهادرة ، محققة بذلك النبوءة التي أطلقها أحد الشعراء حينما قال « **أساطيل الجو العالقة في كبد السماء الزرقاء الصافية** » . ان كل هذا التحول المفاجىء والمدهش والممتع الناجم عن وجود هذه القائمة من عجائب المخترعات العصرية تصيب البصراوي بالدهشة والتعجب وتتركه في حال أشبه بحال أصحاب الكهف حينما أفاقوا من سباتهم الطويل . وأتصور انه يجب أن يفيق من غفوته ويبذل كل مافي وسعه لكي يكون نشطا وإلا فانه لن يتمكن من مجاراة مواطنيه الهنود الذين يتميزون باليقظة والاقدام . وتقع عند نهاية الطرف الشمالي لهذا الحي الجديد أو مدينة البصرة الحديثة قرية « مرجيل » وهي عبارة عن منتجع للنزهة والترفيه يرتاده أهالي البصرة . وقد تم تحويله الآن إلى منتجع خصوصي مغلق محجوز للأوروبيين فقط الذين جلبتهم الحرب إلى البصرة . وقد أزيلت من هذه الناحية وما حولها بساتين النخيل المتفرقة ، كما قامت بعض الكاسحات البخارية القوية بكسح الطمى والوحل من قاع النهر وإلقائه فوق حافات النهر حيث يمهد ويشكل أرض جديدة تستخدم لأغراض البناء .

---

* تعقيب : مراكب وبواخر مزودة في جانبها الخلفي بعجلات للتغديف في الماء .

ويوجد هنا عند نهاية هذه البقعة الخط النهائي للسكة الحديد الممتدة دون انقطاع إلى القرنة وبغداد وسامراء وأبعد من ذلك باتجاه الشمال . وهذا الحي بأكمله مضاء بالمصابيح الكهربائية . وقد بدأت الصحراء المقفرة الشاسعة التي عاش وارتحل وسعي ودب فيها سكانها القلائل من البدو المتخلفين تتدفق حيوية جديدة لم تعرفها ولم تشهدها من قبل ، لذا فان البصراوى المحافظ الذي يترك الأمور تسير على الغارب وينسبها للأقدار والقسمة والنصيب بحاجة لأن يقف قليلا ويفتح عينيه ويجول ببصره فيما حوله ويغرق في تفكير عميق . فالأموال التي أنفقت في الخفاء ولاتزال تنفق يوميا بغير حساب دون أن يجرأ أحد أن يعدها أو يسأل عنها وذلك من أجل بناء قويا متينا راسخا بالرغم من انها تصيب الأهالي بالدهشة إلا أنها تثير في نفوسهم آمالا واقعية بان الذي يجري هنا يعني في حقيقة الأمر استمرارية الاحتلال البريطاني الذي لا يشعرون بأى نفور منه ، بل انهم يتطلعون قدما نحو هذه الغاية ، وهم من دون شك على أتم الاستعداد للتخلي عن التركي وأفعاله وان يسلموا أمرهم لأسيادهم الجدد . لذلك فان الكثير من الناس يرون بان البريطانيين سيرتكبون خطأ شنيعا من جميع النواحي إذا هم أعادوا إلى الأتراك الذين دأبهم العناد والغدر كل هذه الاراضي التي بذلوا من أجلها تضحيات جسيمة في الأرواح والأموال . وبالنظر إلى ذلك فلا يسعني سوى أن أغلق هذا الفصل مستشهدا بمقولة « السير آرثر لولي » الواردة في كتابه الصغير الذي صدر مؤخرا بعنوان « بلاد الرافدين » حيث يقول : « من المؤكد انه إذا وضعت الحرب أوزارها وانسحبنا في لحظة مشئومة فان انسحابنا سيعد بمثابة خيانة للرجال الذين كسبنا ولائهم بالتملق وسيكون له أسوء الأثر على رعايانا المسلمين في كافة أنحاء الامبراطورية . يضاف إلى هذه المقولة العبارة الختامية في خطاب « اللورد هاردنغ »* الذي ألقاه أثناء زيارته للبصرة في يناير ١٩١٥ حين قال : « لقد جئت إلى هنا لمعاينة الأوضاع المحلية بنفسي : وكما تعلمون اننا لا نقاتل لوحدنا في هذا النزاع الكبير ولا يمكننا أن نضع خططنا المستقبلية دون أن نتبادل الآراء مع القوى العظمى الأخرى إلا أنني أستطيع أن أؤكد لكم بان المستقبل سوف يحمل إليكم حكما أكثر رفقا وعطفا بكم » . ولن يخطىء أهالي البصرة إذا اعتبروا هذه الكلمات الواضحة بمثابة وعدا بعدم تركهم يرزحون مرة أخرى تحت نير الحكم التركي الجائر ، ويحق لهم أن يعتمدوا على الوفاء بهذا الوعد .

---

* تعقيب . اللورد شارلز هاردنغ (١٨٥٨ ـ ١٩٤٤) دبلوماسي بريطاني ، عين نائبا للملك في الهند خلال الفترة ١٩١٠ ـ ١٩١٥

الفصل الثالث والخمسون

الحكم العسكري البريطاني في البصرة

من المعروف أن مدينة الخرطوم الواقعة على النيل الأدنى كانت في الماضي بقعة موبوءة يتفشي فيها مرض الملاريا ، ومنعزلة وسط القفار الرملية . كما كانت ضحية لتنافس القبائل المحلية المتوحشة ، المتنازعة ، الجاهلة ، المتعصبة ، والمثيرة للقلاقل والفتن ، وكانت صلاتها منقطعة تماما عن كافة أشكال الحياة المتمدنة . وفي خلال تسعة عشر عاما منذ أن شهدت أم درمان الفصل الختامي لمصير المهديين* تحولت الخرطوم تحت الحكم البريطاني إلى مدينة جميلة متطورة ومزدهرة تستحق عن جدارة الاسم الذي أطلق عليها الآن وهو « مدينة جنائن مصر » . وليس هناك ثمة سبب يحول دون أن تتحول مدينة البصرة الواقعة بصورة مماثلة على الشط والتي تعاني من الاهمال والسمعة السيئة نتيجة سنوات طويلة من الجمود والحكم السيء إلى مدينة مزدهرة تدب فيها حياة جديدة فتنافس بذلك مدينة الخرطوم إذا سارت الأمور ووصلت كما يتوقع المرء أن تسير وتصل إليه في ظل الأوضاع الجديدة السعيدة التي بدأت تستقر الآن هناك . ومنذ أن تم اخراج وطرد التركي من هذه الأنحاء أصبح هذا المكان وما حوله خاضعا الآن تحت سيطرة الحاكم العسكري البريطاني ونائب الحاكم وتطبق فيه حاليا الأحكام العرفية . وهذه ضرورة أملتهادون شك ظروف الحرب الراهنة إلا أنه من الأفضل التخفيف من وطأتها بالنوايا الطيبة وحسن التصرف والذوق العملي السليم . ان حالة العجز القهري التي جثمت طويلا على كاهل البلاد قد زالت وحلت محلها أنشطة جديدة بالامكان رؤيتها عبر العديد من دلائل التحسن والتقدم الجارية في شتي المجالات والنواحي . وقد تكون بعض هذه الدلائل تافهة ضئيلة الشأن إلا أنها تمثل القشة الرقيقة التي تريك من أين تهب الريح . ولم تكن البصرة تعرف قبل مجيء الانكليز إليها جهاز شرطة للمدينة يمكن الاعتماد عليه . ويقضي العرف الالزامي أن تغلق جميع البيوت أبوابها وان توصدها باحكام حتى قبل مغيب الشمس . ولم يكن في استطاعة أية امرأة محترمة أن تغامر بالخروج بسلام إلى الشوارع بعد الساعة الرابعة عصرا .

* تعقيب . من الواضح أن المؤلف يشير هنا إلى الحملة العسكرية البريطانية على السودان التي قضت على اتباع « المهدى » في أم درمان عام ١٨٩٨م ، إذ كانت معظم اراضي السودان واقعة حينذاك تحت سيطرة أتباع الزعيم الديني السوداني « محمد أحمد بن عبدالله » (١٨٤٤ ـ ١٨٨٥م) الملقب « بالمهدى » ، حيث استولى هذا الزعيم الديني على الخرطوم عام ١٨٨٩م واتخذ أم درمان عاصمة له إلا انه توفي بعد ذلك بقليل . وقد قاد « اللورد كيتشنر » الحملة العسكرية البريطانية على السودان واحتل هذا البلد وأخضعه إلى ما يسمى « السيادة المشتركة البريطانية ـ المصرية » عام ١٨٩٩م .

وكان المجرمون وقطاع الطرق ينتشرون بكثرة في هذه الأنحاء ويعيثون فيها فسادا كما يحلو لهم . وكانت الشرطة عاجزة عن أداء مهامها ، كما كانت المحاكم فاسدة . ولم تكن توجد مصابيح للاضاءة في الشوارع . أما التدابير الصحية فلم تكن معروفة ، ولم تبذل أية محاولة لانشاء الطرق أو إصلاحها وترميمها ، إلا أن كل هذه الأمور قد تغيرت الآن ، ففي العشار والبصرة يقوم الجنود الأوروبيون والمجندون الهنود بأعمال الدورية بصورة منتظمة الآن في الشوارع والشط ليلا ونهارا . كما يشعر الجميع بالأمن الذي استتب الآن وصان الأرواح والممتلكات ويثنون عليه . وفي المساء تعلق مصابيح الكيروسين الحسنة الاضاءة على أعمدة أو على خطاطيف وحاملات تتدلى من فوق جدران بيو ٠ ف زوايا ملائمة وتفصلها عن بعضها الآخر فسحات مناسبة . كما أن الحي الانكيري مضاء بالكهرباء . وينظف الكناسون الطرقات في أوقات محددة ويزيلون منها الأوساخ والقاذورات . ويجري حاليا شق وتعبيد طرق جديدة أما الطرق القديمة فيجري اصلاحها وتحويلها إلى ممرات لعبور العربات . ويعتبر الرماد والنفايات المحروقة المتخلفة من البواخر مواد رخيصة وملائمة لانشاء الطرق ، لذا فانها تستخدم لهذا الغرض . ومن المؤكد أن محدلتين بخاريتين لرصف طرق جيدة وفقا للمواصفات المطلوبة . أما الدراجات النارية رمز السرعة والاستعجال فتشاهد باستمرار في شوارع العشار وطريق الساحل . كما اعتاد المواطن العربي على ركوب الدراجة الهوائية . وكم كان مسليا أن نشاهد عربيا طويل القامة ، راكبا فوق دراجته الهوائية وقد لف ثوبه الفضفاض الواسع حول وسطه ، ويضع نعالا في رجليه ، وهو يدوس على دراجته الهوائية . وقد علقت عند الأطراف لافتات تحمل أسماء الشوارع والمناطق مكتوبة بالحروف اللاتينية والعربية ، وبعض هذه الأسماء تفصح على نحو واضح بأكثر من أي شيء آخر عن هويتها البريطانية ، فعلى سبيل المثال يوجد « شارع الحاكم » ، و « شارع الامبراطور » ، و « شارع اكسفورد » ، و « شارع جيبور « ، و « الكنيسة » ، و « زاوية هايد بارك » ، أما العلائم الأخرى فلا تفصح عن المتغيرات الجديدة . ويوجد هناك ناديا وملعبا للتدريب الرياضي .

وكما سبق أن ذكرت توجد هنا أيضا « جمعية الشبان المسيحيين » . ولم يشيد بعد في هذه الناحية أي بناء على شكل كنيسة خاصة بالقديس الشفيع لانكلترا أو أي قديس آخر ذو منزلة مماثلة إلا أن مثل هذا البناء ـ وان لم يكن قائما أثناء زيارتي الأخيرة ـ سوف يشيد حتما هناك قبل مضي فترة طويلة من الزمن . ويوجد في « مكينة » الواقعة ناحية « مرجيل » مضمارا لسباق الخيل تقام فيه المنافسات طبقا لقواعد وأنظمة نادي مضمار الخيل الهندي

الغربي ، وبه آلتين حاسبتين للمراهنات المشتركة وجميع المرافق الضرورية لمضمار السباق التي تجعل من تربية الحصان عملية مربحة وتهذيبية ، من حيث إعطاء دروس عملية في

الأخلاق الشعبية . ويعتبر القس والفارس المحترف شخصين يمثلان مؤسستين انكليزيتين عريقتين تعملان معا على إبراز الهوية البريطانية . وتعتبر أيام السباق أعراف راسخة يقدرها ويجلها الناس كأيام العطل الرسمية ، حيث يتدفق الناس خلالها من جميع أنحاء البصرة والعشار والمحمرة وعبادان والأماكن الأخرى المجاورة إلى « مكينة » التي يوجد فيها مضمار السباق وذلك للمشاركة في هذه الرياضة التي يولع بها الملوك . وفي كل مكان يصل إليه الحكم البريطاني تحاط بالهيبة البريطانية ـ ذلك البعبع أو الشبح المخيف الذي يمكنك أن تسميه كما تشاء ـ هالة من القدسية وهذا ما هو حادث الآن فى البصرة . فقد صدرت أوامر مشددة يجري تطبيقها حاليا بصرامة وتقضي بإعطاء حق الصدارة وأولوية السبق للأوروبي جنديا كان أم مدنيا ، تابعا أم متبوعا ، رئيسا أم مرؤسا وذلك من قبل أهالي البلاد الأصليين سواء كانوا من علية القوم أو من أدناهم . وأصبحت « التوبية » أو خوذة الفلين رمزا بارزا للسيطرة الأجنبية وشعارا للتسلط والجبروت .

وإذا أراد اثنان أو ثلاثة من البريطانيين أن يسيروا جنبا إلى جنب ـ كما يفعلون عادة ـ في الأزقة الضيقة فيتوجب على العربي أو أى شخص آخر من الأهالي والغرباء أن يتخلى عن الطريق ويلزم جانب الجدار . وإذا جاء بعض هؤلاء الأكابر في عربة يجرها حصان وجاءت في الجهة المقابلة عربة أخرى محملة ببعض الرجال من الأهالى فعلى العربة الأخيرة أن تتوقف وتفسح الطريق لمرور هؤلاء « الأصحاب » الأجلاء لكي يمروا أولا وعند طرفي الجسر الموصل بين شمال وجنوب العشار يقف الجنود حراسا لمنع الأهالي من استخدام الممر الرئيسي أو الأوسط العريض حينما يعبر أو على وشك العبور فيه « صاحب » أوروبي ذلك الكيان الرفيع المتعالي ، وعلي الأهالي أصحاب البلاد الأصليين ومالكيها السابقين أن يتريثوا ويزدحموا في الشريط الضيق لممر المشاة الخشبي علي كلا جانبي الجسر حتي يجتازه « الصاحب » الأوروبي ـ أي شخص انكلو ـ هنديا وهو يختال في مشيته المتروية . ويتوجب علي حوذي صاحب عربة الحصان والنوتي صاحب قارب « البلم » تحت طائلة العقاب أن يمنحا أولوية الركوب لمثل هذا المستأجر الأوروبي حتي وان كانت مركبته يحتلها راكب محلي من أبناء البلاد . وقد أوصي السيد « سوين » في كتاب صدر حديثا ـ حظي بإطراء مبالغ فيه من قبل أحد النقاد المتملقين ـ باستخدام العنف كوسيلة ضرورية ومشروعة لارغام النوتي صاحب « البلم » وأمثاله على الالتزام بالنظام إذا بدر منه أي تصرف (وفقا لتصور الأوروبي) مخل بالاحترام والآداب أو طالب بأجرة أكثر . ويستشهد المؤلف معربا عن استحسانه بحادثة قيام قسيس بجلد أحد الأهالي بالسوط وقيام ضابط روسي بإلقاء آخر في الشط إرضاء لنزوة وهمية في الاستخفاف بالآخرين وإزدرائهم وإذلالهم حيث يعتقد الغربي المتكبر أنه من اللائق ممارستها . ومن المؤكد أن القس قد نسي تعاليم سيده المسيح كما نسي

الروسي انه لا يعدو كونه قوزاقيا . فضلا عن ذلك فان هذا المؤلف الانكليزي يوصي باتباع هذه الأمثلة من التواضع المسيحي باعتبارها جديرة بالتقليد . ويظن هذا الانكليزي ـ حسب رأيه الشخصي ـ ان الادمان على الكحول في بلد مثل بلاد الرافدين « يضفي صفة إنسانية بالفعل » علي المدمن ، ويشدد علي التمسك بهذه النصيحة الرامية إلى الوصول إلى مراتب الكمال قائلا : إنه إذا حرمها النبي « فيجدر التنويه بأنه أباح أشياء اخرى » يجري تعاطيها بكثرة في أقاليمنا الجديدة الواقعة على الشط بطريقة لا تظهر بالطبع علي السطح .

ان هذه الشراسة التي تحدث عنها المؤلف السالف الذكر بطريقة سطحية يعوزها التفكير وتفتقر إلى المنطق وأوصي بحماقة خرقاء باتباعها والأخذ بها قد أبرزها على نحو بارع رسم هزلي ظهر مؤخرا في عدد من جريدة « بصرة تايمز » يمثل ضابطا أو موظفا بريطانيا يرتدي قميصا طويل الأكمال ، يتظاهر بمخاطبة خادمه الهندوسي باللهجة العامية الدارجة وإساءة فهم الجواب ، فيرفس الخادم التعس بعنف ويلقيه خارج الغرفة . وقد يكون هذا عرضا هزليا للبسالة والهيبة البريطانيتين إلا أنه يعكس العواقب المأساوية التي تؤدي إليها مثل هذه الممارسات . وكان عنوان هذا الرسم الهزلي الظريف « المطرود » ، وإذا لم يراع القادمون الجدد عواقب أمورهم فان هذا الأمر قد يؤدي جديا إلى طردهم من البلاد ، إذ من غير المتوقع أن يعاني العربي طويلا كما يعاني الهندي منذ أمد طويل . علي أية حال كل ما يمكنني ويمكن للآخرين الذين يولون هذا الأمر تفكيرا صائبا أن نقول انه كلما تم الاسراع في عدم تشجيع هذه الأساليب وغيرها من الأساليب الروتينية الجامدة المماثلة والتصرفات الغريبة الرامية إلى فرض الاحترام والهيبة كلما كان ذلك أفضل للسلام والرخاء في هذه الأقاليم الجديدة التي أضافتها مصائر الحرب بصفة دائمة ـ دعنا نأمل ذلك ـ إلى الامبراطورية البريطانية . فالحكم البريطاني كفيل بنشر السلام والأمن والرخاء في ربوع هذا البلد العربي . فالمواطن من أبناء هذه البلاد مستعد من جانبه للقبول بالسلطة الجديدة ويعود للبريطاني ليقرر بنفسه فيما إذا كان يستحق الأمر ذلك العناء من أجل جعل هذه السلطة مقبولة لذلك المواطن حينما تثار مسألة تقرير المصير بعد انتهاء الحرب . ان المفهوم السائد قبل الحرب وفي الوقت الحاضر عن التفوق العرقي وما يتميز به من صلافة وغطرسة ينطوي على مخاطر ومساويء كبيرة . ومن الأفضل نبذه والاقلاع عنه وإهالة التراب عليه .

الفصل الرابع والخمسون

يوم اجازة فى العشار

منذ أن وقعت البصرة فى أيدى البريطانيين والمجوس الزرادشتين مثلهم مثل التجارة يقتفون أثر العلم الخافق ، فقد سافر العديد منهم إلى هناك وسكنوا فى هذه المدينة وبالأخص فى العشار ، حيث يمارس الكثير منهم العمل التجارى ولديهم معاملات تجارية عديدة اتاحتها لهم إلى حد بعيد الحرب الجارية بمطالبها الملحة المستعجلة المتواصلة . وقد غدت هذه الأعمال التجارية مربحة ـ إذا صدقت الشائعات ـ نتيجة التعامل بالرشوة وهو أسلوب نفعى غير شريف إلا انه ينظر اليه كضرورة وكحافز مشروع فى العمل التجارى . والفرس الذين يطلقون عليها « **مدخل** » يعتبرون مهرة بارعين فى ممارستها ، ويقال ان الشاه ظل الله فى الأرض « **يستوجب استيفائها كلما اسبغ عفوه على احد المتهمين أو منح لقبا لأحد اصفيائه المقربين** » .أما المجوس الآخرين فيعملون فى الوظائف الحكومية وغيرها من الوظائف . وقد دعانا صديق منهم يعيش فى العشار برفقة آخرين من أبناء ملته لتمضية يوما واحدا على الشاطىء وقد سررنا غاية السرور بهذه الدعوة الكريمة التى توعد بقضاء نزهة جميلة ، فقد كان الطقس مثاليا لقضاء اجازة ممتعة . وقد أبحرنا فى الشط على متن قارب جميل من قوارب « البلم » ورسونا قرب « بيت وكيل » الذى يستخدم كمكتب للأعمال الحربية ، فهنا توجد مبانى ادارة المواصلات ، والادارة العسكرية المختصة بالأرزاق ولوازم الجيش ، وإدارة الشحن والملاحة . ويشاهد هنا المجند الهندى والجندى ، والضابط وضابط الصف ، والنفر ، والمفتش ، ومساعد المفتش ، والخادم العسكرى ، والحمال ، وسائق عربة النقل ، وسائس البغال ، وهم يتحركون جيئة وذهابا ببذلاتهم العسكرية السمراء المغبرة اللون او ستراتهم الكاكية ، وباحذيتهم الطويلة السيقان ، وشاراتهم ، وأحزمتهم ، وأشرطتهم ، وأسلحتهم الجانبية التى يضعونها إلى جنب خصورهم وهم يتألقون باعداد هائلة من الأزرة النحاسية الصفراء المميزة ، والقبعات والخوذ النظامية المألوفة .

وتدل حركة العربات الخفيفة التى تجرها الأبقار التابعة للادارة العسكرية المختصة بالأرزاق ولوازم الجيش ، وخيول الضباط ، والبغال ، وعربات السكة الحديد الضيقة على ضراوة الحرب وشدة المعارك الدائرة ، وتضيف الشىء الكثير إلى الصخب السائد هناك .

وبعد عبور الجدول الكبير نزلنا على سلم الجمارك حيث وجدنا هناك مشاهد مختلفة تماما

عن سابقتها ، وهى تدل على أنشطة التجارة والمتاجرة والأطوار المتحركة للحياة فى البصرة . وقد اجتاح الشاطىء الأيمن هنا حشد هائل من مراكب« الدهو » والصنادل وسفن البغلة العميقة القعر المحملة بالبضائع وهى تمر على نحو متواصل دون انقطاع ، كما كانت صدور بعض مراكب « الدهو » المرتفعة فوق سطح الماء مزخرفة على نحو بديع بالألوان الفاقعة الزاهية ، فيما بدا المستوردون والبحارة وهم منهمكون فى تفريغ وتدوين ونقل وتكديس الحمولة المستوردة وسط لغط شديد وثرثرة كبيرة ولكن دون أية عجلة مفرطة او تبديد للطاقات . ويعتبر صدر النهار وهو الوقت الممتد من الصباح الباكر حتى الظهيرة اكثر الأوقات ازدحاما بالعمل . وبعد اجتياز الأرصفة سرنا فى طريق طويل غير ممهد أو الممر الذى تقام على كلا جانبيه سوق العشار المليئة بالمحاصيل المحلية والسلع الأخرى ، وليس هناك الشىء الكثير الذى يمكن أن يقال عن هذا السوق إلا انه ممتع على أية حال . ويتصل هذا الطريق بالشارع الرئيسى العام ـ كما اطلقت عليه هذا الاسم ـ السالف الذكر ، وإلى جانبه الآخر يقع حى التجار العرب بازقته الضيقة الملتوية . وقد زرنا هنا مكتب السيد « عبد الجبار » وهو تاجر عربى واسع الثراء ، لديه أعمال تجارية واسعة فى البصرة ، ويتعامل مع بومباى وبغداد وأماكن أخرى . وهو وكيل شركة الخليج للملاحة . وبما انه كان فى السابق من رعايا تركيا فقد كان عرضة للتجنيد الاجبارى . وكان يقيم فى بغداد حينما دخلت تركيا الحرب إلا أنه تمكن من الفرار إلى البصرة فى الوقت المناسب . وإذا استعاد الأتراك سيطرتهم السابقة على هذه الأنحاء فسيكون عرضة لتنفيذ حكم الاعدام فيه . وهو فى نفس الوقت مراقب من قبل دائرة المباحث الجنائية العسكرية التى تضع عينها اليقظة عليه باستمرار بسبب سوابقه فهذا الرجل المسكين أشبه بالسمك الطائر المحاصر بين سمك القرش وعقاب البحر . وهو يملك عقارات كثيرة من بيوت وأراض ويتمتع بنفوذ واسع . وهو يستحق بالفعل معاملة حسنة تليق به وقد استقبلنا بطريقة ودية ودمثة للغاية . وهو رجل متوسط العمر ، قصير القامة وبدين ، حسن المظهر ولطيف المعشر ، ويشتهر بكونه رجل أعمال قدير وذكى . وقد هطل مطر خفيف وبلل المدخل والفناء الداخلى والسلم المؤدى إلى مكتبه مما جعل المكان موحلا وزلقا ، واضفى عليه مظهرا يوحى بأنه لم يكنس أو ينظف لمدة أسبوع أو أكثر .

فالأبواب والنوافذ والجدران والأرضيات كانت فى حاجة ماسة لتنظيف شامل . وكان علينا أن نتلمس طريقنا بحذر شديد اثناء الصعود . وكان المكتب مزودا بالأثاث الحديث إلا أنه اعد واستخدم كما يبدو وفقا للطريقة العربية ، ويحتوى على منضدة مستديرة الشكل ، وكرسى دوار ، ومقعدين وثيرين بهت لونهما من كثرة الاستعمال ، كما اسندت إلى جانب الجدار بعض الكراسى الطويلة ذات مساند صلبة وهى من صنع عربى مميز ، جميع زواياها

قائمة ومقاعدها خشنة كالتى يطلق عليها الفارسى وصف « خادشة الكفل » ، كما توجد ساعة كبيرة لكنها متوقفة ومؤشر التاريخ فيها يشير إلى ٣٠ نوفمبر بالرغم من ان التاريخ الجارى كان اسبوع عيد الميلاد . وتتناثر فوق الأرضية اعقاب السجائر والرماد والأوراق المهملة .

فكل شيء يبدو قذرا هناك إلا أن القذارة والوساخة تعتبران من الصفات الفطرية أو البساطة المتأصلة للحياة والميول العربية المحافظة التى تتجنب الافراط فى الاناقة وتتحاشى كل مستلزمات الصحة والنظافة ، والتى قد يبررها ويستحسنها الرواقيون* . ومن المفيد الاستماع إلى آراء السيد « عبد الجبار » حول ما شاع فى البصرة من نتائج الحرب إذا كان راغبا فى الادلاء بارائه حول هذا الموضوع . وجاء إلى المكتب بعض العرب والفرس ، وشربوا القهوة ودخنوا الغليون أو النارجيلة ، أو دخنوا السيجار ، واجروا معاملاتهم التجارية وخرجوا . ولم يتحدث السيد « عبد الجبار » معنا طيلة هذه المدة واستمر منهمكا فى اداء عمله ، يوقع الأوراق ويصدر الأوامر إلى موظفيه أشبه بقيصر آخر ولكن فى صورة مصغرة وهو يدخن سلسلة متواصلة من السجائر المتلاحقة حيث تتكدس فوق منضدته على نحو منفصل كومة كبيرة من السجائر الجاهزة للاستعمال . وبعد تناول القهوة قمنا « بانسحاب تكتيكى » . وقد التقينا هنا مع مضيفنا لذلك اليوم حيث قمنا معه بالتجول فى الشوارع المؤدية إلى « مرجيل » و « الزبير » وندير أنظارنا فى هذه أو تلك الجهة مستطلعين الأحوال بوجه عام ، وقمنا بجولة استطلاعية شاملة فى البصرة القديمة . ان التنوع فى الوجوه والأشكال والأزياء بين أهالى البصرة جعل الحياة فى الشارع مليئة بالمتعة والتشويق بالرغم من أن غياب الجنس اللطيف قد اضفى عليه طابع الرتابة . وتشاهد القلائل من النسوة اللاتى ينتمين على الأرجح إلى الفئات الاجتماعية الفقيرة وهن متحجبات من قمة رؤوسهن إلى اخمص اقدامهن « بالشادور » الداكن المعتم أو المصبوغ باللون الأزرق النيلى ، وبالبراقع الكريهة البشعة المظهر بالرغم من انها تدل على الحشمة الشديدة ، حتى النسوة المسيحيات أو الأرمنيات يخرجن بصورة مماثلة لمعظم النسوة هنا ، ويتميزون عن غيرهن من النسوة بكونهن يرتدين على نحو أنيق الأحذية والجوارب المصنوعة فى باريس أو فينا ، كما يتميزن بحركتهن التى تتسم بالخفة والحيوية . أما الغانيات القلائل التى التقينا بهن بالصدفة هنا وهناك على هيئة مجموعات متجمهرة بالاثنتين وبالثلاث فتضفين على المشهد لونا واثارة . فهذه الفئة من النساء المتبهرجات ، الملطخات بأحمر الشفاه ، والمتباهيات بملابسهن الفاخرة الزاهية المتعددة الألوان ، والمثقلة رقابهن واذانهن وانوفهن ومعاصمهن واصابعهن وارساغ اقدامهن على نحو ملفت للنظر بالعديد من الحلى والمجوهرات الرخيصة والمبهرجة ، والمزينة

* تعقيب : اتباع المذهب الفلسفى الرواقى الذى انشاه الفيلسوف الاغريقى زينون (نحو ٣٣٥ ـ نحو ٢٦٤ ق . م .) المولود فى جزيرة قبرص ، ويقوم على اساس التثقيف والصبر على البلوى والالم وتحمل الشدائد وشظف العيش وعدم المبالاة باللذة .

عيونهن بالكحل ، والمزخرفة وجوهن بالشامات الجميلة البارزة التى يمكن اكتشافها بسهولة . ومما لاشك فيه ان هؤلاء النسوة يتشابهن كثيرا مع تلك المرأة التى حذر منها سليمان الحكيم فى قوله : « خبيثة القلب ، صخابة هى وجامحة ، فى بيتها لا تستقر قدماها ، تارة فى الخارج وأخرى فى الشوارع . وعند كل زاوية تكمن »* . وهذا يثبت أن الطبيعة البشرية واحدة ومتشابهة فى كل العصور وفى كل مناخ وفى كل ظرف مهما طال الزمن بهذه الدنيا . وقد لاحظت اثناء تجوالنا فى الطريق ان عددا كبيرا من المشاة من عرب ويهود وجنود ومجندين وموظفى الادارة العسكرية المختصة بالأرزاق ولوازم الجيش وغيرهم كانوا يضعون ساعات فى معاصم أيديهم ، وقد انجلى هذا الغموض حينما وجدت ان تاجرا صغيرا من بومباى قد جاء إلى البصرة فى الأيام الأخيرة ومعه حمولة من ساعات اليد المعدنية يصل سعر الواحدة منها ما بين ٢ ـ ٨ ربيات متوقعا مكسبا وربحا كبيرا من وراء ذلك ، وقد حازت هذه الساعات على اعجاب الناس فى البصرة فباع الساعة الواحدة منها بسعر ٩ ربيات وأكثر من ذلك بقليل . فهذه المغامرة الجريئة تستحق تلك الربيحة الكبيرة العائدة منها ، إلى درجة ان كل واحدا من بين ثلاثة من عابرى السبيل الذين تقابلهم فى العشار قد أصبح يمتلك ساعة يد واخذ يتعلم قيمة الوقت .

وقد قيل لى انه يوجد من بين أصحاب الدكاكين الصغيرة الجديدة فى البصرة حوالى خمس وعشرون ساعاتيا ، لديهم فى الوقت الحاضر أعمالا تجارية رائجة . وقد شاهدت هنا فى البصرة أيضا كما هو الحال فى المنامة الأولاد من مختلف الأعمار يتدافعون فى الشوارع وحول الزوايا دون أى اكتراث بحركة السير وهم يلعبون لعبة خارجية يبدو انهم مولعون بها وهى لعبة الخذروف . فالفتيان الذين يفلحون فى جعل دواماتهم أو حلزوناتهم البحرية تدور أطول مدة ممكنة عن طريق ضربها بالسياط يعتبرون أبطال هذه اللعبة ، كذلك المتفرجون يظهرون ولعا شديدا بهذه اللعبة . وفى الساعة الواحدة ظهرا وصلنا إلى منزل صديقنا حيث سعدنا كثيرا بمقابلة العديد من المجوس المقيمين فى البصرة الذين تلقوا دعوة لمقابلتنا هناك ووجدناهم مجموعة فى غاية اللطف والمرح والقناعة والرضا ، فقد كانت رفقة ممتعة ظريفة حيث تناقشنا وتحادثنا معهم عن الأحوال والسياسة فى البصرة وحاضر ومستقبل المجوس الموجودين الآن فى الأقاليم الجديدة الواقعة فى حوزة البريطانيين . ومن ضمن المعلومات الأخرى التى حصلنا عليها فقد قيل لنا إن مجوس البصرة قد جمعوا تبرعات مالية من أجل شراء وتعهد مقبرة خاصة بهم تقع خارج العشار ، وقد حصلوا عليها مع شيء من الصعوبة عبر المساعى الحميدة التى بذلها احد العسكريين برتبة مقدم . وانما دعاهم للقيام بمثل هذا

* تعقيب : فى الاصحاح السابع من سفر الأمثال بالعهد القديم من الكتاب بالمقدس .

العمل الطيب هو وفاة أول مجوسى فى البصرة ، إذ كان هذا الرجل يعمل وحيدا فى بعض الأعمال فى مكان بعيد حين وافته المنية ، وقد دفنه تابعيه العرب دون أية طقوس دينية زرادشتية متعارف عليها وذلك فى بقعة نائية مقفرة . وقد تسربت انباء هذه الفاجعة إلى المجوس وبقيت عالقة فى اذهانهم وجرحت مشاعرهم الدينية . وقد سعوا فورا من أجل الحصول على مقبرة مجوسية « سونابور » (دار السبات) أو « خمولستان » (دار النسيان) . كما حصلوا على تصريح ينبش القبر ، وتوجهوا إلى هناك فى هيئة مجموعة صغيرة ، وبعد مشقة كبيرة اكتشفوا تلك البقعة الموحشة المنعزلة ، وتيقنوا من هوية الجثة بالقدر الذى أتاحته لهم الظروف ، وبما ان الليل قد ادركهم فقد دفنوه اشبه بحال « السيرجون مورز »* « خفية فى جوف الليل البهيم على ضوء قنديل خافت » ولاشك أن تلاوة الصلوات كانت قليلة وقصيرة من قبل المجموعة التى قامت بالدفن اذ انتابهم طيلة تلك المدة رعشة الموت ، خشية من غارة يشنها عليهم المتعصبون كهنوتيا . وإذا ما كان فى تلك المناسبة الجنائزية الحزينة أى « ضوء معتم نافذ من قمر متوار وراء الضباب » كما قال أحد الكهنة الأفاضل فى قصيدته الخالدة ، فان الشهود لم يذكروا شيئا من هذا القبيل وقد فاتنى الاستفسار عن ذلك . على أية حال لقد أدى المجوس المقيمون فى البصرة واجبهم الدينى بشجاعة فائقة وليكن واضحا أن الجثمان الذى نقل إلى الموقع الجديد المخصص للدفن هو جثمان اخيهم الزرادشتى المتوفى ، فقد تدخلوا فى الوقت المناسب باداء الطقوس وتلاوة التراتيل الدينية لانقاذ روحه قبل أن يسلبها « داروغناشا » الرهيب الذى يفزع منه المجوس . ويستحق المجوس المقيمون فى البصرة الذين تصرفوا تصرفا دينيا مشرفا التقدير العالى والثناء الجزيل على ذلك ، ومن المؤمل أن يسهم ابناء ملتهم فى بومباى بسخاء فى دعم صندوق التبرعات السالف الذكر .

وبعد أن تناولنا الطعام اللذيذ الذى اعد وفقا للطريقة المجوسية فى الطبخ ، والذى تكرم مضيفنا بسخاء بالغ بتوفيره ، واعده طباخ قادم من مدينة « سورت » الهندية استعاره من جار له وهو طباخ ماهر فى مجال اختصاصه ، وقد أعد الطعام إلى حد يصل إلى درجة الكمال ، أمضينا بقية يومنا مع مضيفنا وبعض الأصدقاء الذين كانوا برفقتنا فى نزهة جميلة ممتعة إلى « مرجيل » على متن الزورق البخارى الذى تكرم السيد « عبد الجبار » ووضعه تحت تصرفنا ، وقد استمتعنا جدا بتلك النزهة السارة .

وكان الشط الكبير نابضا بالحياة مليئا بكافة أنواع القوارب والسفن والبواخر التى تخطر على البال ، حيث تعرض فيه نماذج متنوعة من السفن مستمدة من مراحل تاريخية عديدة تمتد من الأزمنة الغابرة حتى العصر الحديث ، فيشكل بذلك متحفا بحريا متكاملا .

---

* تعقيب : جون مورز (١٧٢٩ - ١٨٠٢) : طبيب ورحالة وروائى اسكتلندى .

وكان زورقنا البخارى تحت اشراف مهندس عربى ورجل آخر كان يعمل فيه بصفته وقادا إلا أن الزورق كان قديما ومستعملا وفى حالة يرثى لها من طول الخدمة ، وبالرغم من انه كان على وشك الانفجار فى أية لحظة إلا أنه قطع الرحلة دون أية متاعب تذكر باستثناء عطل واحد اصابه وسط النهر وذلك حينما انخلعت منه دفة القيادة . إلا أن الطريقة التى تم بها اصلاح هذا العطل كانت فى منتهى الجرأة والجسارة وذلك بواسطة الوقاد الذى انحنى فوق الحاجز الخلفى المنخفض للزورق وغمر رأسه فى الماء بينما امسكه المهندس من رسغى قدميه ، ليقوم باصلاح الدفة وكل شىء انخلع من مكانه وتسبب فى حدوث ذلك العطل ، وقد تمت هذه العملية الجريئة بينما كنا نفكر فى استدعاء زورق قطر يقوم بجر زورقنا وارجاعنا من حيث اتينا . وقد عدنا إلى باخرتنا « زيانى » فى الوقت المناسب لتناول العشاء بعد أن استمتعنا تماما بنزهتنا فى ذلك اليوم بفضل اصدقائنا الطيبين فى البصرة .

الفصل الخامس والخمسون

الحياة على ضفاف شط العرب

تعتبر الحياة على ضفاف شط العرب الواسع المتدفق الرقراق ، كما هي عليه الآن في عام ١٩١٧ ميلادى حياة حافلة بالتنوعات الدائمة ونابضة بالحركة الدائبة المستمرة وذلك « **من الصباح إلى الظهيرة ومن الظهيرة إلى المساء الندي** » وفي الصباح الباكر قبل أن ترتفع الشمس في الأفق يمتلىء الشط بالقوارب الصغيرة التى تنساب بخفة ورشاقة فوق صفحة الماء نتيجة قيام النساء الفلاحات والفتيات والأولاد بتجديفها أو تسييرها بالعصى الطويلة . فهؤلاء النسوة اللاتي يفصح منظرهن عن سذاجتهن لا يسترن وجوههن ولا يقتضى الحال منهن أن يفعلن ذلك . وتأتى هذه النسوة إلى العشار والبصرة من أعلى وأدنى الشط ، ويحملن معهن الحليب ومنتوجات الألبان الأخرى ، والدواجن ، والخضراوات ، والفاكهة ، والوقود حيث يبعنها هناك ، ويربحن منها ربحا طيبا . وهن فئة جريئة ، مرحة ، بشوشة ضاحكة ، ويجدن من بين الجنود البريطانيين والبحارة والخدم والعسكريين من هم على استعداد لشراء مالديهن من منتجات وسلع . وتشاهد قوارب « الابلام » من مختلف الأحجام وهي تجوب مياه الشط في حركة دائبة من جدول إلى آخر أو من وإلي المحمرة وفي أعالي الشط ، وهي محملة بالرجال المتوجهين إلى أعمالهم ، والركاب العابرين من مكان إلى آخر ، والضباط والجنود المراسلين وهم ينقلون رسائل الحرب الشفهية في حالة شديدة من الاستعجال ، وهي عادة لم يألفها النوتي صاحب « البلم » ولا توجد خدمة منتظمة لنقل الركاب بالزوارق البخارية في الشط إلا ان مثل هذه الخدمة وان لم تتوافر حاليا فلابد لها أن تجد طريقها هنا يوما ما ، وتحل محل قارب « البلم » البطىء ومركب « اللغر » المرهق . وغالبا ما تشاهد المراكب النهرية الكبيرة المثقلة بالحمولة وهي تبحر ببطء متجهة نحو الجنوب ، أو يجرى قطرها نحو أعلى النهر بطريقة مضنية تتطلب الكثير من الجهد والعناء . ويشاهد أحيانا زورق بخارى وهو يقوم بقطر هذه المراكب التقليدية القديمة وهو مشهد مألوف في هذا النهر العريق . كما تمثل الطريقة المحلية لقطر المراكب التي يؤديها فريق من البحارة على إمتداد ممر القطر فوق ضفة النهر اليسرى حدثا فريدا ومثيرا في نظر الزائر الغريب ، إذ يشترك بعض البحارة بالتناوب في جر المركب ، ويمسكون أطراف الحبال ، ويسيرون على حافة الضفة باذلين جهدا وعناء شديدين بطريقة تجعل عملية جر المركب ف

الماء تسير سيرا حسنا هادئا ، أما حبل الجر الرئيسي فيتم توصيل طرفيه في أعلي السارية الطويلة الوحيدة ، وتمنح هذه الطريقة للقارب وضعا متوازنا في النهر وتحول دون تعرضه للميلان أو الانحراف أو الارتطام بالضفاف . ويشاهد أحيانا صياد منفرد يصيد السمك بسنارته وهو واقف أو خائض في الماء إلي عمق خاصرته ، وهو منظر يوحي بالهدوء والسكينة وهي « **الصفات التي يتصف بها جميع أقرانه** » منذ أن بدأ العالم يتعلم صيد الأسماك .

كما تشاهد القوارب المسطحة القاع المنخفضة وهي طافية باسترخاء فوق سطح الماء ، ومثقلة بأكوام من القصب النهري والأعشاب الطويلة التي تنمو بمحازاة الضفاف والمستخدمة كثيرا في بناء الأكواخ الشعبية والسقائف وحتي في صنع الأطواف عند الضرورة ، بينما يجلس رجل الأهوار نصف العارى أو جامع القصب متراخيا في مؤخرة القارب ، حيث لا يكسب سوى رزقا ضئيلا من وراء ذلك . لقد غيرت المعركة الفاصلة الدائرة رحاها الآن من طبيعة الأمور ، إذ يسود على امتداد ثمانية أميال أو أكثر من واجهة العشار النهرية نشاط محموم وحركة دءوبة متصلة لا تنقطع وذلك ساد فيه من قبل السكون والخمول والصمت الرهيب الشبيه بصمت القبور . ففي أثناء وجودى هناك كنت أحسب بين الفينة والأخرى أكثر من ثلاثين باخرة كبيرة راسية في آن واحد بالشط في طابور طويل . ولا يمر يوم دون أن يغادر بعض منها الشط وتزدحم بواخر أخرى فيه . فالحركة في الشط دائبة دائمة والصخب متواصل على نحو لا ينقطع ، إذ توجد هناك السفن الناقلة للجنود ، والسفن الناقلة للمعدات العسكرية ، والسفن المستشفيات ، وسفن الرصد والمراقبة ، والبوارج الحربية ، وسفن التغديف ، وبواخر التغديف المنخفضة ، ومراكب الانزال الحديدية الضخمة ، والرافعات العملاقة الطافية فوق سطح الماء وكاسحات الوحل البخارية ، دون احتساب المراكب النهرية التقليدية الصغيرة المتنوعة . فالعمل يجرى على قدم وساق هناك ، ويسير بخطى حثيثة منتظمة لا تكل ولا تتعب ، ويبعث في تلك الربوع صحوة لم يعهدها سكان الشط من أهل المدن أو القرى أو يعرفونها منذ عهود الخلفاء العظام . ويقال أن أكثر من ثلاثة آلاف رجل من العمال والصناع المهنيين يعملون هنا يوميا في بناء عدد كبير من مشاريع الأشغال العامة التي توحي فيما يبدو بالسيطرة الدائمة . ان الحركة الناجمة عن دخول وخروج البواخر والزوارق البخارية والقوارب الصغيرة في الشط ، إضافة إلي دوى الآلات وأصوات الصفارات تثير مياه النهر الصافي الرائق وتجعل أمواجه الصغيرة تتدافع من شاطيء إلى آخر .

وفي عصر أيام العطل وبالأخص في الجو البارد يصبح الشط مليئا بالحياة على نحو إضافي حيث تخرج جموع المتنزهين في العديد من قوارب « الابلام » الجميلة متجهين نحو العديد من بساتين الفاكهة والحدائق الغناء المنتشرة على كلتا ضفتي الشط وبالأخص قرب المصبات النهرية البديعة

المنظر وإلي جوار بعض الجداول الواسعة مثل الخندق والبصرة وهي الأماكن التي يقصدها المشعوذون ، وعازفو الموسيقي ، والراقصون ، والبقالون والباعة المتجولون من كل نوع وصنف ، والبهالين الذين يؤدون الألعاب البهلوانية وذلك من أجل تسلية المتنزهين . وغالبا ما تبدو ضفة النهر هذه الأيام مليئة بالحيوية والبهجة نتيجة ارتياد أعداد كبيرة من المتنزهين

لها مثل جماعات الممرضات الأوروبيات وأعضاء هيئة إدارة المستشفى ، والضباط في أوقات فراغهم بأزيائهم العسكرية الجذابة أو بملابسهم الميدانية حيث يخرج هؤلاء في الأمسيات أو في ضوء القمر الساطع في قوارب « الابلام » وفي المراكب أو الزوارق البخارية لشم النسيم ولقضاء وقت ممتع في الهواء الطلق يريحهم من عناء الحنين إلي الوطن ويعينهم علي تغيير الرتابة في نمط حياتهم التي تبدو شاقة وعسيرة في مثل هذه الأحوال المناخية الأجنبية

القاسية . وفي شهور الحر تمتلىء ضفتا الشط بخيام البدو الرحل الذين يأتون إلي هنا هربا من حرارة الصحراء اللاهبة ، ويخيمون إلي جانب الماء البارد ، مصطحبين معهم قطعان أغنامهم وخيولهم وجواميسهم ، فيخلقون بذلك صورة مختلفة تماما للحياة على ضفاف الشط ، وتجرى عندها الكثير من المساومات وصفقات البيع والشراء والمقايضات . وفي شهر أكتوبر يطوي هؤلاء الزوار الأجلاف خيامهم ويختفون بهدوء كما جاءوا متجهين نحو حقول

ومراعى جديدة أو عائدين إلى أماكنهم السابقة . هذه أمثلة من المشاهد النهرية التي يراها الزائر المولع بالاستطلاع حينما يمشي ذهابا وإيابا علي سطح الباخرة أو يتجول على احدى الضفتين . أما طيور النورس البحرية الجميلة فهي موجودة دائما هناك تلهو سابحة في الماء أو طائرة في الهواء علي هيئة أسراب وأعداد مختلفة ، فتضيف المزيد من الحيوية والجمال إلي هذه المشاهد .

وحينما تشتد حلكة الظلام يسود السلام التام ، وتحظر حاليا أية حركة للبواخر بعد غروب الشمس ، فهذا « السكون الكامل » ـ كما عبر عنه ذات مرة الشاعر الانكليزى الكبير « جون ملتون » ـ تمزقه أحيانا قرعات الطبول العربية القادمة من بعيد ورنين بعض الدفوف الساذجة المنبعثة من أفراح قرية نائية أو قرع قصير للأجراس علي متن السفن والنقيق

المفاجيء للضفادع وصدي عواء ذئب يعسعس خلسة في جوف الليل البهيم ومما لاشك فيه أنه عندما تدور عجلة الزمن وتستقر الأمور وتضع هذه الحرب الألمانية الملعونة أوزارها ويخمد شررها وتتوقف اشعاعاتها فسوف يشهد الشط لاحقا سباقات للزوارق ومباريات للسباحة وغيرها من الألعاب الرياضية النهرية التى تجعل الغربيين يتحملون « أعباء الرجل الأبيض » باتزان ورباطة جأش تحت سماء الشرق . ومهما اقتضت الضرورة (ان كان لها

ثمة مبرر) من الناحية الدبلوماسية ان تعاد بغداد للأتراك الذين تلطخت سمعتهم وفقدوا ماء وجههم فان الشط من القرنة إلي البحر يجب أن يبقي نهرا بريطانيا بالمعني الكامل والشامل للكلمة ، ويجب أن تبقي ولاية البصرة في حوزة البريطانيين ، ويبقي المركز التجاري

القديم للخلفاء الذي لا يجوز التصرف به في أية حال من الأحوال جزأ لا يتجزأ من الامبراطورية البريطانية . وهذا ما يجب أن يكون !

الفصل السادس والخمسون

آراء واستنتاجات

اقتربت رحلتي من نهايتها ولكن قبل الختام قد يكون من الملائم هناأن أقدم ملخصا عن الانطباعات والاستنتاجات التي توصلت إليها . وإذا كانت الحروب كالحرب الرهيبة الدائرة رحاها الآن مليئة دوما بالأهوال والضحايا والخسائر والمحن والآلام فأن لها تعويضاتها أيضا ، فقط إذا ارتقت الأمم والشعوب بمداركها ووعيها وأحاسيسها إلى مستوى الأحداث وانطلقت ـ حينما يعود السلام ـ إلي جادة الصواب ، وإذا أتيح لشعوب البلدان التي اجتاحتها الجيوش المعادية وضمن لها حقها في تقرير المصير وفق خطة جيدة وحرة وعادلة وفعالة للتسوية والحل . ففي رأيي انه في ظل الاعداد الجيد والتنفيذ الحازم لمثل هذه الخطة ، فان العديد من الشعوب والدول سوف تتخلي من تلقاء نفسها وبطيب خاطر عن أسيادها القدامي ووضعيتها السابقة للحرب وتختار الأحوال الجديدة التي تفضلها وتجدها أكثر ملاءمة لها . وعندما يحدث ذلك وهو أمر لابد منه ، فلا يساورني أدني شك بان بلاد الرافدين والأراضي المجاورة لها التي طرد منها الأتراك سوف تعرب على الفور عن رغبتها في الحكم البريطاني . ويشكل العرب الأغلبية العظمي من سكان هذه الأراضي العريقة في القدم . ومن الواضح أن العربي صغيرا كان أم كبيرا قد سئم الآن العيش في ظل الحكم التركي أكثر من أى وقت مضي ، فهو يري بأم عينيه كيف تحكم كافة أنحاء تركيا بأساليب الحديد والدم من قبل الهون المعاصرين الذين أخضعوها لهم . لقد تخلصت بلاد الحجاز الواسعة نهائيا من نير الحكم التركي ، كما ان سوريا بأكملها وفلسطين تضمران العداء للأتراك علي نحو واضح ، وهما ترتقبان وتتطلعان نحو حلول السلام الظافر وانتصار الديمقراطية التي ستسود حتما ، لكي تتخليان عن الدولة التي قهرتهما وأفقرتهما طويلا بيد تمسك قضيب من حديد ويد تمارس السلب والنهب . كما أن جميع البلدان العربية الواقعة على امتداد الخليج العربي وخارجه تنوي وتعتزم الانضواء تحت السيطرة البريطانية . كذلك مصر بأكلمها من مصبات نهرها الأزرق العظيم إلى منابعه النائية خاضعة الآن عمليا تحت السيطرة البريطانية ، ولم تعد تخضع لخديوي تابع للسلطان العثماني ، ولكنها خاضعة لسلطانها الخاص ، المستقل عن الباب العالي ، تحت أمرة القيادة العليا لبريطانيا العظمى .

أما أرمينيا التي أنقذها الروس من براثن العثمانيين فهي الآن في ثورة عارمة ضد

عودة حكامها السابقين الممقوتين . ولم تعد تعترف مملكة (كما تسمي) قبرص بسيادة السلطان العثماني عليها ولو بصورة شكلية ، فهي الآن بريطانية خالصة . وفي ظل هذه الظروف فقد أصبح من المتعذر التفكير في احتمال إعادة بلاد الروافد الثلاثة العظام المتوفقة جميعا نحو الخليج العربي والتي انتزعت من تركيا بقوة السلاح البريطاني ـ الهندي وبذلت من أجلها تضحيات جسيمة إلى الدولة التي أساءت استخدامها لقرون عديدة واستغلتها لأغراضها الأنانية وأهوائها الذاتية وخسرتها أخيرا فى معركة ضارية خاضتها بنفسها وحسم فيها القتال على نحو ملائم . وسيرتكب رجال الدولة البريطانيون أو بالأحرى قادة الامبراطورية خطأ شنيعا وإثما مشينا فاضحا يستحق الشجب والاستنكار إذا هم أذعنوا عن ضعف لخدعة دبلوماسية أو رضخوا لتهديد أو أقاموا أي اعتبار للحساسيات التركية وسمحوا بأن يقتطع من الامبراطورية أى جزء من بلاد الرافدين التي يحتفظون بها الآن نحو ثابت ودائم وفقا لحق اكتسبوه دون شك عن طريق الفتوحات العسكرية ـ ولكنه سيكون بالتأكيد « مرتكزا على قاعدة شعبية عريضة » مما سيتعذر عندها نقضه أو دحضه أو منازعته من قبل أية جهة أو قوة كانت .

ولا يستحق رجل أوروبا المريض الذى اعتلت صحته الآن أكثر من أى وقت مضى أية معاملة جديرة بالاحترام . وتستحق تركيا ما أصابها من تفكك وتمزق نتيجة إذعانها للأوامر الألمانية وافتقارها للنوايا الحسنة . فهي خاضعة قلبا وقالبا تحت وطأة أقدام أسيادها « الهون » .

ومن المتعذر إجراء أية إصلاحات فى ظل الحكم التركي . فلقد أثبت التركي المرة تلو الأخري عن عجزه في تحقيق أي شكل من أشكال الترقي والنهوض سواء كان خلقيا أو سياسيا أو غير ذلك . وبالامكان الافتراض بان الامبراطورية البريطانية سوف تكبر وتتسع في الشرق الأدنى عند ضم هذه الأقاليم الجديدة إليها ، إلا أن المسائل الكبري التي سوف تثار حولها تتعلق بأساليب ووسائل وطرق تنظيم وإدارة هذه المكاسب الاقليمية الجديدة وذلك من أجل اثراء الامبراطورية وتعزيز ازدهارها وزيادة قوتها ونشر محاسن وفضائل الحرية والنظام والحضارة في هذه البقاع الجديدة .

وتعتمد كل هذه الأمور بالطبع علي براعة وحيوية وقبل كل شيء علي حنكة حكام وولاة الامبراطورية وعلي قدرتهم علي التفكير وانجاز العمل الصائب خدمة للمصالح الحقيقية لشعوب هذه الأقاليم الجديدة التي وقعت مسئوليتها الآن علي عاتقهم . وهذا يعني إدخال حكومة جديدة فى هذه البلاد ترتكز علي أسس رحبة ومتحررة طبقا لأفضل التقاليد البريطانية ، حكومة تمنح كافة الحريات المشروعة ، وتنال ثقة أبناء الشعب وتسعي للارتقاء بها من خلال الوثوق بهم ، وتصون حرمة حقوقهم الأساسية الثابتة ، وعاداتهم ، معتقداتهم ، وامتيازاتهم ، كتلك التي لا تمس الأخلاق العامة ولا تشكل خطورة علي الدولة ،

واضعة علي رأس اهتماماتها نشر التعليم الحرفي في جميع أنحاء البلاد ، وتشجيع ومساندة المشاريع الصناعية ، وترويج وتوسيع نطاق التجارة والمتاجرة في جميع النواحي . فالعربي . كما ذكرت من قبل شخص حساس ، نافذ البصيرة ، ومادام لم يتعرض للاستفزاز والاثارة أو يشعر بالمضايقة والازعاج ، فهو يوعد بأن يتحول إلي مواطن مطيع ومخلص ومفيد للامبراطورية ، ومن المستبعد جدا أن يعاوده الحنين إلى الحكم التركي الذي فقد ماء وجهه الآن في كافة أنحاء العالم العربي . والعربي رجل نزيه ، مستقل التفكير وان كان محافظا نوعا ما ، وهو يختلف جدا عن التركي المتعصب والقاسي ، وعن اليهودي الذي يعبد المال . وإذا حظيت بلاد الرافدين بمعاملة حسنة وأديرت شئونها بحنكة وفطنة في ظل أحوالها المتغيرة فان هذه البلاد سوف تتجاوب حتما مع إدارة أسيادها الجدد بطريقة تضمن المصلحة المتبادلة للطرفين وتزيد الامبراطورية مجدا وتألقا . هذه هي الأفكار التي تزدحم في ذهن أي فرد يفكر مليا في الأحداث الأخيرة التي أفرزتها هذه الحروب الألمانية الضارية الواسعة النطاق ، ويرقب التحركات العسكرية والمدنية والسياسية الحالية في القاعدة الكبيرة للعمليات العسكرية الحالية في البصرة وما جاورها ، وكذلك في الهند .

ويتوجب عمل أشياء كثيرة ولكن لا يمكن عمل أى شيء قبل أن تصبح المكاسب الاقليمية الجديدة مفيدة ومربحة من النواحي الاجتماعية والمالية والسياسية . وقد أدلى الخبراء بارائهم عن الامكانات الهائلة لبلاد الرافدين بطريقة واضحة لا يشوبها لبس أو غموض . فقد كانت بلاد الرافدين التي ساد فيها الصمت واناخ فيها شبح الموت برحله طيلة عهود الأتراك والمغول والتتار وغيرهم من الغاصبين تشتهر في الأزمنة الغابرة بخصوبة تربتها . ومن المؤكد انه بالامكان الآن إحيائها وأعادتها إلى سابق عهدها بل زيادتها إلى مائة ضعف فى مختلف مجالات الانتاج الزراعي عن طريق إدخال أساليب الزراعة المتطورة من ري علمي ، ومهارات هندسية متقدمة وتدريبات .

ولقد ازدهرت التجارة والمتاجرة فى الماضى إلى حد بعيد فى هذه المناطق نتيجة قيامها بتلبية المطالب الهائلة والعاجلة للامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ، وبالامكان جعلها تزدهر بالتأكيد مرة أخرى بصورة أكبر شريطة أن تتكفل بها سياسة صريحة وسخية وبعيدة النظر من الأخذ والعطاء . وفيما يتعلق بافتتاح اسواق جديدة يجدر الاستشهاد فى هذا الصدد بالآراء التالية للكاتب المعاصر السيد « اى . اج . باركر » حول الصين ، واخذها بعين الاعتبار واتباعها . وهى تنطبق بدرجة مماثلة على بلاد الرافدين البريطانية الجديدة ، حيث تسترعى « الانتباه إلى الاهمال الحاصل فى قطاع التجارة البريطانية الواجب ، تنقيح اساليبها بصورة عامة وبالاخص فى مجال الدعاية والاعلان ، واعداد قوائم واضحة للأسعار ، وزيارة الزبائن المحتملين فى مواقع عملهم ، ومنح اعتمادات مالية بشروط ميسرة ،

والتخلص من الاختناق التجارى الكومبرادورى ، ومعاملة التاجر المحلى بمزيد من اللطف والكياسة والتسامح ، وهلم جرا » . وهو يستحسن اتباع الأساليب ذات الفاعلية الكبيرة المشار اليها اعلاه والتى يتبعها الألمان الماكرون ، النهازون للفرص ، والمداهنون بالرغم من استبدادهم وخلوهم من الضمائر ، إذا اريد للتجارة البريطانية فى البلاد الخصبة ان تزدهر وتنتعش إلى أقصى حد ممكن ، وينتقد الكاتب بشدة العادة القديمة المتبعة فى المعاملات التجارية التى ثبت عقمها وعدم جدواها والمتمثلة بجلوس التاجر فى الميناء لا يحرك ساكنا بينما يعتمد كل شىء فى الداخل على النظام الكومبرادورى ، وأوصى الكاتب بالتفكير جديا فى الدروس التى ساقها المنافسون الألمان وباتباع نظام أكثر فاعلية وحيوية « فى التجارة والمتاجرة . كما قال ان ادارة العمل التجارى تتطلب بذل جهد أكبر وتفكير أكثر مما اعتاده التاجر البريطانى المحافظ الذى يفتقر إلى الخيال الخصب بحكم انتمائه إلى المدرسة القديمة فى التجارة » .

ويجب أن يوجه العمل التجارى الخاص بتلبية طلبات « الأذواق الحديثة » وهو عمل سيظهر حتما ، من أجل جذب « وكسب الناس وتحقيق الازدهار » . ان التحديث يستوجب اتباع اساليب أكثر قابلية وتكيفا مع الظروف وليست اساليب التحفظ والانعزال التى يتبعها .. التاجر البريطانى . ويجب أن توظف من أجل ذلك طاقة كبيرة وبصيرة نافذة وتلتقى المطالب والاحتياجات المحلية على أساس العمل الجاد الدءوب والنظرة البعيدة الثاقبة . عندها فقط بالامكان فتح أسواق جديدة فى بلاد الرافدين وكافة الأنحاء المجاورة بحيث تدر هذه الأسواق أرباحا كبيرة وتساهم بالكامل فى تعويض واسترداد تكاليف الحرب الباهظة التى انفقت دون مبالاة ، وعلى الحكومة والتاجر والبائع ، والبريطانى والهندى ، أن يتقبلوا جميعا الآراء والاستنتاجات المطروحة اعلاه وان يعملوا معا على اسس سليمة تساهم فى جعل هذه الأقاليم الجديدة مزدهرة تجاريا عن طريق جعل أسواقها غزيرة الانتاج وفى أقصر مدة ممكنة . وإلى جانب توافر النية الحسنة المتبادلة وحسن التفاهم بين البلدان القديمة والاضافات الاقليمية الجديدة وهما شرطان ضروريان للوصول إلى هذه الغاية ، فانه يتوجب أيضا ادخال وسائل اتصالات ومواصلات رخيصة وسريعة فى البر والنهر وربما فى الجو أيضا ، واستحداث تسهيلات وخدمات دائمة للطرود البريدية والحوالات المالية والبرق والهاتف وكافة خدمات التبادل المنتظم والمتواصل ، والتحرر من كافة أشكال القيود والعوائق التى لا ضرورة لها ، وادخال تعديلات وتنقيحات شاملة فى القوانين والأنظمة المالية ، فان جميع هذه الأمور يجب ادخالها والاهتمام بها وتنفيذها على أسس عملية وسليمة إذا أريد لهذه « الغاية المنشودة » أن تتحقق والتى سيعتمد عليها اعتمادا كبيرا مستقبل التنمية الشاملة فى هذه الزيادة الاقليمية الجديدة والمفيدة التى اضيفت للتاج البريطانى فيما يخص التقدم والازدهار والنجاح . باختصار لا يمكن لأية تعديلات مهما كان نوعها فى أساليب الحكم التركى أو الحكم العثمانى السىء أن تؤدى إلى نهوض حقيقى فى بلاد الرافدين .

ومن المتوقع أن تعيد حكومة قوية ، مستقرة ، قادرة متحررة ، ونزيهة كالتى يمكن الوثوق بها والاعتماد عليها وقبولها فى ظل نظام السلطة البريطانية ـ الهندية إلى هذه البلاد سالف مجدها وعظمتها وازدهارها . وستنعم البلاد فى ظل مثل هذه الحكومة بمستقبل مشرق واعد بحيث تكون بغداد أو « باغوداتا » أو « هبة الله » (كما يفسر بعض الدارسين معنى الاسم) عاصمة لها متفوقة بذلك على شهرة وأمجاد الخلفاء ، وتكون القرنة والبصرة والفاو اسواقها التجارية ذات الشهرة العالمية .

لقد اثارت مسألة اللغة فى هذه الأقاليم الجديدة البحث والتقصى وهى من المسائل التى تستأثر على قدر كبير من الاهتمام بالفقه اللغوى ويتوجب عدم اغفالها اطلاقا . ان توسع الامبراطورية وتمددها إلى ما يسمى اسيا الوسطى سواء تحت الادارة الهندية أو الاستعمارية يجب أن يؤدى بالضرورة إلى استخدام « الهندوستانية » وهى لغة الهند المشتركة .

فهذه اللغة الأكثر نطقا وانتشارا من بين اللغات الهندية وهى الاردية أو اللغة التى تعود أصولها إلى جحافل المغول أو المعسكرات قد شقت طريقها إلى حد ضئيل نحو الأسواق الواقعة على سواحل الخليج حيث رحل إلى هناك الكثير من التجار الصغار الهنود واستقروا فيها . وإذا كانت التجارة تقتفى اثر العلم فان اللغة تقتفى اثر التجارة وستتجلى هذه الحقيقة بصورة أوضح عبر التدفق الهائل للهنود نحو آسيا الوسطى سواء كانوا جنودا ، أو مدنيين ، أو تابعين فى المعسكرات ، أو مستخدمين ، وجميعهم يتحدثون اللغة الاردية تقريبا ، جاعلين منها وسيلة ضرورية لاتصالاتهم وتبادلاتهم مع مواطنيهم الجدد .

وستوفر للطالب الدارس لعلم اللغة موضوعا رائعا وشيقا للدراسة والبحث فيما إذا انتشرت اللغة الاردية فى هذه الأقاليم الاضافية الجديدة وتوطد اقدامها بثبات فيها أو انها ستنتهى إلى تطور صنف آخر من لغة الجحافل أو المعسكرات ـ و ـ الأسواق على هيئة مزيج لغوى غريب ومبسط أو خليط من اللغات الشائعة وهى الهندوستانية والعربية والتركية مع خليط آخر من اللهجات المحلية الدارجة . ومع أخذ كافة الظروف بعين الاعتبار ، أكاد اميل إلى القول بانني أتوقع أن تنتشر اللغة الاردية كلغة محادثة فى مناطق الروافد الثلاث العظام ، مما سيزيد من أهميتها وفائدتها ان لم يكن من حيث قوتها الأصلية وجمالها وانما من باب المجاملة للهند من أجل تضحياتها وخدماتها التى قدمتها فى سبيل ان تنعم هذه الأراضى القديمة المهملة بحياة جديدة من الاصلاح والتقدم والرخاء . وفى نفس الوقت قد يتطلع المرء إلى نوع من الامتزاج الثنائى اللغوى أو التزاوج اللغوى غير المتكافىء الناتج عن الاتصال الواسع المتبادل بين السكان العرب والهنود فى بلاد الرافدين وما حولها .

ومن المرجح أيضا أن يؤدى هذا التوسع فى أراضى الامبراطورية إلى انتشار أكبر وقبول أشمل للغة الانكليزية ، وهى نتيجة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار فى كل حال من الأحوال

فاللغة الأوسع انتشارا والأكثر نطقا فى جميع أنحاء العالم وهى اللغة الانكليزية بتركيبتها الجميلة وقوتها وحلاوة بيانها وأدبها الواسع الخالد العظيم سوف تنتشر وتستخدم حتما فى الأقاليم القديمة والجديدة على السواء ، وهى بالفعل أداة وصل وسلسلة قوية تربط بين جميع الأجزاء المختلفة والأقاليم الواسعة المترامية الأطراف التى تتألف منها الامبراطورية . ففى كل مكان يخفق فيه العلم البريطانى يجب أن يتحدث جميع المثقفين عامة باللغة التى نطقها وكتبها وأشهرها « شكسبير » ، و « ملتون » ، و « وردز وورث » ، و « بيرك » ، و « بايرون » ، و « لونغفيلو » ، و « أمرسون » « والمئات من كبار الأدباء البارزين .

وفيما يخص دمج بلاد الرافدين كجزء أساسى فى الامبراطورية وتنظيمها وفيما يخص اختيار حكومتها القادمة يجب أن تطالب الهند بالحصول على صوت قوى وقيادى ومؤثر ان لم يكن مسيطرا اذ ان مكانتها البالغة الأهمية وخدماتها الكبيرة تؤهلها دون نقاش لذلك . وهذا استنتاج ذو دلالة كبيرة لا يجوز التغاضى عنه أو التهاون فيه . فهو يعد بمثابة نتيجة منطقية ضرورية فى طبيعة الأمور ويجب اعتبار بلاد الرافدين ، بحكم قربها من الهند واتصالها القريب والمباشر معها ، كما هى عليه فى الحقيقة والواقع ، ذات أهمية أولية بالنسبة للهند سواء فيما يخص المعاملات التجارية ، أو الأهمية السياسية ، أو القيمة والاحتياجات العسكرية ، أو تمديد خطوط السكك الحديدية نحو الغرب ، أو العلاقات الاجتماعية الحميمة أو غيرها من الاعتبارات المماثلة . وقد تبدو هذه الملاحظات والآراء أشبه بعملية سلخ جلد الدب واقتسامه قبل اصطياده . إلا أن الأمر ليس كذلك ، فالملاحظات تبررها الأحداث على اعتبار أن الدب على وشك الوقوع فى قبضتنا . ان استيلاء وسيطرة قواتنا عمليا على كافة انحاء بلاد الرافدين - بالرغم من الهزيمة النكراء التى منيت بها القوات الروسية فى الحرب - يجب أن يعتبر كأمر واقع وحقيقة قائمة . وإذا فقدنا سيطرتنا على تلك البلاد نتيجة سوء تصرفنا فسنتحمل عواقب اخطائنا وحماقاتنا التى ارتكبناها . ولكن لماذا نفترض مسبقا إن حكامنا ومن ورائهم حلفائنا الأقوياء سوف يصدر عنهم عمل من أعمال الجبن والتخاذل والضعف والوهن بعد محاربة الأتراك والألمان ودحرهم والتغلب عليهم بالطريقة التى حاربت وتحارب بها جيوشنا الآن . وبطبيعة الحال فان مثل هذا الافتراض غير وارد على الاطلاق مالم تسقط من حسابك جميع التقاليد التاريخية العريقة للبسالة البريطانية ، وغرائز العمل السليم ، والاصرار على الوصول إلى الأهداف والغايات . فنحن واثقون من الوصول إلى السلام الظافر المنتصر ولكنه مجرد افتراض بأن الأمور لن تفضى تماما إلى ما نصبو اليه . فالحقائق تبقى واضحة بادية للعيان وصريحة ومقنعة وهى : ان البلاد واقعة الآن فى ايدينا ، والسكان فى معظمهم يرغبون فى الانضواء تحت الحكم البريطانى ، حيث يتطلب رخائهم وأمنهم ذلك ، وأن تضحيات بريطانيا العظمى والهند كانت ومازالت جسيمة وتستوجب التعويض عنها ، والعقل والمنطق يقضيان ويحثان على استئصال

شأفة الحكم التركى الجائر والقضاء عليه قضاء مبرما . لذا فان الحل الوحيد المرضى للوضع الذى نشأ فى البلاد التى يجرى فيها الفرات ودجلة والشط هو الالحاق والضم ، حيث تقضى كل من السياسة الصالحة والمصلحة العامة حدوث هذا الاحتمال وتحويله إلى واقع ملموس .

الفصل السابع والخمسون

رحلة العودة

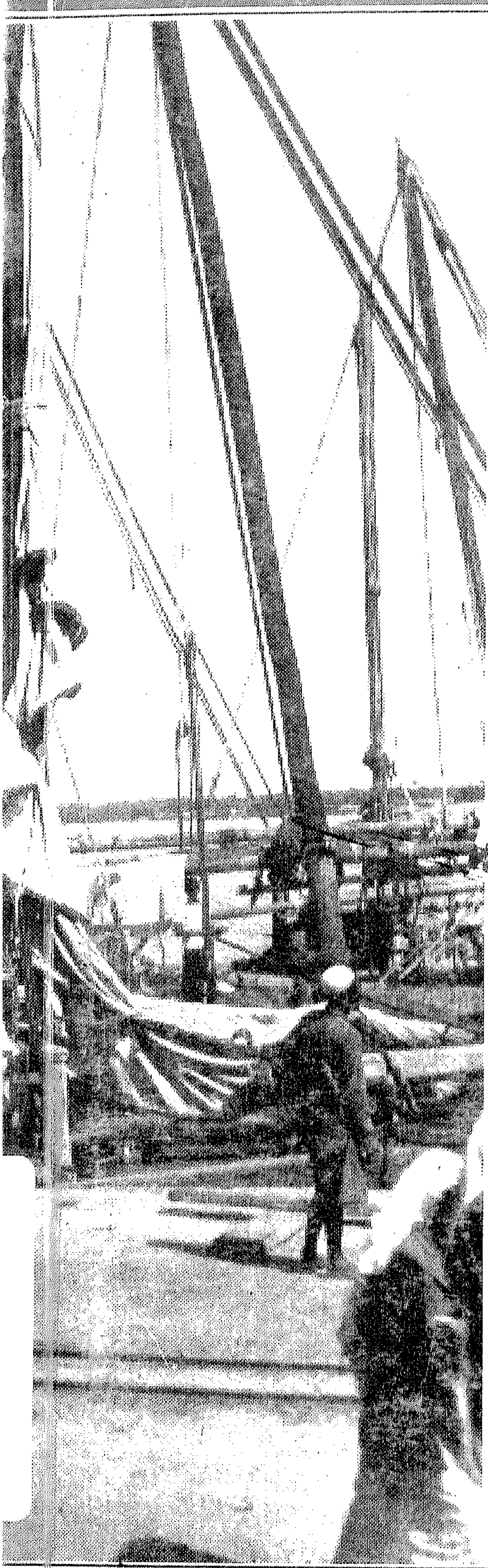
بما أن السنة كانت تقترب من نهايتها فقد استدارت الباخرة « زيانى » عائدة إلى الوطن . وقد انتابنى أسف شديد حينما فكرت مليا فى انقضاء اجازتى السارة وفى الساعة السابعة صباحا بتاريخ ٣٠ ديسمبر ١٩١٦ م غادرت باخرتنا البصرة ـ مدينة السندباد .. وهى الميناء البحرى الشهير للخلفاء قديما ـ وانحدرت مبحرة فى الشط بنصف سرعتها ، إذ تقضى الأنظمة تخفيف السرعة على طول امتداد الشط على اعتبار أن اندفاع الموج الناجم عن السرعة العالية يؤدى إلى الاضرار باطراف ضفاف الشط . ولم تفارق نظرتى الأخيرة المتريثة هذه المدينة العريقة حتى وصلنا إلى المنعطف الكبير بالشط الذى اغرقت فيه البواخر التركية المعطوبة فحجب المدينة عن الرؤية . وقد ودعت البصرة متمنيا لها من صميم قلبى مستقبلا سعيدا زاهرا فى أيدى البريطانيين .

وفى الساعة التاسعة صباحا رسونا إلى جوار المحمرة . وبما أن الحمولة التى كان علينا شحنها بالباخرة من هنا إلى بومباى ليست جاهزة للشحن فقد فاتنا التيار وكان علينا أن نستلقى باسترخاء طيلة أربع وعشرين ساعة . وقد مرت على مقربة دانية منا اثناء رسونا بضعة بواخر تابعة لشركة الهند البريطانية للملاحة . وأثناء العصر هبت علينا ريح جنوبية شديدة جعلت الباخرة « زيانى » تجرجر مراسيها وتدير طرفها الخلفى ناحية الضفة الواقعة على يسارها وتجنح فى الوحل . وتبدو الضفاف أثناء الجزر على هيئة مساحة شاسعة من الوحل الذى يفوح بالروائح . وكان علينا أن نعبىء الباخرة بالبخار وبعد ان واجهنا بعض الصعوبة صححنا وضع الباخرة . وحينما تصدر مثل هذه المزحة من جانب باخرة كبيرة ، عند هبوب الريح وتدفق التيار اثناء الظلام الدامس فانها تخلق مأزقا عصيبا وورطة شديدة . على أية حال فقد جرت العادة ألا تعبر البواخر الكبيرة فى هذا الجزء من الشط صعودا أو نزولا بعد حلول الظلام نظرا لوجود فسحة مائية ضيقة جدا للعبور فيه ، لذا من النادر جدا أن يحدث فيه اصطدام بالرغم من الاحتمال الكبير لحدوثه هنا . ومع ذلك فمن الأسلم للباخرة ان تلزم مرساها الخاص ، وأثناء رسونا هناك تلبدت خلال العصر نذر عاصفة قوية وهبت علينا بعد منتصف الليل بعنف وضراوة ، مصحوبة ببرق ورعد ، وانهمر علينا برد قارس . وقد دامت هذه العاصفة ـ شأنها شأن جميع العواصف التى تهب فى الخليج ـ لأكثر من ساعة بقليل . وانبلج الصباح مشرقا وصافيا ومنعشا . وفى حوالى الساعة السابعة صباحا رفعنا المرساة

ومررنا بمدينة عبادان التى تنبعث منها رائحة النفط الكريهة وبعدها بقليل مررنا بالفاو المقفرة الموحشة . وقد اجتزنا عائق الفاو بسلام إلا اننا جنحنا فى القاع عند عائق جرف البصرة الموحل . وبعد ان ساورنا بعض القلق خلصنا القبطان بهدوء من تلك المحنة وأمضينا طوال ذلك اليوم مبحرين فى مياه الخليج بمرأى من الساحل الفارسى الجبلى الاجرد ، وتعقبتنا طيور النورس البحرية المألوفة الرؤية باجنحتها التى لا تكل ولا تتعب من الطيران طوال النهار حتى مغيب الشمس . وفى مطلع العام الجديد وفى تمام الساعة الواحدة والنصف صباحا رسونا بسلام فى المرفأ الداخلى لابى شهر . وأول شىء وقع عليه بصرى فى الصباح كان منظر جبل « خرماز » ومشهد الشمس وهى تعلو فوق قمته البارزة المسننة . وكان الطراد الصغير « برسبوليس » والمبانى الرئيسية فى المدينة مزدانه جميعا بالرايات المتعددة الألوان ابتهاجا بحلول العام الجديد ١٩١٧ . وقد قمنا بانزال المجموعة الكبيرة من العمال الذين اصطحبناهم معنا بالباخرة إلى البصرة . وهم فئة خشنة ، فظة ، وشرسة المنظر ، وقد تحولوا إلى فئة مرحة ووديعة ومسالمة ، وانجزوا عملهم على أحسن وجه ولم يخلقوا أية مشكلة . وأنزلنا هنا أيضا المرشد البحرى . وفى الساعة الثانية بعد الظهر بدأنا الشوط الأخير فى رحلتنا البحرية عائدين مباشرة إلى بومباى . فيما بدت المدينة الفارسية القديمة الجاثمة وسط الأمواج الزرقاء خلال وقت العصر الصافى بديعة المظهر . وآخر ما وقع عليه بصرى من بلاد فارس كان منظر قمة جبل « خرماز » الشاهقة حتى توارت تماما عن الأنظار فى غسق المساء . وقد قطعت الباخرة « زيانى » ، التى سأحتفظ دائما بذكرى جميلة سارة معها ، رحلتها البحرية بسرعة تتراوح من عشرة ونصف إلى احدى عشر عقدة فى الساعة واعادتنا إلى بومباى فى صباح يوم ٧ يناير ١٩١٧ فى مدة استغرقت أكثر من ستة أيام من أبى شهر . وقد أحاط ضباب كثيف بساحل بومباى وحجبه عن الأنظار وكان علينا أن نتأنى فى مسارنا ، وأن نتوقف ، وان نتريث ، وان نتباطأ ، وان نرصد باحتراس شديد الأطراف الممتدة من الساحل . وفى الساعة الثامنة صباحا بددت الشمس تلك الغشاوة وتراءى لنا الفنار الخارجى الكبير اشبه بشبح ضخم يلوح من بعيد . وصعد المرشد على متن الباخرة بعد ذلك ، وبما أن التيار كان مواتيا فقد انسلت الباخرة « زيانى » إلى داخل بوابات الحوض واستقرت فى مرساها بسلام فى الساعة العاشرة والنصف صباحا ، عائدة بنا سعداء إلى وطننا مرة أخرى ، بعد قضاء رحلة سارة استغرقت شهرا واحدا ، زرت ورأيت خلالها عالما جديدا تماما بالنسبة لى حيث وجدته ممتعا ومهذبا إلى أبعد الحدود .

محتويات الكتاب

رقم الايداع
في المكتبة العامة ـ البحرين
٨١٩ د.ع/١٩٨٩م



المقدمة

تقوم مطبوعات بانوراما الخليج في سلسلة اعمالها المهتمة بتراث المنطقة بنشر كتاب (أرض النخيل) للكاتب الهندي (سي. أم. كرستجي) الذي زار منطقة الخليج اثناء الحرب العالمية الاولى وبالذات في 16 ـ 1917، ودون ملاحظاته الشخصية وتفاصيل دقيقة جدا عن المنطقة في كتابه المذكور الذي ينشر ولاول مرة مترجما من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية وذلك بعد مضي سبعين عاما على تأليفه.

وهذا الكتاب يمثل وثيقة تاريخية عن الاوضاع السائدة فيها آنذاك.

ويقدم الكتاب عرض تفصيلي لرحلة امتدت من بومباى الى البصرة والعودة اليها، وصف شامل لموانىء وش العربي واحوالهم وتاريخهم بذلك يعد سجلا حافلا والمعاينات، كما يمثل وثيقة مدونة عن تراث وتقاليد وتاريخ وجغرافية المنطقة. اضافة الى ذلك فان الظرف التاريخي الذي تمت من خلاله هذه الرحلة وهو فترة الحرب العالمية الاولى، يعتبر ظرفا دقيقا وحساسا ومليئا بالمتغيرات على مستوى المنطقة وما حولها، مما اضفى على هذه الوثيقة التاريخية اهمية اضافية.

مطبوعات : بانوراما الخليج — المنامة — دولة البحرين
ص . ب ١١٢٢ هاتف : ٢٩١٧٧٧ فاكس : ٢٩٣١٠٠